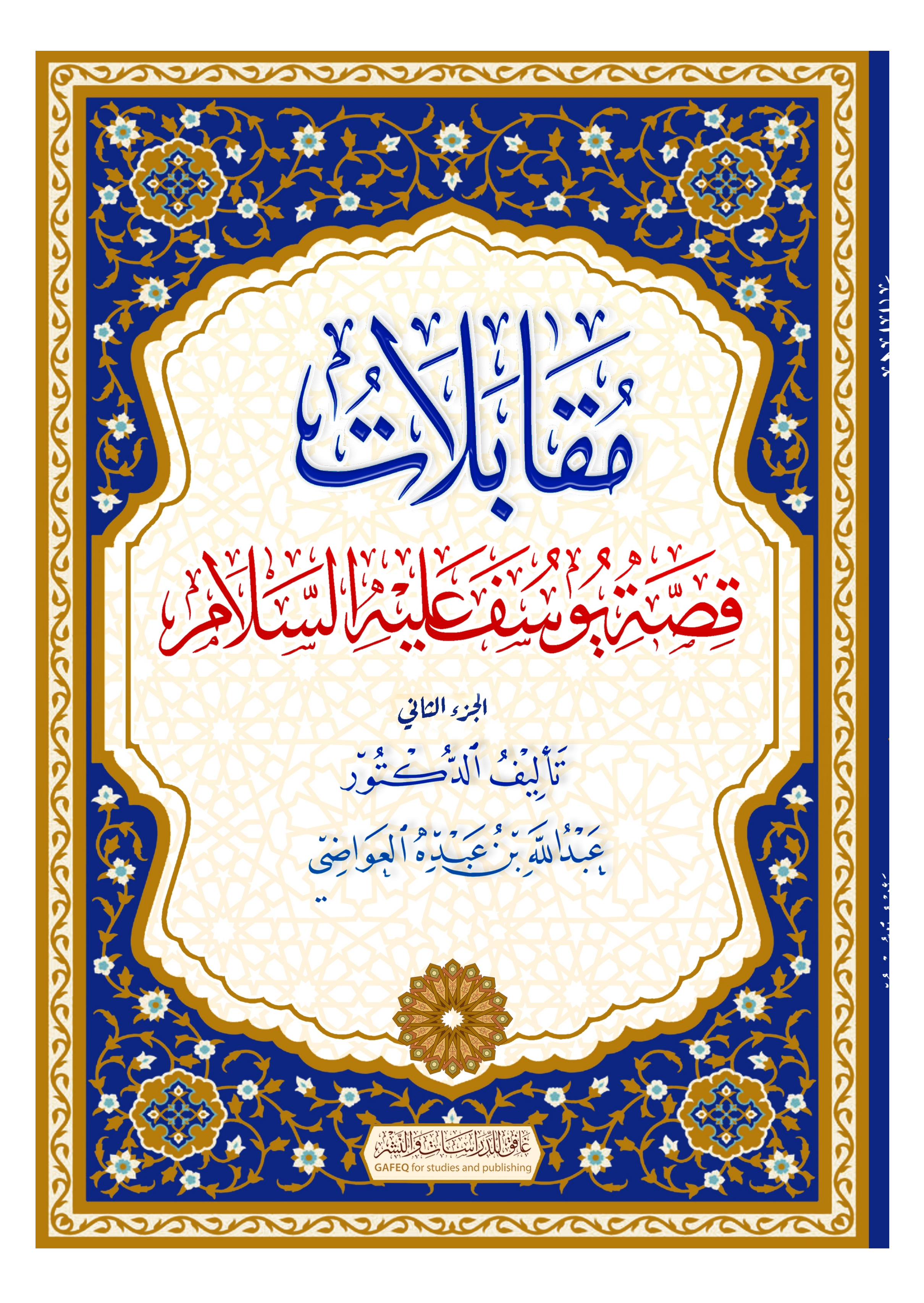
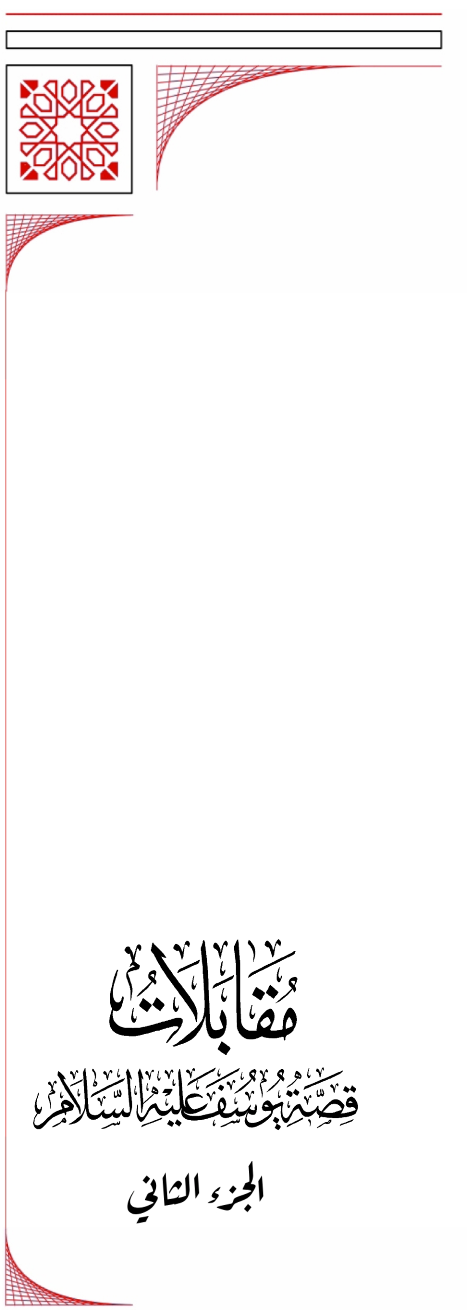
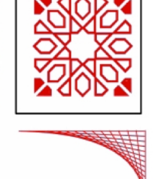

مقابلات
قصة يوسف عليه السلام
الجزء الثاني
تأليف الدكتور
عبدالله بن عبده العواضي
عافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing

مُقابلات
قصة يوسف عليه السلام
الجزء الثاني





العنوان: مقابلات قصة يوسف عليه السلام.

تأليف: د.عبد الله عبده العَوَاضي.

الجزء: الثاني.

عدد الصفحات: (٣٩٦).

النَّاشر: غافق للدراسات والنشر.

الطّبْعة: الثانية، ١٤٤٤هـ-٢٠٢٢م.

قياس القطع: ١٧× ٢٤.

رقم الإيداع: (١٩٨٢) بدار الكتب بصنعاء لعام ٢٠٢٠م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.





إخراج فني وإلكتروني:
هشام بن حسين الأهدل







مقابلات

قصة يوسف عليه السلام

الجزء الثاني

تأليف الدكتور

عبد الله بن عبده العواضي







بسم الله الرحمن الرحيم

التُّهمة والبراءةُ منها

المطلب الأول: التهمة:

التعريف:

لغة:

التُّهَمَةِ- كَهُمَزَةٍ- والتُّهْمَةُ- بِضَمٍّ فَسُكُونٍ- لَغَةٌ، والتهمة: فُعْلَةٌ من الوَهْم والتاء بدل من الواو، وهِيَ بِالسُّكُونِ في المَصْدَرِ، وبِالتَّحْرِيكِ: اسْمٌ.واتَّهَمَ الرجلَ وأَتْهَمه وأَوْهَمَه أَدخلَ عليه التُّهمةَ وظنها به أي: ما يُتَّهَم عليه، واتهمه في قوله شك في صدقه، واتَّهَم هو فهو مُتَّهمٌ وتَهيمٌ، واتَّهَمْتُه ظننتُ فيه ما نُسب إليه، والجمع: تُهم وتهمات[1].

اصطلاحاً:

من خلال التعريف اللغوي يمكن أن نقول: إن التهمة هي: نسبة الإنسان إلى غيره مما يكره، وقد يكون المتّهِمُ صادقًا أو كاذبًا.

نافذة:

إن اتهام الإنسان غيرَه بشيءٍ ما من الأقوال أو الأعمال المكروهة ينقسم إلى قسمين:

(١) المعجم الوسيط (٢/١٠٦٠)، لسان العرب (١٢/٦٤٣)، تاج العروس من جواهر القاموس (٣٤/٦٥).

الأول: اتهام صحيح، وذلك بقيام الأدلة والقرائن الحسية أو المعنوية الدالة على صحة التهمة، مثل ما جاء في حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف، أن أباه حدثه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج، وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بِشِعْبِ الْخَزَّارِ من الجُحفة، اغتسل سهل بن حنيف وكان رجلاً أبيض، حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم! وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ، فَلُبِطَ بسهل[1]، فأُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهل؟ والله ما يرفع رأسه، وما يفيق، قال: (هل تتهمون فيه من أحد؟) قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة..[2].

فهذا القسم لا إثم فيه، بل قد يكون مطلوبًا أحيانًا؛ لاستيفاء الحقوق، وللحذر من حصول مكروه أو تكرره.

الثاني: اتهام باطل، وهو الذي لا يقوم على دليل وحجة، وليس له من برهان إلا البهتان، وسوء الظن والأذى. وإنما يقوم على طلب منفعة للمتّهِم، أو إيصال ضرر إلى المتّهَم ومن له صلة به، ومثاله: حادثة الإفك.

وهذا النوع لا شك في حرمته شرعًا، وبغضه خلقًا؛ لما يترتب عليه من الأضرار الدينية والاجتماعية، وما يجر إليه من نتائج سيئة.

فأعراض الناس ليس نهبًا مستباحًا لكل والغ، ولا يقبل الناس العقلاء أن يتهموا في دينهم أو أعراضهم بالباطل.

---

(١) أي: صُرع وسَقَط إلى الأرض.

(٢) رواه أحمد والطبراني، وهو صحيح.

وقد أدب الله المؤمنين في سورة الحجرات بآداب اجتماعية وأخلاقية تبعد عن الاتهام بالباطل، **ومن ذلك:** الأمر بالتثبت، والنهي عن سوء الظن والتجسس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات:٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات:١٢].

وذكر رسول الله وعيداً شديداً في هذا فقال: (ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردغة الخبال[١] حتى يخرج مما قال)[٢].

وفي قصة يوسف عليه السلام مشاهد التهمة الصادقة والتهمة الباطلة، نتحدث عنها فيما يأتي:

(١) **رَدْغَةُ الخَبَالِ**: الشَّيْءُ المُخْتَلِطُ مِنْ صديدِ أَهْلِ النَّارِ. غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٣٩٠).

(٢) رواه أبو داود واللفظ له والطبراني بإسناد جيد.

أولاً: ملخص التهم والمتهمين في قصة يوسف عليه السلام:

م	المتَّهَم	التهمة	المدعي (المتهِم)	سبب التهمة	دليل المتهِم	الحكم على التهمة
١	الذئب	أكل يوسف	إخوة يوسف	نفي التهمة عنهم بكونهم اعتدوا على يوسف	وجود الدم على قميص يوسف	باطلة
٢	إخوة يوسف	الكيد ليوسف	يعقوب	عدم رجوع يوسف معهم	كراهيتهم السابقة ليوسف	صحيحة
٣	يوسف	مراودة امرأة العزيز	امرأة العزيز	الهروب من غضب زوجها، وإرادة الشر بيوسف لمخالفته لها	لا يوجد	باطلة
٤	امرأة العزيز	مراودة يوسف	يوسف	الرد على اتهامها له	قدُّ قميصه من خلفه	صحيحة
٥	إخوة يوسف	سرقة صواع الملك	منادٍ من قبل يوسف	فقدان الصواع	لا يوجد	باطلة
٦	بنيامين	سرقة صواع الملك	فتيان يوسف	فقدان الصواع وعدم وجوده في رحال إخوته	وجود الصواع في رحله بعد التفتيش	صحيحة في الظاهر باطلة في الباطن
٨	إخوة يوسف	الكيد لبنيامين	يعقوب	عدم رجوع بنيامين معهم	الكراهية السابقة+ الجناية على أخيه يوسف	صحيحة في الظاهر لدى المتهِم للقرائن الماضية لديه عنهم، لكنها باطلة في الباطن

ثانيًا: المتَّهَمون في قصة يوسف عليه السلام:

ينقسم المتهمون في هذه القصة إلى قسمين:

الأول: متهمون أبرياء، والثاني: متهمون صدقت فيهم التهمة:

القسم الأول: المتهمون الأبرياء:

١-الذئب:

رجع إخوة يوسف عقب جريرتهم في حق يوسف، وكانوا قد بيتوا إلقاء التهمة على الذئب الذي لا يوجد على الحقيقة إلا في الأذهان، فقالوا لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧].

وأرادوا برمي الذئب بالتهمة تبرئة ساحتهم من التهمة بالكيد ليوسف، ولعلهم استفادوا تعليق الذنب بالذئب من قول أبيهم لهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[يوسف:١٣].

وكان دليلهم على ادعاء أكل الذئب يوسفَ قميص يوسف الملطخ بالدم.

ونتيجة الاتهام: عدم رواج تهمتهم لدى أبيهم؛ لقرائن الماضي والحال.

٢-يوسف عليه السلام:

كانت امرأة العزيز ذات بداهة حاضرة أسعفتها يوم هرب يوسف منها متجهًا نحو الباب فصادف دخول زوجها، فسرعان ما سبقت يوسف إلى أُذن زوجها فأفرغت فيها مضمون تهمتها ليوسف حيث قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف:٢٥].

وفي هذه العبارة البليغة ذكرت التهمة بطريقة غير مباشرة؛ لأن زوجها سيعرف برؤيتها منفردة بيوسف أنه لا متهم سواه، ثم إنها انتقلت عن عرض التهمة مجردة إلى النتيجة التي ترجوها من زوجها لينتصف لها من يوسف الذي أبى موافقتها في الباطن حقًا، وادعت مراودته لها في الظاهر باطلاً، فعيّنت العقاب ليوسف بأسلوب التخيير بين السجن والعذاب الأليم الذي لم تعينه، وقدمت السجن على العذاب الأليم وهو الذي استقر عليه الأمر أخيراً.

غير أن زوجها لم يغضب للموقف فغيرته لم تكن حية، وشهادة الشاهد زادته سكونًا إلى سكونه فلم يكن منه إلا أن يقول لزوجته وليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩].

٣-إخوة يوسف:

وجهت لإخوة يوسف تهمتان هم بريؤون منهما:

الأولى: التهمة بسرقة الصواع:

فبعد أن اتفق يوسف وبنيامين على تدبير حيلة لإبقائه عنده؛ أمر يوسف فتيانه بوضع الصواع في رحل بنيامين دون أن يشعر إخوته بذلك، وتغطية على أمر الحيلة نادى منادي يوسف نداءً عامًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف:٧٠].

فاتجهت التهمة عليهم أجمعين، ولما كان بنيامين هو صغير إخوته فإنه لم يتكلم وإنما تكلم من هو أكبر منه، فقبل أن ينفوا عن أنفسهم السرقة أقبلوا على المنادين فقالوا متعجبين: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾[يوسف:٧١].

وزيادة في تعمية الحيلة ذكرو عين ما يفقدون مع ا الجُعالة لمن جاء بالصواع والضمان على ذلك فقالوا: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[يوسف:٧٢].

"وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه، وتهويل سرقته على وجه الحقيقة؛ لأن شؤون الدولة كلها للملك.ويجوز أن يكون أطلق الملك على يوسف- عليه السلام- تعظيماً له"[١].

و"كان للسقاية اسمان فعبروا بقولهم: ﴿صواع الملك﴾، والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدّمة، سموه تارة كذا وتارة كذا، وإنما اتخذوا هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت"[٢].

"**وقال** بعضهم: الصواع اسم، والسقاية وصف، كقولهم: كوز وسقاء، فالكوز اسم والسقاء وصف"[٣].

فنفى إخوة يوسف في حنق وغضب عن أنفسهم التهمة أجمعين بعبارات مؤكدة فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف:٧٣].

"**والمعنى**: وحق الله لقد عرفتم من استقامتنا في المعاملة، وما نحن عليه من التدين والتصون، أننا ما جئنا لكي نفسد في الأرض بسرقة أو غيرها، بل جئنا للحصول على الطعام، وما كنا من قبل سارقين، فما حدثت منا سرقة في حياتنا ولا

(١) التحرير والتنوير (١٣/٢٨).
(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/١٢٥).
(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/٤٨٧).

وصفنا بها، فكيف يستقيم وصفكم لنا بسرقة صواع الملك؟"[1].

لكن فتيان يوسف لم يقنعوا بدفع التهمة عنهم بيمينهم وخبرهم؛ لعلمهم بوجودها في رحل بنيامين؛ فلذلك فتشوا الرحال حتى وصلوا إلى رحل بنيامين فألفوا الصواع فيه، فزالت التهمة عن إخوة يوسف، حاشا بنيامين.

الثانية: التهمة بالكيد لبنيامين:

لما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم حدثوه بأمر بنيامين فسارع إلى اتهامهم؛ نظراً لتاريخهم السابق المشوب بالكراهية لأخيهم، والملطخ بفعلتهم بيوسف، فاعتمد يعقوب عليه السلام على هذه القرائن فألقى بالتهمة عليهم، وكان موقفه إزاءهم هو الموقف الأول مع يوسف حيث قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

فهذه تهمة لهم بالتغرير بأخيهم، فظن بهم سوءاً فصدق ظنه في زعمهم في يوسف عليه السلام ولم يتحقق ما ظنه في أمر بنيامين، أي: أخطأ في ظنه بهم في قضية بنيامين، ومستنده في هذا الظن علمه أن ابنه لا يسرق، فعلم أن في دعوى السرقة مكيدة.فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل.وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف عليه السلام؛ فإنه كان قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾[يوسف: ٦٤]"[2].

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (٥/٣٦١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/١٠٧).

رغم أنهم طلبوا منه أن يعتمد أدلة أخرى تنفي عنهم التهمة وهي بقاء أحد إخوانهم في مصر، وسؤال أهل مصر، وسؤال القافلة، لكن يعقوب رأى أن القرائن التي لديه أقوى حجة وأصدق لهجة، فردها عليهم.

٤-بنيامين:

حينما وجد الصواع في رحل بنيامين اتهم بسرقته في الظاهر؛ إذ قبض عليه حالة تلبسه بالمسروق، وهذه قرينة للتهمة بذلك، وعند الفقهاء من " القرائن القضائية: الحكم بالشيء لمن كان في يده، باعتبار أن وضع اليد قرينة على الملك بحسب الظاهر. وإذا كانت القرينة قطعية تبلغ درجة اليقين، مثل الحكم على الشخص بأنه قاتل إذا رئي مدهوشاً ملطخاً بالدم، ومعه سكين بجوار مضرج بدمائه في مكان؛ فإنها تعد وحدها بينة نهائية كافية للقضاء "[١].

فلما حصل ذلك تمت تهمة بنيامين بالسرقة في الظاهر والباطن لدى إخوته، وفي الظاهر دون الباطن لدى يوسف ومن معه من أجل الحيلة التي دبرت لذلك.

فكانت النتيجة أن أخذ بنيامين بقضاء شريعة يعقوب: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[يوسف:٧٥].

القسم الثاني: المتهمون الذين صدقت فيهم التهمة:

١-إخوة يوسف:

حينما اطلع يعقوب عليه السلام على حجة أبنائه على أكل الذئب ليوسف؛ عرف

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته (٨/٢٥٨).

أنهم كاذبون فألحق بهم التهمة، غير أنه لما كان نبيًا لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله لم يستطع أن يعلم ماذا فعلوا بيوسف تعيينًا؛ فلذلك **قال** في تهمته لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

فـ"الإبهام الذي في كلمة ﴿أَمْراً﴾ يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف عليه السلام؛ من قتل، أو بيع، أو تغريب؛ لأنه لم يعلم تعيين ما فعلوه. وتنكير ﴿أَمْراً﴾ للتهويل "[١].

غير أن أباهم لم يصنع بهم شيئًا من العقاب، ولم يخبرنا الله عن ذلك، بل تحصن بحصن الصبر الجميل حتى يأتي الفرج.

٢- امرأة العزيز:

لم يكن يوسف ليلقي بتهمته الصادقة على امرأة العزيز لولا تهمتها الجريئة له، فدفع يوسف عن نفسه التهمة فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[يوسف:٢٦].

فإن امرأة العزيز لما أغرت بيوسف وعرّضته للسجن والعذاب، وأظهرت تهمته احتاج إلى إزالة التهمة عن نفسه، ولولا ذلك لكتم عليها، ولم يسبق إلى القول أولاً ستراً عليها، فلما خاف على نفسه وعلى عرضه الطاهر قال : ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وقد أتى بضمير الغيبة " هي" إذ كان غلب عليه الحياء أن يشير إليها ويعينها بالإشارة فيقول: هذه راودتني، أو تلك راودتني، لكن في المواجهة بالقبيح ما ليس في الغيبة[٢].

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٧).

(٢) الكشاف.(٢/ ٤٣٣)، تفسير البحر المحيط.(٥/ ٢٩٧).

المطلب الثاني: البراءة من التهمة:

التعريف:

لغة:

الباء والراء والهمزة أصل يدل على التباعُد مِن الشيء ومُزايَلته، ومن ذلك البَراءة من العَيبِ والمكروه، ولا يقال منه: إلا بَرِئَ يَبْرَأُ. يقال: برئ من التهمة: خلص وخلا، وفلان بريء الساحة خالٍ مما اتُّهم به، ويقال: بَرِئَ إليكَ مِنْ حَقِّكَ بَراءة وبَراءً وبُروءاً وتبرُّؤاً وأَبرَأَكَ مِنهُ وبَرَّأَكَ. وأَنا بَرِيءٌ مِنْ ذلِكَ وبَراءٌ والجمْعُ بِراءٌ مثل كَرِيمٍ وكِرامٍ، وبُرَآءُ مِثل فقِيه وفُقَهاء وأَبراء مثل شريفٍ وأَشرافٍ وأَبرِياءُ مثل نَصِيبٍ وأَنْصِباء، وبَرِيئون وبَراء. وأصل الْبُرْء: خلوص الشَّيْء عَن غَيره[1].

اصطلاحًا:

من خلال ما سبق يمكن أن نقول: إن البراءة من التهمة اصطلاحًا هي: السلامة من التهمة، وخلو العرض من لصوقها.

نافذة:

إن الإنسان الكريم الشريف لا يحب أن يكون موضع تهمة، ولا مرمى لسوء الظن، بل يطلب دائمًا السلامة من الطعن، والبراءة مما يشين.

وأما إذا لزقت به تهمة فإنه لا يستقر قراره، ولا يهدأ باله حتى يجد البراءة

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/٢٣٦)، لسان العرب (١/٣١)، المعجم الوسيط (١/٤٦)، الكليات (ص:٢٣١).

منهـا، ومـا موقـف عائـشة رضي الله عنهـا في حادثـة الإفـك مـن طـول حزنهـا، وتواصل بكائها، وامتداد أرقها؛ إلا مثال على أثر التهمة الباطلة في حق البريء الشريف.

وفي هـذه القـصة مـشاهد للـبراءة مـن التهمـة، وأعظمهـا بـراءة يوسـف عليـه السلام، وسنتحدث عن ذلك في الآتي:

أولاً: براءة الذئب من دم يوسف:

ألقى إخوة يوسف التهمة على الذئب بأنه أكل يوسف، وأوردوا على ذلك حجة ادعوا بها صدقهم وهي قميص يوسف المضرج بالدم الذي زعموا أنه دم يوسف.

لكن يعقوب عليه السلام برأ الذئبَ من التهمة وألحقها بهم بقرينتين:

الأولى: كراهيتهم وحسدهم ليوسف، وهذا يوجب تهمتهم، ويسلم الذئب من التهمة.

الثانيـة: ذكر جمهور المفسرين أن قميص يوسف لم يظهر عليه آثار مخالب الذئب وبراثنه تمزيقًا وتقطيعًا.

فعن الحسن، قال: جيء بقميص يوسف إلى يعقوب فجعل ينظر إليه فيرى أثر الدم، ولا يرى فيه خَرْقًا، قال: يا بني، ما كنت أعهدُ الذئب حليمًا؟!(1).

وهناك قرينة أخرى لنفي التهمة عن الذئب وهي أنهم لم يحضروا شيئًا من

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٨٠).

أعضاء يوسف، فلو كان الذئب أكله حقًا لأبقى منه شعراً أو ظفراً أو عظمًا أو قطعة من لحم أصابه الشبع فتركها.

ولقد صارت براءة الذئب قصة يضرب بها المثل في السلامة من التهم؛ **قال** الحريري في مقاماته: "حتى إذا أعْفى بعْدَ إسْفارِ الصّبح.بِما بَقيَ منْ مالِ الصّلْحِ.تخلّصَتْ قائِبَةٌ من قُوبٍ.وبَرِئَ بَراءةَ الذّئْبِ منْ دمِ ابنِ يعْقوبَ"[1].

وقال صاحب نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد: "فَصْلٌ في الذَّنْبِ وَالْبَرَاءةِ

...وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ بَرَاءَةَ الذِّئْبِ مِنْ دَمِ ابْنِ يَعْقُوب"[2].

وقال الشاعر:

إِن كَانَ موعودك الْجُود لي ... أكذبَ من مَوْعُود عرقوبِ

فَإِنَّ إخبارك فِي مدحتي ... أكذبُ من ذِئْب ابْن يَعْقُوبِ[3].

ثانيًا: براءة يوسف عليه السلام:

لقد تعددت مصادر براءة يوسف عليه السلام من تهمة امرأة العزيز له بالمراودة تعدداً عجيبًا، وظهرت براءته جلية في ثلاثة أماكن كل مكان أوضح من الذي قبله:

المكان الأول: في بيت العزيز:

(١) مقامات الحريري (ص:١٠٠).

(٢) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد (٢/١٠٨-١٠٩).

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب (٣/٢٨٠).

وقد برأه **فيه ثلاثة مصادر** رئيسة:

الأول: قدُّ القميص من خلفه.وهو دليل واضح على أنه مطلوب لا طالب.

الثاني: شهادة الشاهد بصحة براءته؛ إذ استدل على ذلك بقد القميص، فحكمه بذلك يؤيد المصدر الأول.

وهذا الشاهد اُختلف فيه: هل هو كبير أو صغير؟ لكن ورد حديث يؤيد أنه صبي صغير وهو في مسند أحمد: **قال** ابن عباس: تكلم أربعة صغار: عيسى ابنُ مريم عليه السلام، وصاحب جُرَيْج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون[1].

الثالث: العزيز؛ فإنه لما رأى ما سبق وسمع حكم الشاهد قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٥-٢٩].

وقال الرازي: واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق:

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

فالأول: أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم، والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

والثاني: أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديداً ليخرج، والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه.

والثالث: أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس، فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

الرابع: أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة، فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر، وذلك أيضًا مما يقوي الظن.

الخامس: أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح، بل ذكرت كلاماً مجملاً مبهماً، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر، ولو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح؛ فإن الخائن خائف.

السادس: قيل: إن زوج المرأة كان عاجزاً، وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة، فإلحاق هذه الفتنة بها أولى.

فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة"[(١)].

---

(١) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب.(١٨/ ٩٩).

المكان الثاني: المجمع الذي جمعت فيه امرأة العزيز النسوة:

فإنها في ذلك المكان قد صرحت على الملأ بمراودتها له وامتناعه عن ذلك، وزادت على ذلك توعده بالعقوبة إن لم يطاوعها، **قال** تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢].

فلما اجتمعت أدلة براءة يوسف وتهمة المرأة في هذين المكانين رأوا إدخال يوسف السجن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٥].

يعني: ظهر لهم أي: للعزيز وأصحابه في الرأي، وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض، ثم بدا لهم أن من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات -وهي الأدلة- على صدقه في عفته ونزاهته وهي شهادة الصبي، وقَدّ القميص، وقطع الأيدي وقلة صبرهن عن لقاء يوسف، واستعصامه منهن. فكأنهم -والله أعلم- إنما سجنوه لما شاع الحديث؛ إيهامًا أن هذا راودها عن نفسها، ولينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فأرادوا أن يعلم الناس أنهم ما سجنوه على ذلك، وكذلك وللحيلولة بينه وبينها.

وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب، وكان مطواعًا لها وجملاً ذلولاً زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات، وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به، كما أوعدته به، وذلك لما

أيست من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلله السجن، ويسخره لها[1].

المكان الثالث: بين يدي الملك:

فبعد أن عبر يوسف رؤيا الملك رأى علمه وعقله فأراد إخراجه من السجن، فأبى يوسف الخروج، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

وقد امتنع يوسف- عليه السلام- عن الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته مما رمي به في بيت العزيز؛ ليعلم الملك أنه سُجن ظلماً، ولأن ذلك قد بلغ الملك لا محالة؛ لئلا يكون تبريزه في التعبير الموجب لإطلاقه من السجن كالشفيع فيه، فيبقى حديث قرفه بما قُرف به فاشيًا في الناس، فيتسلق به الحاسدون إلى انتقاص شأنه عند الملك يومًا ما، ولئلا يقولوا: ما خلده في السجن إلا أمر عظيم وجرم كبير، استحق به أن يسجن ويعذب، ويكشف سره، وليكون حضوره لدى الملك مرموقًا بعين لا تنظر إليه بشائبة نقص.

وكان هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً، وطلباً لبراءة الساحة، وذلك أنه فيما روي خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويسكت عن أمر دينه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه.فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته، ويتحقق منزلته من العفة والخير، وحينئذ يخرج للإحظاء والمنزلة.وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يتقي المرء مواضع التهم، ويجتهد في نفيها.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٨٧)، البحر المديد (٣/٣٨٢)، تفسير البغوي (٤/٢٣٩)، تفسير السعدي (ص:٣٩٧)، تفسير القرطبي (٩/١٨٦)، الكشاف.(٢/٤٤١).

ولأجل هذا كان الزمخشري -وكان مقطوع الرجل- قد أثبت على القضاة أن رجله لم تقطع في خيانة ولا فساد، وكان يظهر ذلك المكتوب في كل بلد دخله خوفاً من تهمة السوء(١).

وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف:٥٠].أي: ففتشه عن شأنهم، وإنما لم يقل: فاسأله أن يفتش عن ذلك؛ حثًا للملك على الجد في التفتيش؛ ليتبين براءته، ويتضح نزاهته؛ إذ السؤال مما يهيج الإنسان على الاهتمام في البحث للتفصي عما توجه إليه، وأما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالي به، وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز مع ما لقي منها ما لقي من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان، والأحزان محافظة على مواجب الحقوق، واحترازاً عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة.وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم؛ ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي، ولم يصرح بمراودتهن له، وقولهن: أطع مولاتك، واكتفي بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

وجعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوله، فمعنى ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ بلغ إليه سؤالاً من قبلي.وهذه حكمة عظيمة تحق بأن يؤتسى بها، وهي تطلب المسجون باطلاً أن يبقى في السجن حتى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله، وهي راجعة إلى التحلي بالصبر حتى يظهر النصر(٢).

قال الرازي: "وههنا دقيقة وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/٢٨٨)، البحر المديد (٣/٣٩٢)، البحر المحيط (٥/٣١٥).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٢٨٤)، التحرير والتنوير (١٢/٢٨٨).

العزيز حيث قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف:٥٠]. فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة، فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها، وتعظيماً لجانبها، وإخفاء للأمر عليها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن، فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء، واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها، وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل. ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي، وادعت عليه المهر، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة، فقال الزوج: لا حاجة إلى ذلك؛ فإني مقر بصدقها في دعواها، فقالت المرأة: لما أكرمتني إلى هذا الحد فأشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك"(١).

فعند ذلك جمع الملك النسوة وأقام محكمة البراءة اليوسفية بعدل وإنصاف، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥١-٥٣].

وفي هذه الآيات اتضحت براءة يوسف تمام الاتضاح لجميع الناس بصدور نفي اتهامه بالمراودة **من ثلاثة مصادر**:

١ -الملك؛ حيث صرح بوجود مراودة منهن.

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب.(١٨/ ١٢٣).

٢-اعتراف النسوء بنزاهة يوسف.

٣-تصريح امرأة العزيز بمراودتها يوسف عن نفسه.

" ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة، واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به؛ لأنهنّ خصومه. وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال"(١).

وفي "هذه الآية دلالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من **وجوه كثيرة**:

الأول: أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهماً بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش؛ لاستحال- بحسب العرف والعادة- أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة؛ لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلبه من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعياً منه في فضيحة نفسه، وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية، والعاقل لا يفعل ذلك. وهب أنه وقع الشك لبعضهم في عصمته أو في نبوته إلا أنه لا شك أنه كان عاقلاً، والعاقل يمتنع أن يسعى في فضيحة نفسه، وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في إظهار عيوبه.

والثاني: أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَآ إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف: ٣١]، وفي المرة الثانية حيث قلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾.

والثالث: أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت: ﴿وَلَقَدْ

(١) تفسير الكشاف (٢/٤٥١).

رَاوَدتُّه عَن نَّفْسِه فَاسْتَعْصَمَ﴾[يوسف: ٣٢].

وفي المرة الثانية قولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.وهذا إشارةٌ إلى أنَّه صادقٌ في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[يوسف: ٢٦].

ورابعها: قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ يعني: أن صاحب الخيانة لابد وأن يفتضح، فلو كنت خائناً لوجب أن أفتضح، وحيث لم أفتضح وخلصني الله تعالى من هذه الورطة، فكل ذلك يدل على أني ما كنت من الخائنين، وهاهنا وجه آخر وهو أقوى من الكل وهو: أن في هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة، وتلك المحنة صارت منتهية، فإقدامه على قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾[1] -مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة- إقدام على كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما، والإقدام على مثل ذلك من غير فائدة أصلاً لا يليق بأحد من العقلاء، فكيف يليق إسناده إلى سيد العقلاء، وقدوة الأصفياء؟ فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته"[2].

وحينها خرج يوسف الصديق من السجن نقي الثوب من دنس التهمة، ينظر بملء عينيه، وقد انفسحت عنه التهمة، وسقطت عنه القِرْفَةُ، وبرئ مما رمي به من البهتان المبين.

هل ثبت أن النسوة راودن يوسف عن نفسه؟

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ

(١) تقدم أن هذا من قول المرأة لا من قول يوسف، على الراجح.

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٢٤) بتصرف.

فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥٠-٥١].

لو تأملنا في ظاهر الآيات سنجد:

١-أن يوسف طلب من الملك أن يسأل ما شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولم يصرح هنا بعين التهمة وهي المراودة.

٢-وجه يوسف الخطاب إلى النسوة، ولم يخص امرأة العزيز.

٣-ذكر علم الله بكيد النسوة، فجمعهن ولم يعين امرأة العزيز، ولم يذكر نوع الكيد.

٤-وجه الملك الخطاب لجميع النسوة بالمراودة ليوسف عن نفسه.

٥-أجابت النسوة عن ذلك بقولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ دون تصريح بالنفي لمراودتهن له.

٦-نزهن يوسف عن التهمة بلفظ العموم بقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

٧-تكلمت امرأة العزيز وصرحت عن نفسها بأنها راودته، وأنه صادق في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

فمن خلال ما مضى يتبين:

أ-أن يوسف لم يصرح بأن جميع النساء راودنه، وإنما ذكر شأن تقطيع الأيدي، وعِلمَ الله بكيدهن، وهذا ليس فيه تصريح بمراودتهن له.

ب-الذي صرح بمراودتهن له الملك عند التحقيق، وهذا يلمح منه حصول

المراودة من جميعهن.

ج-جواب النسوة لا يفهم منه نفي المراودة، وإنما الشهادة ليوسف بالبراءة.

د-تصريح امرأة العزيز بذلك الأسلوب: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ﴾ يفهم منه قصر المراودة عليها.

وإذا رجعنا إلى كلام المفسرين سنجد أن أغلب المفسرين قد صرحوا بأن النساء لم يراودن يوسف، وإنما المراودة حصلت من امرأة العزيز وحدها، وإنما ذكر الخطاب بلفظ الجمع لسبب:

قال ابن عاشور: "وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلاً للكشف عن أمرها؛ لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعيًا للعزيز، ولأن حديث المتكأ شاع بين النساء، وأصبحت قضية يوسف عليه السلام مشهورة بذلك اليوم، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ﴾[يوسف: ٣٥]، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنها راودت يوسف عليه السلام عن نفسه. فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب.....وأسندت المراودة إلى ضمير النسوة لوقوعها من بعضهن غير معين، أو لأن القالة التي شاعت في المدينة كانت مخلوطة ظنًا أن المراودة وقعت في مجلس المتكأ"(١).

وقال أبو حيان: "ومن كرم يوسف عليه السلام أنه لم يذكر زوج العزيز مع ما صنعت

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٥-٧٦).

به، وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات الأيدي "[1].

وقال سيد طنطاوي: "وجعل السؤال عن النسوة اللائي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز، وفاء لحق زوجها، واحترازاً من مكرها، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشف: ﴿فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّن الصَّاغِرِين﴾ واكتفي بالسؤال عن تقطيع أيديهن دون التعرض لكيدهن له، ستراً لهن، وتنزهًا منه عليه السلام عن ذكرهن بما يسؤوهن "[2].

وذكر أصحاب هذا القول أن مراودة النسوة هي إعانتهن امرأة العزيز بقولهن ليوسف: أطع مولاتك[3].

وهناك قلة من المفسرين من صرح بأن المراودة حصلت من كل واحدة من النسوة:

قال الماوردي: "وفي قوله : ﴿رَاوَدتُّنَّ﴾ وإن كانت المراودة من إحداهن **وجهان**:

أحدهما: أن المراودة كانت من امرأة العزيز وحدها، فجمعهن في الخطاب وإن توجه إليها دونهن احتشاماً لها.

(١) البحر المحيط (٥/٣١٦).

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/٣٧٤).

(٣) البحر المحيط (٥/٣١٦).

الثاني: أن المراودة كانت من كل واحدة منهن[1].

وقال القرطبي: "وذلك أن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسها- على ما تقدم- أو أراد قول كل واحدة: قد ظلمت امرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهن"[2].

وقد جمع الاحتمالات الواردة، بعض المفسرين، **قال** ابن الجوزي: "فإن قيل: إنما راودته واحدة فلم جمعن؟ فعنه **ثلاثة أجوبة**:

أحدها: أنه جمعهن في السؤال ليعلم عين المراودة.

والثاني: أن زليخا راودته على نفسه وراوده باقي النسوة على القبول منها.

والثالث: أنه جمعهن في الخطاب والمعنى لواحدة منهن؛ لأنه قد يوقع على النوع وصف الجنس إذا أمن من اللبس، يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للنساء: (إنكن أكثر أهل النار)[3] فجمعهن في الخطاب، والمعنى لبعضهن، ذكره ابن الأنباري"[4].

---

(١) النكت والعيون (٣/٤٦).

(٢) تفسير القرطبي (٩/٢٠٧).

(٣)متفق عليه.

(٤) زاد المسير (٤/٢٣٧).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد التهمة والبراءة منها في قصة يوسف عليه السلام:

١-صاحب الغرض السيء قد يسعى إلى هدفه بكل وسيلة يقدر عليها من غير أن يبالي باتهام بريء، أو جرح شعور، أو عقاب إلهي ينتظره.

٢- قد يحصل من المجرم خطأ أو خذلان من الله يمنعه من إحكام غطاء جرمه، فيكون ذلك خيطًا ينتهي إلى معرفة المتهم.

٣-أيها المؤمن، قد يقيض الله لك ناصراً ومنجداً من حيث لا تحتسب، وربما من عدوك أو أقاربه أحيانًا ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾.

٤- ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ ولم تقل: من فعل، وهذا من ذكائها، وقد قصدت بذلك:

أ-عدم حصول فاحشة.

ب-تبرئة نفسها من وقوع مراودة منها.

ج-إبداء عفتها أمام زوجها وأنها غير خائنة.

٥-لقد برأ الذئبَ القميصُ السليم، وبرأ يوسفَ القميص المخرق.

٦-السيرة الملطخة بالسوء طريق إلى التهمة في المستقبل، ولو كان صاحبها بريئًا، وقد يحتاج إلى نقاء صحيفته زمنًا وجهداً، بخلاف الإنسان الطاهر الثوب؛ فإن اتهامه قد لا يصدقه الناس العارفون بماضيه النقي إلا بالقرائن القاطعة.وهذا يجعل العاقل يجمل سيرته بالأعمال الحسنة؛ حفاظًا على حاضره ومستقبله، فالماضي الجميل كنز لآتي الأيام.وفي رسولنا صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة؛ إذ كان ماضيه قبل البعثة طريقًا إلى تصديقه بعدها.

٧-لابد أن تشرق شمس الزمان فتكشف لعيون المبصرين نقاء البريء وسلامته من تهم المبطلين، وأن تجلو للناس أهل التهمة الذين تستروا في زوايا الظلام.

الخوفُ والأَمن

المطلب الأول: الخوف:

التعريف:

لغة:

(**خوف**) الخاء والواو والفاء أصلٌ واحد يدلُّ على الذُّعْرِ والفزَع، يقال: خِفْتُ الشّيءَ خوفاً وخِيفةً، والياء مبدَلةٌ من واو لمكان الكسرة، ويقال: خاوَفَني فلانٌ فخُفْتُه، أي: كنتُ أشدَّ خوفاً منه، وخَوَّف الرجلَ إذا جعل فيه الخوف، وخَوَّفْتُه إذا جعلْتَه بحالة يخافُه الناس، ويضاد الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية.

والخيفة: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف **قال** تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[الروم:٢٨].أي: كخوفكم، وتخصيص لفظ الخيفة تنبيهًا أن الخوف منهم حالة لازمة لا تفارقهم.

والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب؛ كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي، واختيار الطاعات؛ ولذلك قيل: لا يعد خائفًا من لم يكن للذنوب تاركاً، والتخويف من الله تعالى: هو الحث على التحرز[1].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، المعجم الوسيط (١/ ٢٦٢)، لسان العرب (٩/ ٩٩)، مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٣٣١).

اصطلاحًا:

الخوف هو: انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه، أو يفوت من المحبوب.

وقيل: توقع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة.

وقيل: حذر الإنسان من أمور ظاهرها يضره.

وقيل: غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء(١).

نافذة:

الخوف شعور في النفس يحمل صاحبه على الحذر مما خاف، وهو إما خوف محظور، وإما خوف مأمور به، وإما خوف طبيعي.

فالخوف المحظور والمأمور اجتمعا في قوله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]. فالخوف من المعبودات الباطلة شرك، والخوف من الله وحده توحيد.

والخوف من الأشياء المؤذية؛ كمفترس وجارح وممرض خوف طبيعي يسوق إليه الضعف البشري.

إن الخوف من الله تعالى هو الذي ينبغي للعبد أن يلازمه ولا ينفك عنه؛ لأنه يحرسه من الوقوع في الخطايا.

"والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم،

---

(١) المعجم الوسيط (١/ ٢٦٢)، مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٣٣١)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣٢٨).

فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلاً محموداً، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضاً أو موتاً أو هماً لازماً بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل، لم يكن محموداً"(١).

وفي هذه القصة المباركة مشاهد من الخوف، نتحدث عنها في الآتي:

المشهد الأول: خوف يعقوب عليه السلام على أبنائه:

أ-خوفه على يوسف من إخوته:

فإن يعقوب عليه السلام قد أدرك تمام الإدراك حسد إخوة يوسف ليوسف، وهو يعلم أن الحسد إذا عظم فإنه يدعو إلى إضرار الحاسد بالمحسود؛ انتقامًا من المحسود، وشفاء لنفس الحاسد، هكذا يعتقد ذو الحسد.

فلهذا خاف يعقوب على يوسف من هذا المصير بيد إخوته.

وقد كان إخوة يوسف يعلمون أن أباهم غير مؤتمنهم على يوسف؛ لقرائن رأوها منه؛ فلهذا قالوا منكرين عليه ذلك: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[يوسف:١١].

و" هذا تلطف منهم مع أبيهم في أمر يوسف، وتشبيب لمساءلتهم إرساله معهم، بدأوا بالإنكار عليه خوفه إياهم على يوسف، وثنوا بإظهار النصح له في

---

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار (ص:٢٨).

قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، **قال** ابن عباس: يريد في الرحمة والبر"[1].

قال الرازي: "اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف، ولولا ذلك لما قالوا هذا القول"[2].

ومما يدل على خوف يعقوب على يوسف من إخوته في القصة أمران:

الأول: أنه نهاه أن يقص رؤياه عليهم، حيث قال له: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يوسف:٥]. ففي الرؤيا ما يوحي بالخير الذي سيلقاه يوسف في المستقبل، فلو حدثهم يوسف بذلك لازدادوا حسداً له على حسد، فأفضى بهم ذلك إلى الانتقام منه.

الثاني: أنه امتنع عن إرساله معهم، وصرح لهم بخوفه عليه فقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[يوسف:١٣].

فذكر يعقوب سببين لامتناعه من إرساله معهم: الحزن بذهابه عنه، خوف أكل الذئب له.

ولعله طوى في نفسه سببًا هو أهم من ذينك السببين وهو : خوفه منهم عليه، لكنه لم يصرح بذلك لأمرين: أراد عدم جرح مشاعرهم بهذا الظن، وحتى لا يكون ذلك سببًا لزيادة حنقهم عليه.

وقد كان خوف يعقوب عليه السلام في محله؛ فقد وقع المكروه بحبيبه يوسف الصديق.

---

(١) التفسير البسيط (١٢/٣٥).

(٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/٧٧).

ب-خوفه على بنيامين من إخوته:

ذهب يوسف عن أبيه، وأبقى في قلب أبيه جرحًا غائراً، فكان يتسلى عنه قليلاً بأخيه بنيامين-المحسود الثاني لإخوته-؛ فلذلك كان شديد الحذر عليه من إخوته الحاسدين أن يصنعوا به ما صنعوا بيوسف.

غير أن يعقوب كان يعلم أن حسدهم لبنيامين ليس كحسدهم ليوسف، وأن حالهم في الأيام الحاضرة لم تعد كأيامهم الماضية، وأن المصلحة اليوم بعد هذا تقتضي إرسال بنيامين مع إخوته إلى مصر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۞ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٣-٦٤].

والمعنى: لا آمنكم على بنيامين إلا كأمني على يوسف، يريد: أنه لم ينفعه ذلك الأمن، وأنهم خانوه، فهو وإن أمنهم في هذا خاف خيانتهم أيضًا. والمعنى: أنكم ذكرتم مثل هذا الكلام في يوسف، وضمنتم لي حفظه حيث قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وهاهنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه، فهل يكون هاهنا إلا ما كان هناك، فكما لا يحصل الأمانُ هناك لا يحصلُ هنا.

ثم قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾[يوسف: ٦٤] أي: من حفظكم الذي نسبتموه إلى أنفسكم، **والمعنى**: حفظ الله خير من حفظكم ومن قرأ ﴿حَافِظًا﴾[يوسف: ٦٤]، **فالمعنى**: حافظ الله خير من حافظكم؛ لأن الله سبحانه له حفظه.

ولم يصرح أبوهم بمنعه من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة. وشبه هذا

الائتمان في ابنه هذا بائتمانه إياهم في حق يوسف، فقد قالوا في يوسف: وإنا له لحافظون كما قالوا في بنيامين، فخاف أن يكيدوا للثاني كما كادوا للأول، لكن يعقوب لم يخف على بنيامين كما خاف على يوسف، غير أنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم.وظاهر أمرهم أنهم قد أنابوا إلى الله سبحانه، وانتقلت حالهم، فاستسلم يعقوب لله، وقال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾[1].

ج-خوفه على أبنائه من الشر:

فإنه لم أرسلهم إلى مصر قال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧].

فقد" أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السبب، وتسبب في ذلك بالأمر به؛ لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين؛ لأنهم أحد عشر رجلاً أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام.فدخولهم من باب واحد مظنة؛ لأن تصيبهم العين فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة؛ تعاطياً للسبب في السلامة من إصابة العين؛ كما قال غير واحد من علماء السلف"[2].

المشهد الثاني: خوف يوسف عليه السلام من الله تعالى:

فحينما دعت امرأة العزيز يوسف إلى نفسها حضر خوف الله تعالى فحال بينه

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط للواحدي (٢/٦٢١)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٢٠)، اللباب في علوم الكتاب (١١/١٤٦)، تفسير الثعالبي (٢/٢٤٦).

(٢) أضواء البيان (٣/٣٩٨).

وبين الفاحشة، حتى نطق لسانه بما يدل على خوف الله المتجذر في قلبه، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

فقوله: "﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ **قيل**: إن كان مراده بذلك سيده فالمعنى: أنه أحسن إلي وأكرمني فلا يحل لي أن أخونه في أهله؛ فإني أكون ظالمًا، ولا يفلح الظالم؛ فترك خيانته في أهله خوفًا من الله، لا ليعلم هو بذلك"(١).

فقد منعه خوف الله تعالى من مواقعة هذه المعصية، رغم كثرة الدواعي إليها؛ إذ إن شعور الخوف من العليم الخبير يحجز المسلم عن الخطيئة، كما قال تعالى عن ابن آدم المقتول: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة:٢٨].

وفي مثل هذا الخوف يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله...ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله)(٢).

المشهد الثالث: خوف امرأة العزيز من التهمة:

فإن يوسف لما هرب منها نحو الباب صادف دخول زوجها، فخافت أن يسبقها يوسف إلى الكلام فيظن بها زوجها سوءاً، أو يعاقبها "فعند ذلك خافت

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٤١).

(٢) متفق عليه.



المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف بالفعل القبيح "[١].

قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف:٢٥].

"أي: قالت امرأة العزيز لزوجها لما خافت أن يتهمها بالفجور: ما ثواب من أراد بامرأتك الزنا؟ إلا أن يسجن أو عذاب مؤلم أي: موجع "[٢].

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٩٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن للإمام الحوفي - سورة يوسف (ص:١٧٧).

المطلب الثاني: الأمن:

التعريف:

لغة:

(أمن) الهمزة والميم والنون أصل يدل على سُكون القلب وطمأنينة النفس، وزوال الخوف، يقال: أَمِنْتُ الرّجُلَ أَمْناً وأَمَنَةً وأَماناً، وقد أَمِنْتُ وآمَنْتُ غيري من الأَمْن والأَمان. والأَمْنُ ضدُّ الخوف، وأمن أَمْناً وأَمَناً وأمانًا وأمانة وأَمَنة اطمأن ولم يخف، فهو آمن وأمِن وأمين، ويقال: لك الأمان، أي: قد آمنتك، وأمن البلد اطمأن فيه أهله، وأمن الشر ومنه سلم، وأمّن فلانًا على كذا وثق به واطمأن إليه، والأمن والأمان مصدران، ويجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسماً لما يؤمن عليه الإنسان[1].

اصطلاحًا:

الأمن: عدم توقع مكروه في الزمان الآتي.

وقيل: طمأنينة النفس وزوال الخوف[2].

نافذة:

إن الأمن من المكروهات نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان؛ ولذلك امتن الله تعالى على قريش بذلك فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/١٣٣)، المعجم الوسيط (١/٢٨)، لسان العرب (١٣/٢١)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٤٨).

(٢) التعريفات (ص:٥٥)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٤٨).

خَوْفٍ﴾[قريش:٤]. وذلك أن الأمن يورث النفس الاستقرار والطمأنينة، والهدوء والسكينة، والنشاط إلى العمل المرغوب فيه، ويسلم الإنسان من الأذى والأضرار.

وفي هذه السورة الكريمة حديث عن الأمن سنتكلم عنه في نقطة واحدة، هي:

وسائل الأمن في سورة يوسف عليه السلام:

في هذه السورة ذكر الله تعالى وسائل تؤمِّن من حصول الشيء المخوف الآتي من البشر، أو من القضاء والقدر، وهذه الوسائل هي:

١-توحيد الله تعالى:

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٠٧].

" أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون"(١).

فقد دلت الآية على أن الشرك: سبب للخوف بمنطوقها، وأن التوحيد سبب للأمن بمفهومها، وقد صرح الله بهذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢]. **والظلم** هنا هو: الشرك، كما فسره رسول الله في حديث ابن مسعود، حيث قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) تفسير ابن كثير(٤/٤٢٢).

(ليس هو كما تظنون؛ إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣])[١].

٢-التوكل على الله حق التوكل:

فيعقوب عليه السلام لما أمر أولاده بأخذ أسباب الحماية المقدورة توكل على الله تعالى فقال: ﴿يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧].

"أي: ما وثقت إلا به، ولا ينبغي أن يثق أحد إلا به.وإنما كرر حذف الجر زيادة في الاختصاص؛ وترغيباً في التوكل على الله والتوثق به[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٦٨].

" والحاجة التي في نفس يعقوب عليه السلام هي: حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد، وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله"[٣].

ولما بدا ليعقوب عليه السلام مصلحة إرسال بنيامين مع إخوته قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤].

(١) متفق عليه.
(٢) البحر المديد (٣/٤٠٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/٩٤).

قال الآلوسي: "وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام إلى الإذن والإرسال؛ لما رأى فيه من المصلحة. وفيه أيضًا من التوكل على الله تعالى ما لا يخفى"(١).

٣-العمل بأسباب الأمن الممكنة المشروعة:

فيعقوب عليه السلام لما أرسل أبناءه الأحد عشر إلى مصر خاف عليهم أن يصابوا بعين أو غيرها من ضروب الشر عليهم؛ فلأجل ذلك أمرهم بالدخول من أبواب متفرقة لا من باب واحد فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧].

وهذا" هو تدبير وتشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذنه تعالى، وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى، وهرب منه إليه"(٢).

٤-الثقة والوعد بالأمان:

وهذه وسيلة قد تنجح في الأمن، وقد لا تنجح، وقد استعملها يعقوب عليه السلام، ولكنها لم تنجح؛ فإن أبناء يعقوب قد وعدوا أباهم بحفظ يوسف فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١١-١٢].

٥-اليمين والميثاق:

فبعدما غدر أبناء يعقوب بيوسف لم يعد أبوهم يثق بهم ولا بوعدهم؛ فلذلك

(١) روح المعاني (١٣/ ١١).
(٢) روح المعاني (١٣/ ١٩).

كان لابد من طريق أخرى للأمان على بنيامين؛ فأخذ منهم العهد الموثق على حفظه **فقال** لهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف:٦٦].

٦- الهروب من موضع الخوف:

وهذه الوسيلة عمل بها يوسف يوم أن راودته امرأة العزيز؛ حيث أنه رأى أن الكلام الواعظ والزاجر لا يجدي مع هذه المرأة وهي في أوج هيجان نزوتها؛ فلذلك هرب من المكان الذي راودته فيه باتجاه الباب، قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ...﴾[يوسف:٢٥].

" ﴿وَاسْتَبَقَا﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب؛ هي لترده إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فقبضت في أعلى قميصه من خلفه، فتخرق القميص عند طوقه، ونزل التخريق إلى اسفل القميص "(١).

(١) المحرر الوجيز (٣/٢٤٦).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الخوف والأمن في قصة يوسف عليه السلام:

١-خوف الأب من بنيه على بنيه، وخوف الأخ من أخيه؛ وجع مضاعف، وألم دائم، فإذا أصبح الخوف حالًّا في البيت على أهله من بعضهم فأين حصن الأمان حينئذ!

٢-في الأب بفطرة الأبوة خوف على أولاده أن يصابوا بسوء، وإن عقوه وأحزنوه، وفي بعض الأبناء انتصار لأنفسهم من غير خوف على أبيهم من حصول ضرر بذلك، فشتان ما بين الأبوة والبنوة، وكذلك الأم في خوفها على أولادها، وما أجمل قول الشاعر:

أغرى امرؤٌ يومًا غلامًا جاهلاً ... بنقودِهِ حتى ينال به الوَطَرْ

قال ائتني بفؤاد أمِّك يا فتى ... ولك الجواهرُ والدراهم والدُّررْ

فمضى وأغمد خِنجراً في صدرها ... والقلبُ أخرجه وعادَ على الأثرْ

لكنه من فَرْطِ دهشته هوى ... فتدحرج القلبُ المقطَّع إذ عَثرْ

ناداه قلبُ الأم وهو معفَّرٌ ... ولدي حبيبي هل أصابك من

غضبُ السماءِ به على الولد انهمرْ ... فكأنَّ هذا الصوتَ رغمْ حنوِّه

فارتدَّ نحو القلب يغسله بما ... فاضت به عيناه من سيل العِبرْ

ويقول يا قلبُ انتقمْ مني ولا ... تغفرْ فإن جريمتي لا تُغتفَر

واستلَّ خنجره ليطعن قلبَه ... طعناً فيبقى عبرةً لمن اعتبر

ناداه قلب الأم كفَّ يداً ولا ... تقتلْ فؤادي مرتين على الأثرْ

٣- ليكن خوف الله عز وجل شعورَك الدائم، وقرينك الملازم؛ فهو الرقيب الأمين الذي يقول لهواك وشهوتك إذا جمحا عن الحق: قفا، وهو أيضًا السراج المنير الذي ترى من خلاله الغايات الحميدة.

٤-لا تجعل خوفك من شيء يضرك سبيلاً إلى إضرار غيرك؛ فليست نفسك بأغلى من نفوس الآخرين، بل عليك أن تسعى لأمانك في الطريق الصحيح.

٥-الأمن حلم كل حي، وتوفيره قد يكون بيد الإنسان، وقد لا يكون، فمن كان بيده فليحرص عليه، وما كان ليس بيده فليسع إلى الوصول إليه من الطرق الممكنة.

القسوة والرحمة

المطلب الأول: القسوة:

التعريف:

لغة:

(**قسا**) القاف والسين والحرف المعتل يدلُّ على شِدَّة وصلابة، من ذلك الحجر القاسي. والقَسْوة: غِلَظ القَلْب، وهي من قسوة الحَجَر.

يقال: قسا الجسم قسواً وقساوة اشتد وصلب، وقسا قلبه اشتد وصلب فذهبت منه الرحمة واللين والخشوع، و قاسى الأمر الشديد: كابده وعالج شدته[١].

اصطلاحًا:

القسوة هي: الغلظ والصلابة والشدة في كل شيء وجمود القلب وعدم رحمته[٢].

نافذة:

إن القسوة صفة توحي بشدة التعامل مع الآخرين، واستعمال الأسلوب الخشن معهم، لغايات محمودة أو أخرى مذمومة.

(١) المعجم الوسيط (٢/٧٣٥)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٨٧)، لسان العرب (١٥/١٨٠).
(٢) المعجم الوسيط (٢/٧٣٥).

وهذا يبين أن القسوة تنقسم إلى **قسمين**:

القسم الأول: قسوة مذمومة، وهي شدة تقتضي إيقاع الضرر على الآخرين من غير حق، وتكون تعديًا حسيًا أو معنويًا يحدث ألمًا على الإنسان في بدنه أو ماله أو عرضه أو مشاعره.

وهذا النوع من القسوة يختلف ذمه باختلاف جهاته ومقداره وزمانه؛ فقسوة الأبناء على الآباء أذم من قسوة غيرهم عليهم، والقسوة الشديدة أذم مما دونها، والقسوة مع إنسان في زمن أحوج ما يكون فيه إلى الرحمة أذم من القسوة في غيره.

فهذا والد يقال له: فُرْعانُ بنُ الأعرَف قال في ابنه مُنازل شاكيًا من قسوته عليه أحوج ما يكون إلى رحمته به؛ وذلك حينما كبرت سنه، ورقّ عظمه:

جَـزَتْ رَحِـمٌ بَيْنِـي وبَـينَ مُنَـازِلٍ ... جَـزَاءاً كَـما يَـسْتَنْزِلُ الـدَّيْنَ طَالِبُـهْ

لَرَبَّيْتُـــهُ حَتَّـــى إذَا آضَ شَـــيْظَماً ... يَكادُ يُسَاوِي غَارِبَ الْفَحْلِ غَارِبُهْ

فلَـمَّا رَآنِي أُبْصِرُ الـشَّخْصَ أشخُـصاً ... قَرِيبـاً وَذا الـشَّخْصِ البَعِيـدَ أُقارِبُـهْ

تَغَمَّـدَ حَقِّـي ظَالِمـاً وَلَـوَى يَـدِي ... لَـوَى يَـدَهُ اللهُ الَّـذِي هُـوَ غالِبُـهْ

وَكـانَ لَـهُ عِنْـدِي إذا جَـاعَ أوْ بَكَـى ... مِـنَ الـزَّادِ أحْـلى زَادِنَـا وَأطَايِبُـهْ

ورَبَّيْتُـــهُ حتَّـــى إذا مـــا تَرَكْتُـــهُ ... أخـا الْقَـوْمِ واسْـتَغْنَى عَـنِ المَـسْحِ

وَجَمَّعْتُهـــا دُهْمـــاً جِـــلاَداً كأَنَّهَـــا ... أشــاءُ نَخِيــلٍ لَمْ تُقَطَّــعْ جَوَانِبُــهْ

فــأخْرَجَني مِنْهــا سَــلِيباً كــأَنَّني ... حُـــسامُ يَـــمانٍ فارَقَتْـــهُ مَـــضارِبُهْ

أئنْ أُرْعِشَتْ كفَّا أبِيكَ وأصْبَحَتْ ... يَدَاكَ يَدَيْ لَيْثٍ فإنَّكَ ضَارِبُهْ!![1].

(١) ديوان الحماسة (٢/١٨٢).

القسم الثاني: قسوة محمودة وهي أسلوب محشو بالألم والشدة يستعمل مع قوم يستأهلون ذلك؛ عقوبة لهم على سوء عمل، أو تقويمًا لهم من عوج، أو تربية لهم حتى يبلغوا درجات رفيعة في مراتب كمال النفس واستقامة السلوك.

يقول الله تعالى في استعمال الحد مع من يستحقه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[النور:٢].

قال الآلوسي: "وقد يقسو الإنسان أحياناً على شخص لمنفعته؛ كما **قال** أبو تمام :

فَقَسَا لِيَزْدجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيقسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

وقال أبو العلاء المعري :

اضربْ وَليدكَ تَأديباً على رَشدٍ ولاَ تَقُلْ هُوَ طِفلٌ غيرُ مُحتلمِ

فَربَّ شقٍّ برأسٍ جَرَّ مَنْفَعَةً وَقِسْ على شِقِّ رأسِ السَّهمِ والقلمِ

وقال أبو خفاجة الأندلسي :

نَبِّهْ وليدَكَ من صِباه بزجرِهِ فلربما أُغفي هناك ذكاؤهُ

وانهرْهُ حتى تستهلَّ دموعُهُ في وجنتيهِ وتلتظي أحشاؤهُ

فالسيفُ لا يذكو بكفِّك نارُهُ حتى يسيلَ بصفحتيهِ ماؤهُ

وكون الرفق أكثر تأثيراً غير مسلم على الإطلاق؛ فإن المقامات متفاوتة؛ كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة و السلام تارة: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].وأخرى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التحريم:٩] "[١].

(١) روح المعاني (١٩٦/٧).

وقال ابن داود الأصبهاني: "فأمَّا ترك العقاب الداخل في باب التأديب فداعٍ إلى فساد التدبير، وعائد بالضرر على المعفو عنه، وفي نحو ذلك يقول أبو تمام:

كانت لكم أخلاقُهُ معسولةً ... فتركتموها وهي ملحٌ علقَمُ
فقسا لتزدجروا ومن يكُ حازماً ... فليقسُ أحياناً علَى من يرحمُ
وأخافكمْ كي تغمدوا أسيافكم ... إن الدمَ المغترَّ يحبسُهُ الدمُ
وندمْتُمُ ولو استطاع علَى جوى ... أحشائكمْ لوقاكمُ أن تندموا "[1].

وفي قصة يوسف مشاهد لهذين القسمين، سنتحدث عن ذلك فيما يأتي:

أولاً: القسوة المذمومة:

هذه القسوة تتمثل في أشخاص إخوة يوسف الذين سلكوا طريقها انتصاراً لحسدهم، وشفاء غيظ نفوسهم، وقد توجهت قسوتهم إلى **جهتين**:

١-القسوة على أبيهم:

فقد قسوا على والدهم يعقوب عليه السلام بالفعل وبالقول:

أ-قسوتهم بالفعل:

وذلك بالتفريق بينه وبين حبيبه يوسف عليه السلام؛ فحينما أدركوا فضل يوسف في الحب في قلب أبيهم غاظهم ذلك فسعوا إلى إبعاد يوسف عنه، ولكنهم اختلفوا في طريقة الإبعاد؛ فمن رأيٍ يقضي بقتله، ورأي يقضي بطرحه في أرض مهلكة، ثم اتفقوا على رأي -أقل قسوة- قدمه أحدهم وهو إلقاؤه في الجب ففعلوا ذلك.

(١) الزهرة (ص:١٩٩).

وهم بهذا الفعل لم تحضرهم الرحمة بأبيهم الكلف بيوسف، ولم يفكروا بالفجيعة الكبرى التي ستحل على قلبه عندما يخبرونه خبر فقد يوسف.

إن هذه المعاني لم يسمح حنقهم العظيم بالنظر إليها، بل لم تنزل في قلوبهم الرحمة بعد إلقاء يوسف وهم يرون أباهم قد اشتد حزنه وطال بكاؤه، فيتحركون للبحث عن يوسف حتى يدخلوا الفرح عليه بعد أن أدخلوا عليه الحزن.

ب-قسوتهم بالقول:

وذلك في اتهامهم لأبيهم بالجور والخطأ يوم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٨].

وقولهم له-وقد تضاعف حزنه، واشتد بكاؤه حتى ذهب بصره-بعد فقد بنيامين: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥].

وقد اختلف المفسرون في هذا القول منهم: هل هو قسوة على أبيهم أو رحمة به، على **قولين**:

فمنهم من يرى أنه قسوة؛ **قال** الواحدي:" والمعنى: أنهم قالوا لأبيهم: لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت بالغم، فلما رأى غلظتهم وعنفهم به ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لا إليكم "(١).

وقال السمرقندي:" **قال** يعقوب: ﴿أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ يعني: همي

(١) التفسير الوسيط للواحدي (٢/٦٢٨).

وغمي﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لما رأى من فظاظتهم، وسوء لفظهم، ولا أشكو ذلك إليكم"[1].

وقال ابن عاشور: " ومقصودهم: الإنكار عليه؛ صداً له عن مداومة ذكر يوسف عليه السلام على لسانه؛ لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه "[2].

ومن المفسرين من يرى أنه بداعي الرحمة به؛ **قال** القرطبي: " وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن؛ شفقة عليه، وإن كانوا السبب في ذلك "[3].

وقال الرازي: " قالوا لأبيهم: إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه؛ حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه، أو تموت من الغم.كأنهم قالوا: أنت الآن في بلاء شديد، ونخاف أن يحصل ما هو أزيد منه وأقوى.وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف "[4].

وقال ابن كثير: " فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه.. "[5].

وقال أبو السعود: " فكأنهم قالوا له ما قالوا بطريق التسلية والإشكاء[6] "[1].

---

(١) بحر العلوم (٢/٢٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/١٠٩).

(٣) تفسير القرطبي (٩/٢٥١).

(٤) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/١٥٧).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/٤٠٥).

(٦) الإشكاء: إزالة سبب الشكوى، والشكوى: التوجع من ألم وَنَحْوه.

٢-القسوة على يوسف:

وتمثلت قسوتهم عليه في:

أ-شدة كرههم وحسدهم له.

ب-إلقاؤه في الجب، ولعله في تلك الحال -وقد مضوا به من عند أبيه- قد بدت منهم إهانات له، وحينما أرادوا رميه في البئر فربما استرحمهم واستغاث وتوسل بهم، غير أن قسوتهم عليه قد سدت عن قلوبهم وصول أثر استعطافه ورجائه.

ثانيًا القسوة المحمودة:

وقد تمثلت هذه القسوة المحمودة بأخذ يوسف بنيامين بالحيلة المعروفة؛ وقد كانت هذه القسوة محمودة لما ترتب عليها من مصالح، وكانت بوحي من الله تعالى بدلالة قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[يوسف:٧٦].ومن المصالح لهذه الشدة:

١-إدخال السرور على بنيامين ببقائه عند يوسف، فينفرد به زمنًا فينسيه فيه قسوة إخوته عليه، ويريه جميل صنع الله بهما بعد العناء.

٢-إتمام فصول البلاء على يعقوب عليه السلام؛ ليعظم أجره، وتعلو منزلته عند الله.

٣-إعطاء إخوة يوسف دروسًا من القسوة؛ جزاء قسوتهم المذمومة، وتربية لهم على رحمة المسترحم، وترك القسوة مع من لا يستحقها.

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٢).

فإن يوسف لما أخذ بنيامين بحكم شريعتهم تذكر عندئذ وعدهم وميثاقهم على رده لأبيهم، فحضرهم بثهم، فاسترحموا يوسف، واستعطفوه بحسن ندائه والثناء عليه، وذكروا له من أوصاف أبيهم ما يدعوه إلى الرحمة به من كونه شيخاً كبيراً، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨].

لكن يوسف لم يرحمهم رغم عظم توسلاتهم، وطول مراجعتهم فقال لهم: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾[يوسف:٧٩].

وهنا سمي ذلك الإناء الذي وجد في وعاء بنيامين متاعًا، وقد سمي من قبل سقاية وصواعًا، والمتاع: التمتع وكل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه؛ كالطعام، وأثاث البيت، والسلعة، والأداة، والمال[١]. والمراد به في الآية: الصواع أو السقاية، كما تقدم.

(١) المعجم الوسيط (٢/٨٥٢).

المطلب الثاني: الرحمة:

التعريف:

لغة:

(**رحم**) الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرّقّة والعطف والرأفة.يقال من ذلك: رَحِمَه يَرْحَمُه، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه، وقد رَحِمْتُهُ وتَرَحَّمْتُ عليه، وتَراحَمَ القومُ رَحِمَ بعضهم بعضاً.

والرحيم: كثير الرحمة، والرُّحْم والمَرْحَمَة والرَّحْمة بمعنىً، والرّحمة: الرِقّة، يقال: رحِمَه رُحْماً ورُحُماً ومَرحَمة والاسم الرُحْمى والرّحَموت وفي المثل: "رهَبوت خيرٌ لك من رحَموت" أي: أن تُرهَب خيرٌ لك من أن تُرحَم، وترحّمْت عليه دعوْتُ له بالرحمة، واسترحَمْته سألتُه الرحمة، **والرَّحِم**: عَلاقة القرابة، ثم سمِّيت رَحِمُ الأنثى رَحِماً من هذا؛ لأنّ منها ما يكون ما يُرْحَمُ وَيُرَقّ له مِن ولد، وامرأة رحوم تشتكي رحمها،ومنه استعير الرحم للقرابة؛لكونهم خارجين من رحم واحدة[1].

اصطلاحًا:

الرَّحْمَة: هِيَ حَالَة وجدانية تعرض غَالِباً لـمن بِهِ رقة الْقلب، وَتَكون مبدأ للانعطاف النفساني الَّذِي هُوَ مبدأ الْإِحْسَان[2].

نافذة:

إن الرحمة صفة من صفات الله اللائقة بجلاله وكماله، تتضمن العطف على

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٤٩٨)، المعجم الوسيط (١/٣٣٥)، لسان العرب (١٢/٢٣٠)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٩١).

(٢) الكليات (ص:٤٧١).

المخلوق بإيصال الخير إليه ودفع الشر عنه.

إن الرحمة صفة حسنة، تجعل صاحبها محسنًا إلى غيره، فيعطف عليه بمصلحة ينتفع بها، أو بكفايته من مضرة كان يتألم بوجودها أو يخاف حصولها.

وقد كانت هذه الصفة من صفات الله تعالى، ومنها اشتُق اسماه الكريمان: الرحمن والرحيم.

ومن تأمل في هذا الكون وجد لرحمة الله تعالى مظاهر عديدة، فمنها: إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وكفاية رزق العباد وضمان ذلك، وقبول توبة العباد وإمهالهم عن نزول العذاب وتعجيل العقاب، وتسخير ما في الأرض لخدمة الإنسان، والهداية من الضلال، والحفظ للمؤمن من تسلط الشياطين عليه بالغواية، وغير ذلك.

يقول تعالى عن نفسه الكريمة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٥٦].

وقد دعا سبحانه وتعالى عباده إلى رحمة بعضهم بعضًا؛ حتى يسود بينهم الخير، ويحصل الانتفاع، وتستمر عجلة الحياة على درب السلامة والاطمئنان.

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن رحمة الخلق سبب لرحمة الله بالراحم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)(١).

(١) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

وجاء رجل فقال: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبحها فقال: (إن رحمتها رحمك الله)[1].

وفي قصة يوسف عليه السلام مشاهد للرحمة من الخالق ومن المخلوقين، وسنتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولاً: صيغ ورود لفظ الرحمة في قصة يوسف:

ورد ذكر هذا اللفظ على صيغتين: الاسمية والفعلية:

فأما صيغة الفعلية فقد جاء في قالب الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[يوسف:٥٣].

وأما على صيغة الاسمية فقد ورد على قوالب متعددة:

١-اسم الفاعل؛ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤]، وقوله: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

٢-اسم التفضيل؛ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤].

٣-المصدر؛ في قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾[يوسف:٥٦]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

٤-للمبالغة؛ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥٣]، وقوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي

(١) رواه الحاكم، وهو صحيح.

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٨].

ويلاحظ على هذا الورود ما يأتي:

١ - قرن اسم الله الرحيم باسمه الغفور منكرينِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥٣]، وقد جاءا صفة لاسم الله الرب، وختمت بهما الآية بيانًا لعظم رحمته بعبده حين صرفه عن الخطيئة.

كما قرن اسم الله الرحيم باسمه الغفور معرَّفينِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٨]، وقد جاءا أيضًا صفة لاسم الله الرب، وختمت بهما الآية؛ تعليلاً للاستغفار؛ فقبول الله تعالى للاستغفار مظهر من مظاهر رحمته.

٢-كل الآيات التي صرح فيها بلفظ الرحمة جاءت في صفة رحمة الله تعالى.

٣-ورد اسم التفضيل (أرحم) مضافًا إلى معرفة من جنسه-وهو مفرد أضيف إلى جَمعِه- في موضعين في هذه القصة، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤]، وقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

ثانياً: مشاهد الرحمة في قصة يوسف عليه السلام:

المشهد الأول: رحمة الخالق سبحانه وتعالى:

في هذه القصة المباركة مشاهد لرحمة الله وهي كالآتي:

أ-رحمة الله بنبيه يعقوب عليه السلام:

١ -رحمته في ابتلائه:

لا يظن ظان أن الرحمة تقتضي دائمًا إيصال ما يسر النفس من أول مرة، ليس الأمر كذلك؛ فإن الرحمة العظيمة قد تأتي في قالب مكروه النفس؛ حينما يعقب عاقبة حسنة عاجلة أو آجلة، وهكذا شأن ابتلاء المؤمنين.

قال ابن القيم: "ومما ينبغي أن يعلم : أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية.فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك؛ فمن رحمة الأب بولده : أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمة الأم؛ ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد؛ فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.وقد جاء في الأثر: إن المبتلى إذا دعي له: اللّٰهم ارحمه يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه.وفي أثر آخر: إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه.

فهذا من تمام رحمته به لا من بخله عليه، كيف وهو الجواد الماجد الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها.

فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي؛ رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به فهو الغني الحميد، ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا، وكدرها؛ لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه؛ لئلا يغتروا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به؛ كما **قال** تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران:٣٠].

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد: حذرهم من نفسه؛ لئلا يغتروا به"[١].

لهذا ابتلى الله تعالى يعقوب بحبه الشديد ليوسف أولاً، ثم ابتلاه بفقده، ثم بفقد بنيامين بعده، وما نتج عن هذا البلاء من الحزن الكبير، والبكاء الكثير، حتى توج البلاء بفقد البصر؛ إذ فقد حبيبته على حبيبه.

٢-رحمته في رد يوسف وبنيامين:

فبعد أن تم فصل رحمة الله بابتلاء يعقوب، جاء فصل رحمة الله برد ولديه: يوسف وبنيامين في ظرف عز وملك وغنى واجتماع وحب، وانتقال إلى أرض مصر التي كانت-من بعد- مهد تكاثر ذرية يعقوب عليه السلام؛ فقد ساق الطبري بسنده أنه اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف، وهم اثنان وسبعون،

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٤-١٧٥).

وخرجوا مع موسى من مصر حين خرجوا وهم ستمائة ألف"[1].والله بصحة هذا الخبر.

قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

وقد كان يعقوب عليه السلام موقنًا بحصول هذا الفصل من الرحمة يقينًا لا يخالطه شك؛ فإنه لما طلب منه أولاده إرسال بنيامين معهم إلى مصر تلكّأ أولاً، ثم رأى المصلحة في إرساله فأرسله متوكلاً على الله، واثقًا برحمته حيث قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤].

والمعنى: "فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتين"[2].

و لما قالوا له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[يوسف:٨٥].قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].أي: "أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب"[3].

ولما كان واثقًا بهذه الرحمة **قال** لبنيه: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٩٠).
(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٩٠).
(٣) البحر المحيط.(٥/ ٣٣٤).

قال قتادة في قوله: ﴿وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾، أي: من رحمة الله[1].

وقال ابن عطية: "والروح: الرحمة.ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين"[2].

ب-رحمة الله بنبيه يوسف عليه السلام:

إن البلاء الذي مر به يوسف عليه السلام كان في حد ذاته رحمة من رحمات الله به؛ فإن ذلك البلاء قد أوصله إلى خير الدنيا والآخرة.

غير أننا لو سبرنا غور مشاهد هذه القصة الشيقة فإننا سنجد مظاهر كثيرة لرحمة الله بيوسف عليه السلام، فمن ذلك:

١- أنه لم يمكِّن إخوته من قتله؛ وذلك بأن هدى إخوته إلى رأي من قال: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾، فلو قتلوه لقُطع عن تلك النهاية السعيدة التي صار إليها في مصر.

٢- نزول التطمين عليه في الجب، وهو ما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٥]، ففي هذا ضمان نجاته وسلامته حتى يلقى إخوته.

قال السعدي: "ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له بأنه سينجو

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٣).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٨١).

مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض "[١].

٣-مجيء السيارة إلى ذلك البئر وعثورهم عليه، **قال** ابن عاشور: "وفي عثور السيارة على الجب الذي فيه يوسف عليه السلام آية من لطف[٢] الله به "[٣].

٤-كون وجهة تلك السيارة هي مصر، فلو بيع في غيرها، أو استخدمه أولئك السيارة لما آل أمره إلى ما عرفنا.

٥- وصوله إلى بيت العزيز الذي لقي فيه الإكرام، ومنه انتقل إلى آخر مشهد من مشاهد بلائه وهو السجن، ولم يصل إلى يد سيد آخر يرهقه بالأعمال ويهينه.

قال ابن كثير: "يخبر تعالى بألطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قيض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، **فقال** لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها"[٤].

٦- كون العزيز غير سريع الغضب على الحُرَم ولا شديد الغيرة، وإلا ماذا كان سيحصل ليوسف منه من العقاب؟ ولكن الله لطف بيوسف بوجود هذه الصفة في العزيز.

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣٩٤).

(٢) من معاني اللطف: الرأفة. المعجم الوسيط (٢/٨٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٤٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/٣٧٨).

قال الماوردي: "وكان فيه لطف بيوسف حتى كفي بادرته وحلم عنها، فأمرها بالاستغفار من ذنبها؛ توبة منه وإقلاعاً عنه "[1].

٧-وصول الخبر إلى نسوة المدينة على الحقيقة، وليس على تهمة امرأة العزيز، ولعل ذلك بسبب حصول البراءة الأولى ليوسف بشهادة الشاهد، وقد القميص من دبر، واعتراف العزيز بكيد زوجته؛ ولهذا قالت النسوة: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٣٠]، وهذا كان له أثر بعد ذلك في تمام تبرئة ساحة يوسف من التهمة.

٨-استجابة الله تعالى دعاءَ يوسف بصرف كيد امرأة العزيز وحزبها النسوي عنه، **قال** تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يوسف:٣٤].

٩- دخول ساقي الملك السجن وخروجه منه؛ إذ رحم الله يوسف بهذا الفتى حيث بقي معه في سجنه فرأى من يوسف صدقًا وعلمًا، فكان ذلك هو الطريق للدلالة على علم يوسف في التعبير.

١٠- حصول رؤيا الملك، وعجز الملأ عن تأويلها، فلو أولوها لما لجأ إلى يوسف.

قال ابن كثير: "هذه الرؤيا من مَلك مصر مما قَدّر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسفَ عليه السلام من السجن مُعزَّزًا مكرّمًا"[2].

---

(١) النكت والعيون (٣/٢٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٢).

" وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام؛ فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها -لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب- وكان الملك مهتمًا لها غاية الاهتمام، فعبرها يوسف- وقعت عندهم موقعًا عظيمًا، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم، فعلمه أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله"(١).

١١-تذكر الفتى بعد نسيان ليوسف عليه السلام؛ فإن هذا الفتى كان هو الذي أوصل إلى الملك علم يوسف فأرسله إليه برؤياه.

١٢-مخاطبة الملك للنسوة بوصف المراودة قبل كلامهن معه.

قال الماوردي: "﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾[يوسف:٥١].فهذا سؤال الملك قد تضمن تنزيه يوسف لما تخيله من صدقه؛ لطفاً من الله تعالى به؛ حتى لا تسرع واحدة منهن إلى التكذب عليه"(٢).

١٣-حصول الحاجة والجدب، فهو الذي أقدم إخوة يوسف إلى مصر، ومن هناك بدأت خطوات اللقاء بأبيه ومعرفة خبره.

١٤-خروجه من السجن، وجمع أهله إليه في مصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

قال قتادة : قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ لطف بيوسف وصنع له حتى

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣٩٩).

(٢) النكت والعيون (٣/٤٦).

أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته"[1].

١٥-النجاة والفرج، ونيل عز الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦].

قال ابن عاشور: "وجملة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ إلى آخرها، تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف عليه السلام من الرحمة في أحواله في الدنيا، وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين"[2].

ج-رحمة الله بالناس بتولي يوسف خزائن مصر:

إن رؤيا الملك كانت تخبر عن سبع سنوات ستهب رياحها على مصر بالجدب الشديد بعد سبع قبلها مخصبات.

وهذا المستقبل إذا لم يحسن فيه التدبير حلت المجاعة والهلاك بالناس.

فكان من رحمة الله تعالى أن مكن يوسف من هذه الوظيفة؛ حتى خفف الله به تلك الشدة.

قال ابن كثير: "وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم،

(١) تفسير الطبري (١٦/٢٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٨٣).

وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفّى الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر "(١).

وقد مزج يوسف تعبير الرؤيا بإرشاد جليل لأحوال التموين والادخار لمصلحة الأمة.وهو منام حكمته كانت رؤيا الملك؛ لطفًا من الله بالأمة التي آوت يوسف عليه السلام، ووحيًا أوحاه الله إلى يوسف عليه السلام بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان عليه السلام بواسطة الطير، ولعل الملك قد استعد للصلاح والإيمان(٢).

د-رحمة الله بقبول توبة عباده وغفران ذنوبهم:

وقد جاء هذا في القصة في ثلاثة مواطن:

١-في موطن اعتراف امرأة العزيز بذنبها الذي هو مراودتها يوسفَ عليها السلام،وما نتج عن ذلك من إيذائه، وكان هذا عند اعترافها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣].

فقد استغفرت المرأة ربها، واسترحمته مما ارتكبت، تقول: ولست أبرئ نفسي؛

(١) تفسير ابن (٤/٣٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٢٨٦).

فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودت يوسف؛ لأنها أمارة بالسوء، إلا من عصمه الله تعالى.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر هم النفس، ويرحم من يشاء بالعصمة، أو يغفر للمستغفر لذنبه، المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثناء على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب[1].

٢-في موطن اعتراف أبناء يعقوب أمام يوسف بجناياتهم عليه، وجاء ذكر الرحمة على لسان يوسف في مقام عفوه عنهم. قال تعالى: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

"وقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وهذا دعاء من يوسف لإخوته بأن يغفر الله لهم ذنبهم فيما أتوا إليه وركبوا منه من الظلم، يقول: عفا الله لكم عن ذنبكم وظلمكم، فستره عليكم﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، يقول: والله أرحم الراحمين لمن تاب من ذنبه، وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته[2].

٣-في موطن توبة أبناء يعقوب واعترافهم بخطئهم أمام أبيهم، وذلك عندما جاء قميص يوسف إليه، فبين لهم أبوهم أنه يعلم من الله ما لا يعلمون، وجاء ذكر رحمة الله ومغفرته على لسان يعقوب، **قال** تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا **قال** أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قَالُوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٤)، فقد: تفسير البحر المحيط (٥/٣١٦)، تفسير البيضاوي (٣/٢٩٥)، التحرير والتنوير (١٢/٧٩).

(٢) تفسير الطبري (١٦/٢٤٧).

يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٦-٩٨].

"يقول تعالى ذكره: قال ولد يعقوبَ- الذين كانوا فرَّقوا بينه وبين يوسف-: يا أبانا سل لنا ربك يعفُ عنَّا، ويستر علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيك وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في القيامة﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، يقول جل ثناؤه: قال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يعفو عنكم ذنوبكم التي أذنبتموها فيّ وفي يوسف.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، يقول: إن ربي هو الساتر على ذنوب التائبين إليه من ذنوبهم الرحيم بهم أن يعذبهم بعد توبتهم منها"(١).

"وإنما سألوه عن الاستغفار لهم، وإن كان المستحق في ذنوبهم التوبة منها دون الاستغفار لهم **ثلاثة أمور**:

أحدها: للتبرك بدعائه واستغفاره.

الثاني: طلباً لاستعطافه ورضاه.

الثالث: لحذرهم من البلوى والامتحان في الدنيا"(٢).

هـ- رحمة الله بإنزال القرآن المتضمن لقصة يوسف:

وقد جاء ذلك في آخر آية من السورة كالتعليق العام على القصة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ

(١) تفسير الطبري (١٦/٢٦١-٢٦٣).

(٢) النكت والعيون (٣/٨٠).

الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

فقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ يمكن عوده للقرآن، **والمعنى**: أن القرآن سبب لحصول الرحمة في الآخرة، وهو رحمة لمن آمن به وعمل بما فيه، ينقذه من سخط الله وأليم عذابه، ويورِّثه في الآخرة جنانه، والخلودَ في النعيم المقيم.

ويمكن عوده إلى القَصص؛ فإن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين؛ لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسبب لرحمته إياهم في الآخرة[١].

المشهد الثاني: رحمة الخلق بالخلق:

في هذه القصة من صفحات هذا المشهد:

أ-رحمة يعقوب عليه السلام بأبنائه:

إن رحمة الأب بأبنائه رحمة عظيمة لا يعرفها إلا من كان له أبناء؛ ومما يدل على ذلك: تعبه من أجل أن يستريحوا، وحزنه إن مرضوا، وتحمله ما يجيء منهم من العناء، وحبه أن يظلوا في أمن وسعادة، ولو كان طريق ذلك يمر على انحناء ظهره، وسهر عينيه، ووجع نفسه.

وفي هذه القصة نلاحظ مظاهر لرحمة يعقوب بأبنائه- مع ما ساقوا إليه من النصب والدموع- فمن ذلك:

١-أنه لم يعاقبهم على فعلتهم بيوسف.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٥/٣٤٩)، تفسير الطبري (١٦/٣١٥)،التحرير والتنوير (١٢/١٣١).

٢-أنه لما عزم أبناؤه على الذهاب إلى مصر **قال** لهم بتلطف وخوف عليهم من حصول شر يؤذيهم: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧].

٣-أنه بعد كل ما أحزنوه وأبكوه وآلاموا مشاعره وقلبه وجسده عفا عنهم ووعد بالاستغفار لهم.قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٧-٩٨].

ب-رحمة يوسف عليه السلام:

الرحمة من صفات الناس الصالحين، ولاشك أن الأنبياء عليهم السلام على رأسهم، ويوسف الصديق منهم؛ لذلك كان بالناس رؤوفًا رحيمًا.

ومن أولئك الذي شملتهم رحمة يوسف عليه السلام أسرته: أبوه وإخوته.

ومن مظاهر رحمته بهم: الإحسان إليهم بالميرة، ورد ثمنها إليهم.

قال الطبري: "**فإن قال قائل**: ولأيّةِ علة أمر يوسف فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم؟

قيل: يحتمل ذلك **أوجهًا**:

أحدها: أن يكون خَشي أن لا يكون عند أبيه دراهم، إذ كانت السَّنة سنة جَدْب وقَحْط، فيُضِرُّ أخذ ذلك منهم به، وأحبّ أن يرجع إليه.

الثاني: أو أرادَ أن يتسع بها أبوه وإخوته، مع قلّة حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب ردّه؛ تكرمًا وتفضُّلاً.

والثالث: وهو أن يكون أراد بذلك أن لا يخلفوه الوعد في الرجوع؛ إذا وجدوا في

رحالهم ثمن طعام قد قبضوه وملَكهُ عليهم غيرهم، عوضًا من طعامه، ويتحرّجوا من إمساكهم ثمن طعام قد قبضوه حتى يؤدُّوه على صاحبه، فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه"[1].

ومن رحمته: عفوه عنهم، وعدم مؤاخذتهم على جنايتهم في حقه وحق أبيه.

ومن رحمته: إرساله قميصه إلى أبيه استعجالاً في إفراحه وإسعاده رحمة به.

ومن رحمته: طلبه منهم القدوم بأهلهم أجمعين إلى مصر، حينما رأى فاقته وحاجتهم.

(١) تفسير الطبري (١٦/١٥٧-١٥٨).



المطلب الثالث: تأملات في القسوة والرحمة في هذه القصة:

١-إن القسوة نتيجة لمؤثرات داخلية أو خارجية؛ فمن الداخلية في هذه القصة: قسوة إخوة يوسف؛ إذ إنهم ما قسوا على أبيهم وأخيهم إلا بدافع الحسد ليوسف والغضب من ميل أبيه بالحب إليه، فأرادوا أن يوجعوا كليهما.

٢-إن القسوة على القريب خلاف الأصل الذي عليه الإنسان الطبيعي؛ إذ الأقارب موضع الرحمة؛ ولذلك سموا أرحامًا.

٣- أحيانًا قد نكره أشياء لمؤلماتها الأولى، ولكن لو فكرنا في عواقبها الحسنة لما تألمنا، فكم نجزع في المرض الذي لم يشف، وكم نحزن لمظلمة لم ينتصف لنا ممن ظلمنا بها، وهذا من قصور النظر، وسوء الظن وضعف الثقة بالمقدِّر الكريم، فلو كنا مؤمنين حقًا وفكرنا في المآلات لما جزعنا وضقنا، فلو كشفت الحجب فنظر العبد المؤمن إلى ما عند الله من المآل الحسن لما ابتلاه به لم يحزن ويضق.

٤-الشيخوخة والكبر تدعو إلى الرحمة بصاحبها؛ ولذلك جاء في شريعتنا الدعوة إلى توقير الكبير ومساعدته.

٥- من الصواب أن لا يكون الإنسان على وتيرة واحدة من التعامل مع الناس، بل يسبر غور الحال والرجال، فلكل شخصية أو زمان أو مكان تعامل يناسبه، فالرحمة مثلاً لها أهلها وزمانها ومكانها، وكذلك القسوة.

ومن أمثال العرب: لَا تَكُنْ رَطْبًا فَتُعْصَرْ، وَلَا يَابِسًا فَتُكْسَرْ، ولَا تَكُنْ مُرًّا فَتُعْقَى، وَلَا حُلْوًا فَتُسْرَطَ[1] وَيَقُولُ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: لَا تَكُنْ حُلْوًا فَتُؤْكَلَ، وَلَا مُرًّا فَتُلْفَظَ[2].

(١) **تسترط**: تبلع: **وتعقى**: تقذف.

(٢) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٣/ ٧١).

العفة والفحش

المطلب الأول: العفة:

التعريف:

لغة:

(**عف**) العين والفاء أصل صحيح يدل على الكفِّ عن القبيح، **والعِفّة**: الكفُّ عمّا لا ينبغي ولا يحل. ورجلٌ عفٌّ وعفيف، وقد عَفَّ يَعِفُّ عِفّةً وعَفَافة وعَفافاً: كف عما لا يحل ولا يجمل من قول أو فعل، فهو عف وعفيف أَي: كَفَّ، وجمع العَفِيف أَعِفّة وأَعِفّاء، وتعفَّفَ واسْتَعْفَفَ، وأَعفَّه الله: جعله عفيفًا، والاسْتِعْفاف: طلَبُ العَفافِ.

والمتعفف: المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر، وأصله: الاقتصار على تناول الشيء القليل الجاري مجرى العُفافة-وهي: الْقَلِيل من اللَّبن فِي الضَّرع قبل كثرته فِيهِ أَو بعد أَن يحلب-، والعفة: البقية من الشيء[1].

اصطلاحًا:

العفة هي: حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة.

وقيل: ترك الشهوات من كل شيء، وغلب في حفظ الفرج مما لا يحل.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٤)، المعجم الوسيط (٢/٦١١)، لسان العرب (٩/٢٥٣)، الكليات (ص:٦٥٦)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٠٣).

وقيل: هي هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة، والخمود الذي هو تفريطها، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة[1].

نافذة:

إن العفاف والطهر هو أسمى صورة إنسانية للحفاظ على الأعراض، فالعفاف عزة ونقاء، وطهارة وبهاء، وسعادة وهناء، وهو لذة مستمرة، وزينة باقية، وجُنة واقية، وحصن منيع.

وهو راحة وأمان، واستقرار واطمئنان، وحياة رغدة سعيدة، وعيشة مملؤة بالهدوء والنعمة الظليلة، وهو صحة وسلامة، وغنى وقوة، وجَنة تفوح منها نسائم السمعة الطيبة والذكر الحسن.ويبقى بين الناس العقلاء الأصحاء خصلةً حميدة، وخلقاً جميلاً، وأدباً أصيلاً، يحفظ الرجال والنساء، والصغار والكبار، والأفراد والجماعات من شقاء الدنيا والآخرة.

وفي قصة يوسف حديث بليغ عن عفة الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف الصديق عليه السلام.وفيه قدوة حسنة في أرقى درجات العفة.

وسنتحدث عن عفة يوسف عليه السلام في قصته المباركة في هذه المشاهد الآتية:

مشهد: مراودة امرأة العزيز يوسفَ عليه السلام:

يدعو القرآن الكريم إلى صلاح النفوس، واستقامة السلوك، فيذكر من طرقه لذلك: القصة التي يتطرق إلى جوانبها التي هي محطات للعبر والعظات.

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٠٣)، التعريفات (ص:١٩٥)، المعجم الوسيط (٢/٦١١).

ولا ريب أن العفاف من أجمل الصفات الإنسانية التي تنم عن صفات فارعة الجمال كان العفاف ثمرتها اليانعة. ومن السهل أن يدعي المرء لنفسه العفة ويتحدث عن فضلها وحسنها، لكن ليس من السهل على جميع المتباهين بهذه الصفة أن ينجحوا في الاختبار العملي؛ إذ الثبات في مواقف امتحان العفة -مع توفر الدواعي لإراقتها- ليس بالأمر اليسير على كل أحد.

لهذا ذكر لنا القرآن نموذجًا عمليًا ثبت فيه صاحبه عليه السلام في حصن العفة من غير انحدار عنه إلى هوة الفاحشة، وتحدث القرآن عن ذلك حديثًا نقي اللفظ والمعنى لا يثير الغرائز، ولا يهيج الشهوات؛ بغية الوصول إلى الاقتداء بعفاف يوسف رغم شدة النوازع، وقلة الموانع.

ففي يوم من الأيام تنفرد امرأة العزيز بيوسف تريد سرقة عفته، وتغريه بنفسها، وتتخذ جميع الاحتياطات لإتمام مرادها، وكانت تظن أن يوسف سيلبي دعوتها رغبة فيها، أو رهبة منها، أو استحياء من جنابها الذي أحسن إليه، لكن الصديق عليه السلام قطع هذه الوشائج وتعلق بالخوف من الله تعالى، فرد طلبتها راداً عظيمًا، وبيناْ هما في تلك اللحظات الساخنة بالعرض والتمنع يلجأ يوسف إلى شدة الهرب، فتعدو خلفه باستعار الطلب، حتى صادفا ولوج سيدهما لدى الباب، فتجلببت المرأة بالعفاف الكاذب حينما ألقت التهمة على يوسف، فكذبها أربعة شهود: يوسف الصديق، والقميص، والشاهد، والعزيز نفسه، يقول تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٣-٢٩].

معنى الآيات:

قوله: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ هذا اعتراض جيء به أنموذجًا للقصة؛ ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غايةٌ جميلة، وعاقبة حميدة، وأنه عليه السلام محسن في جميع أعماله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته.

فقوله: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ **يعني**: امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها، طلبت منه أن يواقعها، **والمراودة**: المطالبة برفق، وتقتضي المراودة تكرير المحاولة، والمفاعلة مستعملة في التكرير. **وقيل**: المفاعلة تقديرية بأن اعتبر العمل من جانب، والممانعة من الجانب الآخر من العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله. **والمراودة**: مشتقة من راد يرود، إذا جاء وذهب. شبه حال المحاول أحداً على فعل شيء مكرراً ذلك بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، فأطلق راود بمعنى حاول.

والنفس: أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد، فكأنها تراوده عن أن يسلم

إليها إرادته وحكمه في نفسه.

والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف عليه السلام؛ لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها.

وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ على التكثير؛ لإفادة شدة الفعل وقوته، أي: أغلقت إغلاقًا محكمًا.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ﴿هَيْتَ﴾ اسم فعل أمر بمعنى: بادر أو هَلُمّ، وهذا تأويل من قرأ هَيتَ لك بفتح الهاء، وهي أصح وأفصح، ومن قرأها بكسر الهاء وترك الهمز فمعناها: تهيأتُ لك.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا، أو أعتصم بالله من هذا، والتقدير: أعوذ بالله معاذاً مما تدعينني إليه. وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ **يعني**: زوجها-على الأصح-ومعناه: إن الذي اشتراني هو سيدي أنعم علي بإكرامي، فلا أخونه في حرمه، إن فعلت ذلك كنت ظالمًا، ولا يفلح الظالمون.

يقول: متى أفسدت امرأته كنت ظالمًا بكل حال، وليس هذا جزاء إحسانه إلي؛ فقد أحسن تعهدي حيث أمرك بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه، وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه.

فلما وصى به امرأته فقال لها ﴿أَكْرِمِيْ مَثْوَاْهُ﴾ قال يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.ويجوز أن يكون المعنى: إن الله ربي أحسن مثواي، أي: تولاني في طول مقامي، فلا أرتكب ما قد نهى عنه وحرمه ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا يُسعَد العاصون، وقيل: الزناة.وأياً ما كان فالكلام تعليل لامتناعه، وتعريض بها في خيانة عهدها.

وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء قبل النبوة من الكبائر.

وذكر وصف الرب على الاحتمالين لما يؤذن به من وجوب طاعته وشكره على نعمة الإيجاد بالنسبة إلى الله، ونعمة التربية بالنسبة لمولاه العزيز.

وأكد ذلك بوصفه بجملة ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، أي: جعل آخرتي حسنى؛ إذ أنقذني من الهلاك، أو أكرم كفالتي.

وأشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته، وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجًا وأحصنها.

وقد ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلام المرأة ثلاثة أشياء مرتبة ترتيبًا في غاية الحسن: أحدها قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.والثاني: قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُ رَبّى أَحْسَنَ مَثْوَايَّ﴾.والثالث قوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء؛ لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن

هذا العمل، وأيضًا حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضًا صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها، فقوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إشارة إليه، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ الهم: مصدر هممت بالشيء إذا أردته، وحدثتك نفسك به، وقاربته من غير دخول فيه، كل هذا يكون هَمًّا بالشيء، فمعنى قوله: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ أي: أرادته وقصدته، وكان همها عزمًا على الزنا، وأما يوسف فقد عارضه ما يعارض البشر من خطرات القلب، وحديث النفس ووسوسة الشيطان، وهذا هو الميل الطبيعي المزموم بالتقوى، فكان هامًا غير عازم، فلم يلزمه هذا الهم ذنبًا، ولم يلحقه عتبًا؛ إذ الرجل الصالح يخطر بقلبه وهو صائم شرب الماء البارد، والتلذذ بأكل الطعام الطيب، وهذا الهمّ لا يوجب معصية، هذا احتمال، واحتمال آخر وهو أنه لم يقع منه هم بها أصلاً؛ بناء على تعليق همه على عدم رؤية البرهان، وقد رأى البرهان.

﴿لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ البرهان: الحجة.وهذا البرهان من جملة ما صرفه عن الهم بها، ولولا ذلك لكان حال البشرية لا يسلم من الهم بمطاوعتها في تلك الحالة؛ لتوفر دواعي الهم من حسنها، ورغبتها فيه، واغتباط أمثاله بطاعتها، والقرب منها.ودواعي الشباب المسولة لذلك، فكان برهان الله هو الحائل بينه وبين الهم بها دون شيء آخر.

غير أن الله تعالى لم يبين لنا ما هو هذا البرهان، فعلينا أن نقف على إطلاقه، وندع تلك الأخبار التي أوردها بعض المفسرين في تفسير ذلك من غير دليل يدل عليها.

على أن من أقربها: أنه برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به، وكتب له حسنة كاملة، ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيراً ولم يفعل سيئة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي: كذلك أريناه البرهان لنصرف عنه السوء والفحشاء. والصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه، عبر به عن العصمة من شيء يوشك أن يلابس شيئًا. والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أن أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة، ولكن الله صرفها عنه، والسوء: خيانة صاحبه، والفحشاء: ركوب الفاحشة.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصوا دينهم لله، ومن فتح اللام أراد الذين أخلصهم الله واصطفاهم من الأسواء.

وجملة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء، الصرف الخارق للعادة؛ لئلا ينتقص اصطفاه الله إياه في هذه الشدة على النفس.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ الاستباق طلب السبق إلى الشيء، **ومعناه**: تبادر إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه، فإن سبق يوسف المرأة فتح الباب

وخرج، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب؛ لئلا يخرج. والاستباق: افتعال من السبق، وهو هنا إشارة إلى تكلفهما السبق، أي: أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ أي: قطعته ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: من جهة الخلف ﴿وَأَلْفَيَا﴾ أي: أدركا وصادفا، **والإلفاء**: وجدان شيء على حالة خاصة من غير سعي لوجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئًا، أو حاصلاً عن جهل بأول حصول، وإطلاق السيد على الزوج قيل: إن القرآن حكى به عادة القبط حينئذ، وكانوا يدعون الزوج سيداً، والظاهر أنه لم يكن ذلك مستعملاً في عادة العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ.

وقالت المرأة سابقةً بالقول: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ تريد الزنا، إِلَّا أَنْ يحبس في السجن، أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يعني: الضرب بالسياط.

وهذه الآية بيان عن ما يوجبه مكر النساء من البهت، بطرح الجرم على غير صاحبه لتبرئة النفس من ذلك.

ولقد أتت في تلك الحالة التي تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما: تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال، واستنزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها، وعدم مواتاته على مرادها بإلقاء الرعب في قلبه من مكرها؛ طمعًا في مواقعته لها كرهًا عند يأسها عن ذلك اختياراً كما قالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، ثم إنها جعلت صدور الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام

أمراً محققًا مفروغًا عنه، غنيًا عن الإخبار بوقوعه، وأن ما هي عليه من الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها، فهي تريد إيقاعه حسبما يقتضيه قانون الإيالة، وفي إبهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونًا مطرداً في حق كل أحد كائنًا من كان، وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظام للخطب، وإغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية، فقال يوسف عندئذ: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ ما كان يوسف يريد أن يذكره، فلما سبقت هي بطرح الجرم عليه غضب يوسف، وقال ذلك.

وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ أي: أعلم مُعْلِم، وبيّن مبين من أهل المرأة، وحكم الشاهد وبيانه يوجب الاستدلال على تمييز الكاذب من الصادق.

وسمي قوله شهادة؛ لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيدته أو دحضه، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام، وأنفى للتهمة.

فحكم ذلك الشاهد بقرينة بينة وهي: إن كان قميص يوسف قد قُطع من أمامه فقد صدقت في تهمته، وهو كاذب في تبرئة نفسه، وإن كان قميصه قد قطع من خلف فقد صدق يوسف في قوله، وكذبت المرأة في قولها.

فلما رأى العزيز أن قميص يوسف قد قطع من ورائه قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ الكيد: فعل شيء في صورة غير المقصودة للتوصل إلى مقصود، والكيد هنا هو قولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لأنه ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس،

وعن بعض العلماء: إني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان؛ فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً﴾[النساء: ٧٦]. وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولأن الشيطان يوسوس مسارقة، وهن يواجهن به الرجال.

ومن المعروف أن كيد النسوان بالنسبة إلى كيد البشر عظيم؛ فالنساء لهن في هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال، ولأن كيدهن في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال.

فلما رأى العزيز صدق يوسف وكذب زوجته قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾أي: اترك هذا الأمر ولا تذكره ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾، قال ابن عباس أي: توبي من ذنبك؛ إنك من كنت قد أثمت.**قال** المفسرون: إثمها هو: أنها راودت شابًا عن نفسه، وأرادته على الزنا، وخانت زوجها، فلما استعصم كذبت عليه وبهتته[1].

مشهد: النسوة في بيت امرأة العزيز:

لم تبق قضية المراودة حبيسة جدران قصر العزيز، بل شاعت حتى وصلت إلى نسوة في المدينة، ولله في ذلك حكمة بالغة.

فتعجبت النسوة من فعل امرأة العزيز، وعاتبنها على ذلك، فارتد الخبر إلى امرأة العزيز التي تعلم طرق الحيلة فدعتهن ليعذرنها من حبها، ومراودتها حينما يشاهدن جمال يوسف، فلما رأت عظم فتنتهن بيوسف شجعها ذلك على المجاهرة

---

(١) ينظر: التفسير البسيط (١٢/٦٥-٨٥)، التحرير والتنوير (١٢/٤٥-٥٢)، النكت والعيون (٣/٢٣)، تفسير أبي السعود (٤/٢٦٤-٧٠)، تفسير ابن كثير (٤/٣٨٢)، تفسير البحر المحيط (٥/٢٩٣-٢٩٥)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٩٢، ٩٧، ١٠٠)، مجموع الفتاوى (١٥/١١١، ١٢٨، ١٠١).

بالمراودة، والإصرار عليها، وتوعدِ يوسف بالسجن والصغار إن لم يجبها، فأصر يوسف على لزوم العفة، وفضل السجن على فعل الفاحشة.

ولما بدأ الموضوع بالانتشار اتخذ أصحاب القرار الأمر بسجن يوسف عليه السلام إلى حين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٠-٣٥].

معنى الآيات:

يخبر الله تعالى عن جمعٍ من نساء مدينة امرأة العزيز أنهن لما بلغهن خبرُ مراودة امرأة العزيز يوسفَ أنهن تعجبن أو أنكرن على عليها ذلك الفعل مع فتاها، وأخبرن أن حبه قد وصل شغاف قلبها- وهو موضع الدم الذي يكون داخل القلب- أي: اخترق الشغاف فبلغ القلب؛ كناية عن التمكن، وقيل: الشغاف: حبة القلب وسويداء القلب.

فهي في انحراف ظاهر عن طريق الرشد بحبها إياه. والضلال هنا: مخالفة طريق الصواب، أي: هي مفتونة العقل بحب هذا الفتى، وليس المراد الضلال الديني.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ...﴾ سمي قولهن مكراً **لوجوه**:

الأول: أن النسوة إنما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام، والنظر إلى وجهه؛ لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

الثاني: أن امرأة العزيز أسرّت إليهن حبها ليوسف، وطلبت منهن كتمان هذا السر، فلما أظهرن السر كان ذلك غدراً ومكراً.

الثالث: أنهن وقعن في غيبتها، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية، فأشبهت المكر.

ويجوز أن يكون أطلق على قولهن اسم المكر لأنهن قلنه في صورة الإنكار، وهن يضمرن حسدها على اقتناء مثله؛ إذ يجوز أن يكون الشغف بالعبد في عادتهم غير منكر.

فلما سمعت امرأة العزيز ذلك أعدت وهيأت لهن ما يتكأ عليه من الفرش ونحوها، وإنما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة المكث والاستراحة، أي: أحضرت لهن نمارق يتكئن عليها لتناول طعام.

ثم أعطت كل واحدة منهن طعامًا وسكيناً، وأمرت يوسف بالبروز لهن؛ ليرينه فيعذرنها في حبها إياه، فلما رأينه أعظمنه، وهالهن أمره، وبهتن بالنظر إليه

وذهبت عقولهن، والمعنى: أعظمن جماله وشمائله، فالهمزة فيه للعد، أي: أعددنه كبيراً، وأطلق الكبر على عظيم الصفات تشبيهًا لوفرة الصفات بعظم الذات، وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين دهشًا من حسنه وجماله، يريد أجرين السكاكين على أيديهن يحسبن أنهن يقطعن الفواكه، وأريد بالقطع: الجرح، ولم يحسسن إلا بالدم لشغل قلوبهن بيوسف.

وقلن في تلك الحال: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾وحاش لله: تركيب عربي جرى مجرى المثل، يراد منه إبطال شيء عن شيء وبراءته منه. وأصل "حاشا": فعل يدل على المباعدة عن شيء.

والمعنى: تنزيه الله من صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، ونفي أن يكون بهذا الحسن من جملة البشر، فلما كان غريب الجمال فائق الحسن عما عليه حسن صور الإنسان نفين عنه البشرية، وأثبتن له الملكية، لما كان مركوزاً في الطباع حسن الملك، وإن كان لا يرى. وقد نطق بذلك الشعراء، **قال** بعضهم:

قَـوْمٌ إِذَا قُوبِلُـوا كَـانُوا مَلَائِكَـةً حُـسْنًا وَإِنْ قُوتِلُـوا كَـانُوا عَفَارِيتَـا

وهذا التشبيه من تشبيه المحسوس بالمتخيل.

فلما رأت امرأة العزيز فعلهن، وسمعت قولهن سرها ذلك أيما سرور فقالت متباهية: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[يوسف: ٣٢] أشارت بذلك إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس، وأرادت إظهار عذرها عند النسوة بما شهدن من جمال يوسف، فبهتن بالنظر إليه، وذهبت عقولهن، وجعلن يقطعن أيديهن، و ﴿لُمْتُنَّنِي

فِيهِ﴾[يوسف: ٣٢]، أي: في حبه والشغف به ومراودته، ثم أقرت عندهن بأنها قد راودته فاستعصم أي: امتنع امتناع معصوم، أي: جاعلاً المراودة خطيئة عصم نفسه منها.

ولم تزل مصممة على مراودته تصريحًا بفرط حبها إياه، واستشماخًا بعظمتها، وأن لا يعصي أمرها، فتوعدته بإيقاع المكروه به إن لم يطعها فيما تدعوه إليه، فقالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف: ٣٢] من الإذلال بالسجن والحبس، وتركيب ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أقوى في معنى الوصف بالصغار من أن يقال: وليكونن صاغراً.

وهذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مراودته والخلوة به، مع علم الزوج بما جرى، وهذا من أعظم الدياثة.

ثم إن يوسف لما حبس فإنما حبس بأمرها، والمرأة لا تتمكن من حبسه إلا بأمر الزوج، فالزوج هو الذي حبسه؛ وقد روي أنها قالت: هذا القبطي هتك عرضي، فحبسه.

وحبسه زوجها لأجل المرأة معاونة لها على مطلبها لقلة غيرته، فدخل هو في من دعا يوسف إلى الفاحشة.

فحينما سمع يوسف ذلك كان موقفه أن لجأ إلى الله فقال: ﴿ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[يوسف: ٣٣] أي: مما يطالبنني به من معصيتك، وذلك أن النسوة أمرنه بمطاوعتها وقضاء حاجتها.

وقد فضل يوسف السجن مع ما فيه من الألم والشدة، وضيق النفس على ما

يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة، على ما فيه من اللذة؛ كراهية لفعل الحرام.فلما علم أنه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوبًا إليه؛ باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام، فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر، كمحبة الشجاع الحرب.

فالإخبار بأن السجن أحب إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه.

قال بعض العلماء: وقوله: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ بصيغة جمع التذكير، وقوله: ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ بصيغة جمع التأنيث، ولم يقل: مما يدعينني إليه دليل على الفرق بين هذا وهذا، وأنه كان من الذكور من يدعوه مع النساء إلى الفاحشة بالمرأة، وليس هناك إلا زوجها؛ وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة أو عديمها، وكان يحب امرأته ويطيعها؛ ولهذا لما اطلع على مراودتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩].فلم يعاقبها، ولم يفرق بينها وبين يوسف؛ حتى لا تتمكن من مراودته، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد؛ محبة منه لامرأته، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة.

ثم قال: ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي، ملت إليهن، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف: ٣٣] **يريد**: المذنبين الآثمين أو المجانبين للحلم.

فَاسْتَجَابَ الله ليوسف دعاءه بأن عصمه منهن ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾[يوسف: ٣٤] لدعائه الْعَلِيمُ بما خاف من الإثم.

وعطف جملة ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بفاء التعقيب إشارة إلى أن الله عجل إجابة دعائه الذي تضمنه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.واستجاب: مبالغة في أجاب.

ثم ظهر للعزيز وأصحابه من الرأي حبس يوسف، وإنما بدا لهم أن يسجنوه حين شاعت القالة عن امرأة العزيز في شأنه فكان ذلك عقب انصراف النسوة؛ لأنها خشيت إن هن انصرفن أن تشيع القالة في شأنها وشأن براءة يوسف عليه السلام، فرامت أن تغطي ذلك بسجن يوسف عليه السلام حتى يظهر في صورة المجرمين بإرادته السوء بامرأة العزيز، وهي ترمي بذلك إلى تطويعه لها.ولعلها أرادت أن توهم الناس بأن مراودته إياها وقعت يوم ذلك المجمع، وأن توهم أنهن شواهد على يوسف عليه السلام [(١)].

مشهد: نفي التهمة عن يوسف بين يدي الملك:

بقي يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، حتى أذن الله بانتهاء البلاء برؤيا الملك التي عبرها يوسف، فأعجب الملكَ علم يوسف، فطلب خروجه من السجن، فامتنع يوسف عن ذلك حتى تظهر براءته، وأنه سجن ظلمًا، فطلب من

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٦١٠-٦١٢)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ١٧-١٩)، التحرير والتنوير (١٢/ ٥٣-٦٠)، مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٩-١٢٠)، النكت والعيون (٣/ ٣١)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٦)، تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٠١-٣٠٢)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٠١).

الملك التحقيق مع النسوة في القضية، ولحرص الملك على الظفر بيوسف نفذ له ذلك، فجمعهن فبرأن يوسف من التهمة، واعترفت امرأة العزيز بمراودتها له، فلما سمع الملك ذلك علم وعلم الناس نقاء ثوب يوسف من الريبة، فأخرجه من السجن وولاه ولاية عظيمة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٠-٥٤].

معنى الآيات:

رجع الرسول إلى الملك ومن مع الملك، فنص عليهم مقالة يوسف، فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير، وحسن الرأي، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنام المتقدم، فعظم يوسف في نفس الملك، فطلب حضوره، فجاء رسول الملك إلى يوسف فأخبره، فأمره يوسف أن يرجع إلى الملك ويطلب منه معرفة شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن؛ ليعلم براءته عن تلك التهمة، وقد اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة؛ لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل. وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز

تسهيلاً للكشف عن أمرها؛ لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعيا للعزيز، ولأن حديث المتكأ شاع بين النساء، وأصبحت قضية يوسف عليه السلام مشهورة بذلك اليوم، وربما أنه لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به؛ كرمًا ومراعاة للأدب.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله عليه، وعلى أنه بريء مما قذف به، والوعيد لهن على كيدهن.

قال بعض المفسرين: كيدهن في حقه يحتمل **وجوهاً**:

أحدها: أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه، فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه، وتنسبه إلى القبيح.

وثانيها: لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيدته على مرادها، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز فأشار بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إلى مبالغتهن في الترغيب في تلك الخيانة.

وثالثها: أنه استخرج منهن وجوهاً من المكر والحيل في تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك، فكان المراد من هذا اللفظ ذاك.

فسارع الملك فجمع النساء وسألهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: ما شأنكن – والخطب: أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ إنما جمعهن في المراودة؛ لأن الملك اتصل به أن بعض النسوة راود، فجمعهن ليستعلم عين المراودة، ويحتمل أن يقال: إنهن كلهن راودن، فامرأة العزيز راودته عن نفسه، وسائر النسوة راودنه في طاعتها والانقياد لما تلتمسه منه.

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له، وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: من ذنب.

ونفي علمهن ذلك كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء، ونفي دعوته إياهن إليه؛ لأن ذلك لو وقع لكان معلومًا عندهن، ثم إنهن لم يزدن في الشهادة على ما يتعلق بسؤال الملك؛ فلم يتعرضن لإقرار امرأة العزيز في مجلسهن بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، خشية منها، أو مودة لها، فاقتصرن على جواب ما سُئلن عنه.

وهذا يدل على كلام محذوف وهو: أن امرأة العزيز كانت من جملة النسوة اللائي أحضرهن الملك، ولم يشملها قول يوسف عليه السلام: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف:٥٠]؛ لأنها لم تقطع يدها معهن، ولكن شملها كلام الملك إذ قال: ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾؛ فإن المراودة إنما وقعت من امرأة العزيز دون النسوة اللاتي أعدت لهن متكئًا.

حينئذ قالت امرأة العزيز: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ﴾: أي: ثبت واستقر.و ﴿الْحَقُّ﴾: هو: براءة يوسف عليه السلام مما رمته به امرأة العزيز، وإنما ثبت حينئذ؛ لأنه كان محل قيل وقال وشك، فزال ذلك باعترافها بما وقع.

ولعلها إنما أقرت؛ لأنها خافت أنها إن كذبت شهدت عليها النسوة ببعض ما تقرر عندهن.فلم تجد بدًّا من الإقرار.

والمعنى: أقر الحق في مقره، ووضعه في موضعه، ولم ترد بذلك مجرد ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن، من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطن، خصوصًا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز،

ولا بحث عن حال نفسها، وما صنعت في ذلك، بل أرادت ظهور ما هو متحقق في نفس الأمر وثبوته من نزاهته عليه السلام في محل النزاع وخيانتها.

فقالت المرأة: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا أنه راودني عن نفسي،﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام، لا زمان شهادتهن، فتأمل أيها المنصف، هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة؛ حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها، والفضل ما شهدت به الخصماء.

ثم قالت: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾. تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي؛ ذلك ليعلم زوجي أن لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ؛ ليعلم أني بريئة، أو ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته والذب عنه، وأرميه بذنب هو منه بريء.

ومعنى ﴿لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾: لا ينفذه ولا يسدده، فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي: أن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع.

ثم قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ تقول: لست أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم؛ لأن النفس تتحدث وتتمنى، وقد أمرتني بالسوء، ولكنه لم يقع ﴿إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك، أو إلا وقت رحمة ربي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: عظيم المغفرة لما يعتري النفوس بموجب

طباعها، ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك. وهذا ثناء على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب.

فلما سمع الملك هذه الشهادة العظيمة في براءة يوسف سُرّ بذلك فأمر بإخراجه وقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾[يوسف: ٥٤]، أي: أجعله خالصًا لي لا يشركني فيه أحد، فلما جاء يوسف وكلمه الملك رأى في منطقه الرشد والنبل، فحينئذ قال له: إنك لدينا ذو مكانة؛ لعلمه ومؤتمن؛ لما شهد من عفته(١).

(١) ينظر: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٢٢)، التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٦١٨)، التفسير البسيط (١٢/ ١٤٦-١٤٧)، التحرير والتنوير (١٢/ ٧٥-٧٩)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٤-٢٨٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٤)، تفسير البحر المحيط (٥/ ٣١٥-٣١٦)، تفسير البيضاوي(٣/ ٢٩٣-٢٩٦).

المطلب الثاني: ما الهم الذي همه يوسف، وما سن الشاهد من أهل المرأة، ومن هو القائل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ...﴾ الآيات؟

احتوى هذا المطلب على ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الهم الذي همه يوسف:

ذكر المفسرون في هم يوسف عليه السلام أقوالاً كثيرة، منها ما هو قدح في يوسف، ومنها ما لا دليل عليه، ومن المفسرين من نفى أن يكون حصل من يوسف هم أصلاً.

وهناك قول واحد وهو الذي يليق بعصمة الأنبياء وعفة يوسف، وتدل عليه عموم الأدلة وسياق القصة نفسها.

فنقول: إن القول الصحيح في هذه المسألة: أن هم يوسف كان همَّ خطرات، وحصول خاطر قلبي صرف عنه وازعُ التقوى، وهذا هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف، ومثال هذا: ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك؛ فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة)[١].

وهذا الهم لا ذم فيه، بل هو مدح؛ لأنه يدل على كمال الرجولة والفحولة التي

(١) متفق عليه.

تزم بالتقوى، ونفيه صفة ذم؛ لكونه نقصًا في فحولة الرجل، كما هو معلوم.

وهذا القول قال به المحققون من المفسرين وسائر العلماء:

قال الرازي: "والقول الثاني: أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل، والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نذب.

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة، ولقد استقصيناها في سورة البقرة في قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها، إلا أنا نزيد هٰهنا **وجوهاً**:

فالحجة الأولى أن الزنا من منكرات الكبائر، والخيانة في معرض الأمانة أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا الصبي إذا تربى في حجر إنسان، وبقي مكفي المؤنة، مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته، فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال.

إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع، ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى، وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة؟ ثم إنه تعالى قال في غير هذه الواقعة: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾[يوسف: ٢٤]،

وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه، ولا شك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع وأفحش أقسام الفحشاء، فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء، مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء؟ وأيضًا فالآية تدل على قولنا من وجه آخر؛ وذلك لأنا نقول: هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة، ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية، عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم؛ فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال، ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه؛ فإن ذلك يستنكر جداً، فكذا هٰهنا والله أعلم.

الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك، وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم هٰهنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار، ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها، كما في سائر المواضع، وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية.

الرابع: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام، وتلك المرأة، وزوجها،

والنسوة، والشهود، ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضًا عن المعصية، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا **الباب**:

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[يوسف: ٢٦]، وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[يوسف: ٣٣]. وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة: : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[يوسف:٣٢]، وأيضًا قالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك فهو قوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾[يوسف:٢٨-٢٩].

وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[يوسف: ٢٦]. وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤]، فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات: أولها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، واللام للتأكيد والمبالغة.والثاني: قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[الفرقان:٦٣].

والرابع: قوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص، ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه،

واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين؛ فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه.وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته فلأنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[ص:٨٢-٨٣].

فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى...فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء عما يقوله هؤلاء الجهال"(١).

وقال ابن عطية: "والذي أقول في هذه الآية: إن كون يوسف نبيًا في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أوتي حكمًا وعلماً، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته..، وإن فرضناه نبيًا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكة ونحو ذلك؛ لأن العصمة مع النبوة"(٢).

وقال ابن العربي عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٢٢]: " وهذا إنما بين الله به حال يوسف من حين بلوغه بأنه آتاه العلم، وآتاه العمل بما علم، وخبر الله صادق، ووصفه صحيح، وكلامه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا، وتحريم خيانة السيد، أو الجار أو الأجنبي في أهله، فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أناب إلى المراودة [بحكم المراودة]، بل أدبر عنها، وفر منها؛ حكمة خص بها، وعملاً بمقتضى ما علمه الله

(١) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/٩٣-٩٤).
(٢) المحرر الوجيز (٣/٢٤٥).

سبحانه. وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والغفلة من العلماء في نسبتهم إليه ما لا يليق به، وأقل ما اقتحموا من ذلك: أنه هتك السراويل، وهم بالفتك فيما رأوه من تأويل، وحاش لله ما علمت عليه من سوء، بل أبرئه مما برأه منه، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا الذين استخلصناهم. والفحشاء هي: الزنا، والسوء هو: المراودة والمغازلة، فما ألم بشيء ولا أتى بفاحشة. **فإن قيل**: فقد قال الله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾. قلنا: قد تقصينا عن ذلك في كتاب الأنبياء من شرح المشكلين، وبينا أن الله سبحانه ما أخبر عنه أنه أتى في جانب القصة فعلاً بجارحة، وإنما الذي كان منه الهم، وهو فعل القلب، فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثاً، ويقولون: فعل، وفعل؟ والله إنما قال: هم بها!"[1].

وقال القرطبي: "الهم الذي هم به: ما يخطر في النفس، ولا يثبت في الصدر، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه،... وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] على ما تقدم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله، فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفر منها، حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه الله"[2].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٥/٦١-٦٢).

(٢) تفسير القرطبي (٩/١٦٨).

وقال ابن جزي: "والصواب إن شاء الله: أنها همت به من حيث مرادها، وهم بها كذلك، لكنه لم يعزم على ذلك، ولم يبلغ إلى ما ذكر من حل التكة وغيرها، بل كان همه خطرة خطرت على قلبه لم يطعها ولم يتابعها، ولكنه بادر بالتوبة والإقلاع عن تلك الخطرة حتى محاها من قلبه، لما رأى برهان ربه ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء؛ لأن الهم بالذنب ليس بذنب، ولا نقص عليه في ذلك؛ فإنه من هم بذنب ثم تركه كتبت له حسنة"(١).

وقال الشنقيطي -بعد أن ساق الأدلة على بطلان الأقوال التي لا تليق بيوسف-: "وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها؛ اعتماداً على مثل هذه الروايات.مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب؛ كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها؛ لأن ذلك على فرض صحته فيه أكبر زاجر لعوام الفساق، فما ظنك بخيار الأنبياء! مع أنا قدمنا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة، وأوضحنا أن الحقيقة لا تتعدى أحد أمرين:

إما أن يكون لم يقع منه هم بها أصلاً؛ بناء على تعليق همه على عدم رؤية البرهان، وقد رأى البرهان.

وإما أن يكون همه الميل الطبيعي المزموم بالتقوى، والعلم عند الله تعالى"(٢).

وقال شيخ الإسلام: "فالهم اسم جنس تحته نوعان، كما **قال** الإمام أحمد: الهم

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/١٥).

(٢) أضواء البيان (٢/٢١٤-٢١٥).

همان: هم خطرات، وهم إصرار.وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له سيئة واحدة).وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة، ولا تكتب عليه سيئة، ويوسف صلى الله عليه وسلم هم همًا تركه لله؛ ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء؛ لإخلاصه؛ وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[الأعراف:٢٠١]"[(١)].

وقال ابن القيم: "فإن قيل: فقد همَّ بها؟ قيل: عنه **جوابان**:

أحدهما: أنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهم.هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني:- وهو الصواب-: أن همه كان هم خطرات، فتركه لله، فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه، فلم يستو الهمان.**قال** الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار، فهم الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به"[(٢)].

وقال الطيبي: "إن هذا التفسير هو الذي يجب أن نذهب إليه ونتخذه مذهبًا – وإن نقل المفسرون ما نقلوا –؛ لأن متابعة النص القاطع، وبراءة المعصوم عن

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٩٧).

(٢) روضة المحبين (ص:٣١٩).

تلك الرذيلة، وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه.على أن أساطين النقل المتقنين لم يرووا في ذلك شيئًا مرفوعًا في كتبهم، وجل تلك الروايات بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب"[(١)].والله أعلم.

المسألة الثانية: سِنُّ الشاهد من أهل المرأة:

اختلف المفسرون في ذلك إلى أقوال، **منها**:

القول الأول: أنه رجل كبير، وذكروا في صفاته أشياء.وهذا قول مجاهد وعكرمة.**وقال** به جمع من المفسرين منهم: الواحدي، وابن عاشور[(٢)].

القول الثاني: أنه صبي في المهد، وهذا قول ابن عباس -في رواية-، والضحاك، وسعيد بن جبير، وكونه لم يتكلم قط، ثم تكلم كرامة ليوسف عليه السلام[(٣)].

ويؤيد هذا القول حديث: (تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم)[(٤)].

---

(١) روح المعاني (١٢/٢١٥).

(٢) الوجيز للواحدي (ص:٥٤٣)، التحرير والتنوير (١٢/٥١).

(٣) البحر المديد (٣/٣٧٣).

(٤) رواه أحمد والحاكم وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، وقال أحمد شاكر: "إسناده صحيح.. والحديث في مجمع الزوائد وقال: "رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط". وفات الحافظ الهيثمي أن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل اختلاطه. وذكره ابن كثير في التفسير من رواية البيهقي من طريق عفان عن حماد بن سلمة، وقال: "إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه". فلعله لم يره في المسند، وذكره السيوطي في الدر المنثور، ونسبه أيضاً للنسائي وابن مردويه، وصحح إسناده.". وقال الألباني: وفيه ضعف؛ لاختلاط عطاء بن السائب، وما قيل من سماع حماد منه قبل اختلاطه فقد قيل أيضًا: إنه سمع منه بعد الاختلاط... فقول السيوطي في (الخصائص) (١/٣٩٩): (سنده صحيح) مردود، ونحوه قول ابن كثير: (إسناده لا =

الترجيح:

إن جئنا إلى الأثر فإن الراجح هو القول الثاني؛ لصحة الحديث في ذلك عند بعض العلماء.

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك: قول من قال: كان صبيًّا في المهد؛ للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر من تكلم في المهد فذكر أنَّ أحدهم: صاحب يوسف"[1].

وقال الشنقيطي: "وأظهر الأقوال: أنه صبي؛ لما رواه أحمد، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: (تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم"[2].

وإن جئنا إلى النظر فإن القول بأنه رجل هو الراجح؛ لأنه لو كان صبيًا لكان معجزة، ويصبح كافيًا في براءة يوسف، ويغدو حديث الناس في ذلك الوقت.

قال القرطبي: "**قال** أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى - والله أعلم-: أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً، شاوره الملك، فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف عليه السلام تغني عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكادت أوضح من الاستدلال بالعادة، وليس هذا بمخالف للحديث: (تكلم أربعة وهم صغار..منهم: صاحب يوسف)، يكون المعنى:

= بأس به)". الإسراء والمعراج وذكر أحاديثهما وتخريجها وبيان صحيحها، للألباني (ص:٨٠).

(١) تفسير الطبري (١٦/٥٩).

(٢) أضواء البيان (٢/٢١٧).

صغيراً ليس بشيخ، وفي هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي "[1].

وقال الرازي: "ولو كان هذا القول صادراً عن الصبي الذي في المهد لكان قوله حجة قاطعة، ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها، وبين أن لا يكون من أهلها، وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر "[2].والعلم عند الله.

المسألة الثالثة: القائل: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ...﴾الآيات:

اختلف المفسرون في ذلك إلى **قولين**:

القول الأول: أن قائل ذلك هو امرأة العزيز، والمعنى: ليعلم يوسف أني لم أكذب عليه في حال غيبته، والإشارة بذلك إلى توبتها وإقرارها، وقولها: وما أبرئ نفسي هو منها كلامها فهو اعتراف بعد الاعتراف.

وقيل: هذا من تمام الاعتذار؛ قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ذلك أي: قولي هذا وإقراري ببراءته ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهو: أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو

(١) تفسير القرطبي (٩/١٧٣).

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/٩٩).

عرضة للشر.فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظًا ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك؛ فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه، وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩].

ويحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر منِّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراش.

القول الثاني: أن قائل ذلك يوسف عليه السلام، والمعنى: أي: لم أخنه في زوجته في غيبته، بل تعففت عنها.والإشارة بذلك إلى توقفه عن الخروج من السجن حتى تظهر براءته، وقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ هو اعتراف بما همّ به على وجه خطوره على قلبه، لا على وجه العزم والقصد، وقاله في عموم الأحوال على وجه التواضع.

الترجيح:

ويبدو أن القول الأول هو الراجح؛ للآتي:

١- أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾.إلى قولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾.ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف؛ لئلا يوقع في اللبس؛ فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

٢- أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في

السجن لما تكلمت بقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ والسياق صريح في ذلك؛ فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف:٥٠]. فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق، فقال النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾[يوسف:٥١]. وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

فلم يتقدم من يوسف كلام يشير به إليه، ولا تقدم أيضًا ذكر عفافه واعتصامه؛ فإن الذي ذكره النسوة قولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وهذا فيه بيان كذبها فيما قالته أولاً ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو. فقول القائل: إن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ...﴾ من قول يوسف مع أنه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل لا يصح بحال.

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[يوسف:٥٢]. الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام؛ أي: إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥٣]، وهذا من تمام معرفته بربه ونفسه؛ فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها؛ فإنها أمارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها؛ فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه، وهو

قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾[يوسف:٥١]. وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، فهذا هو المذكور أولاً بعينه، فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه ويضمر فيه قول لا دليل عليه.

٣- أن نفس يوسف عليه الصلاة والسلام كانت من أزكى الأنفس، فكيف يصح أن يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ والله يعلم أن نفسه بريئة ليست أمارة بالسوء؛ بل نفس زكية من أعظم النفوس زكاء، والهم الذي وقع كان زيادة في زكاء نفسه وتقواها، وبحصوله مع تركه لله لتثبت له به حسنة من أعظم الحسنات التي تزكي نفسه.

٤ -أن المعنى على - لو كان هنا ما يشار إليه من قول يوسف أو عمله - إن عفتي عن الفاحشة كان ليعلم العزيز أني لم أخنه، ويوسف عليه الصلاة والسلام إنما تركها خوفًا من الله، ورجاء لثوابه ؛ ولعلمه بأن الله يراه ؛ لا لأجل مجرد علم مخلوق.**قال** الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فأخبر أنه رأى برهان ربه، وأنه من عباده المخلصين، ومن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك لم يكن هذا لأجل برهان من ربه، ولم يكن بذلك مخلصًا، فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله آحاد الناس لم يكن له ثواب من الله؛ بل يكون ثوابه على من عمل لأجله.

٥- ولو كان هذا من قول يوسف لقال : ذلك ليعلموا أني بريء وأني مظلوم، ثم هذا لا يليق أن يذكر عن يوسف ؛ لأنه قد ظهرت براءته، وحصل

مطلوبه، فلا يحتاج أن يقول ذلك لتحصيل ذلك، وهم قد علموا أنه إنما تأخر لتظهر براءته، فلا يحتاج مثل هذا أن ينطق به.

٦- أن في الكلام المحكي الذي أقره الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾ وهذا يدل على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء؛ بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء. **والمقصود هنا**: أن ما رحم ربي من النفوس ليست بأمارة، وإذا كانت النفوس منقسمة إلى مرحومة وأمارة فقد علمنا قطعًا أن نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء؛ لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة، وراودت وافترت واستعانت بالنسوة، وسجنت، وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء.وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فإن لم يكن نفسه من النفوس المرحومة عن أن تكون أمارة فما في الأنفس مرحوم؛ فإن من تدبر قصة يوسف علم أن الذي رحم به، وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون؛ ولولا ذلك لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي أبعد عن أن تكون مرحومة من نفس يوسف.وعلى هذا التقدير: فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة: فما في النفوس مرحومة فإذا كل النفوس أمارة بالسوء وهو خلاف ما في القرآن.

٧- أن هذا الكلام فيه - مع الاعتراف بالذنب - الاعتذار بذكر سببه فإن قولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].فيه اعتراف بالذنب وقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ إشارة تطابق لقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ﴾ أي: أنا مقرة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي.ثم بينت السبب فقالت: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾. فنفسي من هذا الباب فلا ينكر صدور هذا مني.ثم

ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة فقالت : ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٨- قد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها؛ مثل ما يذكرون أنه حل السراويل، وقعد منها مقعد الخاتن ونحو هذا، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب، وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء، وغضهم منهم كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه!.والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصراً وإما تائبًا، والإصرار ممتنع، فتعين أن يكون تائبًا، والله لم يذكر عنه توبة في هذا، ولا استغفاراً كما ذكر عن غيره من الأنبياء؛ فدل ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة، والمساعي المشكورة؛ كما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.وإذا كان الأمر في يوسف كذلك؛ كان ما ذكر من قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إنما يناسب حال امرأة العزيز، ولا يناسب حال يوسف.

فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه، وفيه الاغتياب لنبي كريم، وقول الباطل فيه بلا دليل، ونسبته إلى ما نزهه الله منه[1].

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٢)، النكت والعيون (٣/٤٧)، تفسير الخازن (٣/٢٨٩)، تفسير ابن كثير (٤/٣٩٤-٣٩٥)، تفسير السعدي (ص:٤٠٠)، تفسير البحر المحيط (٥/٣١٦) التحرير والتنوير (١٣/٥)، روضة المحبين (ص:٣١٩-٣٢١)، مجموع الفتاوى (١٥/١٣٩-١٥٠).

عظم عفة يوسف عليه السلام:

إن المتأمل في حادثة المراودة يدرك عظم عفة يوسف الصديق عليه السلام، وأنه قد تمنع عن الفاحشة تمنعًا عظيمًا قد لا يستطيعه كل مؤمن؛ فقد توفر ليوسف من الدواعي لمواقعة الفاحشة، والموانع الحائلة دونها أشياء كثيرة، ومع ذلك عف وصان نفسه عما حرم الله.

فقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق من العفاف أعظم ما يكون؛ فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره؛ حيث أخبر الله عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله؛ فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، **وذلك من وجوه**:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب، ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً، بل يحمد.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابًا، وشهوة الشباب وحِدّته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبًا، ليس له زوجة، ولا سُرّية تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة، ويتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه. حيث لم يكن له هناك أقارب أو أصدقاء فيستحي منهم إذا فعل فاحشة؛ فإن كثيراً من الناس يمنعه من مواقعة القبائح

حياؤه ممن يعرفه، فإذا تغرب فعل ما يشتهيه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها؛ لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة.وزادت مع الطلب الرغبة التامة، والمراودة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار؛ لتعلم عفافه من فجوره.

الثامن: أنه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها؛ فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب، وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها، والمملوك لا يأنف مما يأنف منه الحر، وهذا المملوك يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا[(١)].

---

(١) السَّواد: المُسَارَّة وهو قرب السَّوَاد من السَّواد يعنى الشخص من الشخص.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[يوسف:٢٩]. وللمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

الرابع عشر: أنه كان أيضًا خاليا لا يخاف مخلوقًا، فحكم النفس الأمارة - لو كانت نفسه كذلك - أن يكون هو المعترض لها؛ بل يكون هو المتحيل عليها، كما جرت به عادة كثير ممن له غرض في نساء الأكابر إن لم يتمكن من الدعوة ابتداء.فأما إذا دعي ولو كانت الداعية خدامة لكان أسرع مجيب، فكيف إذا كانت الداعية سيدته الحاكمة عليه التي يخاف الضرر بمخالفتها.

ومع هذا كله فعف لله، ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى خوفًا من الله

ورجاء ثوابه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[يوسف:٣٣]. وهذا في غاية مقامات الكمال، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله!.

فليتدبر اللبيب هذه الدواعي التي دعت يوسف إلى ما دعته، وأنه مع توفرها وقوتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك، ولا من ينجيه من المخلوقين؛ ليتبين له أن الذي ابتلي به يوسف كان من أعظم الأمور، وأن تقواه وصبره عن المعصية - حتى لا يفعلها مع ظلم الظالمين له حتى لا يجيبهم - كان من أعظم الحسنات، وأكبر الطاعات، وأن نفس يوسف عليه الصلاة والسلام كانت من أزكى الأنفس(١).

ثمرات العفة:

رأينا فصول قصة العفاف اليوسفية بمشاهدها المعروضة في هذه القصة، ويمكننا أن نقطف من ذلك ثمرات يانعة لهذا الخلق العظيم خلق العفاف، **فمن ذلك**:

١- نيل رضوان الله ورفعة الشأن عنده، فمن ترك الفاحشة خوفًا من الله نال هذه الثمرة، وما ثناء الله على يوسف عليه السلام إلا دليل على ظفر يوسف بذلك.

٢- الفوز بالعوض الأفضل من خيرات الدنيا والآخرة، وهذا العوض له صور عديدة، **منها**: الراحة التي يجدها العفيف في نفسه عقب ترك الفاحشة،

(١) ينظر: روضة المحبين (ص:٣١٨-٣١٩)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي(ص:٢٠٨-٢١٠)، تفسير ابن كثير (٤/٣٨٦-٣٨٧)، مجموع الفتاوى (١٥/١٣٨).

ومنها: الوصول إلى مصالح حياتية.

قال ابن القيم: "عنوان هذا الباب وقاعدته: أن من ترك لله شيئًا عوضه الله خيراً منه؛ كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة، فعوضه الله أن مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء...فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء... وهذه سنته تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة"[(١)].

٣- السمعة الحسنة بين الناس، فيصير العفيف ممدوح السيرة، مأمون الجانب، عظيم القدر، محبوبًا لدى القريب والبعيد.

---

(١) روضة المحبين (ص:٤٤٥).

المطلب الثاني: الفحش:

التعريف:

لغة:

(**فحش**) الفاء والحاء والشين كلمةٌ تدلُّ على قُبحٍ في شيء وشَناعة. من ذلك الفحْش والفَحْشاء والفاحشة: القبيحُ من القول والفعل وجمعها الفَواحِشُ، وكثيراً ما تَرِدُ الفاحشةُ بمعنى الزنا ويسمى الزنا فاحشةً. ويقولون: كلُّ شيء جاوَزَ قَدرَه فهو فاحش [1].

اصطلاحًا:

الفحش: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[2].

نافذة:

إن الفحش الذي نريد أن نتحدث عنه في هذه القصة ويكون في مقابل العفة؛ هو: ما قامت به امرأة العزيز من مراودتها يوسف، وإغلاق الأبواب ودعوته إليها، وعزمها وإصرارها على إكراه يوسف على الفاحشة، وتوعدها له إذا لم يفعل؛ فإن هذه الأمور مقدمات إلى وقوع الفاحشة المعروفة.

ولذلك سنتحدث عن ذلك في النقاط الآتية:

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٤٧٨)، المعجم الوسيط(٢/٦٧٥)، لسان العرب (٦/٣٢٥).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٨٠).

أولاً: طلب الفاحشة في السر:

إن الله تعالى بحكمته البالغة وعلمه الواسع بعباده؛ حرم خلوة الرجال بالنساء، ونظر كل من الجنسين إلى الآخر -غير الزوجين والمحارم-؛ لما يترتب على ذلك من اشتهاء الوصول إلى الفاحشة؛ إطفاء لجذوة الشهوة المتقدة.

فامرأة العزيز تلك المرأة المترفة أطالت النظر إلى يوسف ذلك الشاب الجميل، وأكثرت الجلوس معه، فرأت فيه ما يعجبها، فهيأت ليوسف عملية استدراج محكمة إلى فخها؛ حتى تنال منه رغبتها الفطرية، فعملت للوصول إلى بغيتها ما يأتي:

١-الانفراد به في مكان خالٍ؛ حتى لا يراهما أحد.

٢-إغلاق أبواب ذلك المكان إغلاقًا محكمًا؛ حتى لا يدخل عليهما أحد.

٣- دعوته إليها، ومراودته إلى مواقعتها.

٤- عزمها الشديد على نيل مرادها منه.

٥-ملاحقتها له حينما استعصم منها، وهرب نحو الباب.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[يوسف:٢٣-٢٥].

وحينما لم تظفر بهدفها بعد كل هذا الإعداد لخطة الظفر بالحاجة، وخافت الفضيحة أمام زوجها؛ رمت يوسف بذنبها؛ تخلصًا من الخيانة، وعقوبة ليوسف على إبائه.

وفي هذه اللحظة كان تتوقع من زوجها شدة غضب تمليه عليه الغيرة يقابل به ذلك الموقف الذي كاد أن يدنس فراشه.

لكن الأمر حصل على خلاف ما تتوقع؛ فقد قابل الزوجُ ذلك المشهد ببرود مشاعر، وضعف حمية، ليس مقابل قول زوجته عن إرادة يوسف المزعومة، ورؤية الطالب والهارب، ولكن بعد ظهور أمارات خيانة زوجته وطلبها الفاحشة من يوسف.وهذه انتكاسة فطرية شديدة؛ " فإن الله قد جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف، فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته أعظم من غيرته على نفسه أن يزني، فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغيًا وهو ديوث كيف يكره أن يكون هو زانياً؛ ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعف عن الزنا؛ فإن الزاني له شهوة في نفسه، والديوث ليس له شهوة في زنا غيره، فإذا لم يكن معه إيمان يكره به زنا غيره بزوجته كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنا؟ فمن استحل أن يترك امرأته تزني استحل أعظم الزنا، ومن أعان على ذلك فهو كالزاني، ومن أقر على ذلك مع إمكان تغييره فقد رضيه "(١).

فاستفادت المرأة من موقف زوجها البارد **أمرين**:

١ -السلامة من عقابه لها.

٢ -تشجيعها للمضي في تحقيق مشروعها في جولة أخرى؛ ولذلك كان

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٠)..

زوجها من أعظم من أعانها على الإصرار على مراودة يوسف فيما بعد، ولو عاقبها أو رأت منه حمية لما تجرأت بعد الموقف الأول.

ونستشف من هذا أن ضعف غيرة الرجال هو الطريق الأول الذي يشجع النساء على الفواحش؛ فالمرأة حينما ترى عدم مبالاة زوجها أو محرمها بإتيانها مقدمات الفاحشة فإن ذلك يغريها على الاستمرار حتى تواصل الخطى على طريق الردى،، فيذهب عند ذلك حياؤها من ربها، وخوفها من زوجها أو محرمها، وعلى هذا المركب تصل إلى الغاية المحظورة.

وما فسدت المجتمعات بالفواحش إلا بضعف الغيرة لدى بعض الرجال، وقلة الحياء عند بعض النساء، **قال** الغزالي: "وأما ثمرة الحمية الضعيفة: فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة، واحتمال الذل من الأخساء، وصغر النفس والقماءة، وهو أيضًا مذموم؛ إذ من ثمراته: عدم الغيرة على الحرام...وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب، ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب؛ ولذلك قيل: كل أمة ضعفت الغيرة في رجالها، ضعفت الصيانة في نسائها"(١).

ويختم العزيز هذا المشهد الذي تطيش له أحلام الغيارى بأمر يوسف بالإعراض، وأمر زوجته بالاستغفار!.

قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩].

---

(١) إحياء علوم الدين (١٦٨/٣).

لتستعد زوجته لمحاولة جديدة.

ثانيًا: طلب الفاحشة في العلن:

ظلت نفس امرأة العزيز تتقد طلبًا وغضبًا؛ لعدم نيل بغيتها من يوسف، فبلغ خبر مراودتها بعض نساء المدينة، فتعجبن وأنكرن وضلّلن صاحبة القصر، وكأنهن قد بلغهن خبر جمال يوسف، فاحتلن لرؤية الفتى الفاتن بالكلام على المرأة المفتونة به؛ حتى تريهن إياه.

فدعتهن إلى بيتها، وكان لها مصلحة من حضورهن أيضًا، فلما رأينه شدهن بجماله، فأعجب ذلك امرأة العزيز، حتى شجعها على الإعلان بطلب الفاحشة، والتهديد ليوسف على المخالفة فقالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢].

وفي هذا المشهد نلاحظ:

أ-أن امرأة العزيز قد حصلت على شحنة جديدة من التحفيز حتى أوصلها ذلك إلى المجاهرة بلا مواربة، والترهيب من غير مكاتمة، ولكنها هذه المرة لم تذكر العذاب الأليم، وإنما ذكرت السجن مصحوبًا بالمصير إلى الذل والصغار.

ب-أن النساء لم يكن لديهن حرص على شرف امرأة العزيز حيث إنهن لم يزجرنها عن إرادتها الجامحة، بل أعنها باندهاشهن وسكوتهن، وزيادة على ذلك -كما قيل- طلبن من يوسف طاعة سيدته.

قال الرازي: واعلم أن المرأة لما قالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢]. وسائر النسوة سمعن هذا التهديد، فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام، وقلن: لا مصلحة لك في مخالفة أمرها، وإلا وقعت في السجن، وفي الصغار. فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام **أنواع من البلاء:**

الأول: أن المرأة كانت في غاية الحسن.

والثاني: أنها كانت ذات مال وثروة، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها.

والثالث: أن النسوة اجتمعن عليه، وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر، ومكر النساء في هذا الباب شديد.

والرابع: أنه عليه السلام كان خائفاً من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه، فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها، وجميع جهات التخويف على مخالفتها، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه [1].

ج-كانت امرأة العزيز قد ضمنت ردة فعل زوجها؛ فلذلك لم تخش بإعلانها جانبه بخروج خبر هذا الاجتماع إليه.

د-أن امرأة العزيز أرادت من هذا الجمع أن تُري النساء جمال يوسف فيعذرنها، وقد حصلت على ذلك، لكنها فتنت أولئك النسوة بيوسف، وهذا ما لا يفعله عفيف.

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب(١٨/ ١٠٥). بتصرف.

قال بعض أهل العلم عن امرأة العزيز: "كذبت أولاً وآخراً؛ كذبت عليه [أي يوسف] بأنه طلب الفاحشة، وكذبت عليه بأنه أشاعها، وهي التي طالبت وأشاعت؛ فإنها قالت للنسوة: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾. فهذا غاية الإشاعة لفاحشتها لم تستر نفسها. والنساء أعظم الناس إخباراً بمثل ذلك، وهن قبل أن يسمعن قولها قد قلن في المدينة: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ فكيف إذا اعترفت بذلك وطلبت رفع الملام عنها؟"(١).

ثالثًا: أسباب النجاة من الوقوع الفاحشة:

إننا عندما نتدبر مشهدي المراودة الأول والثاني نجد أن هناك أسبابًا اجتمعن في يوسف حتى حلن بينه وبين الوقوع في شَرَك الفاحشة، **فمن تلك الأسباب:**

الأول: الإخلاص لله تعالى، ودوام طاعته.

قال ابن القيم -وهو يتكلم عن دواء العشق-: "وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤].

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه؛ فإن القلب إذا أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور؛ فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوى... فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكنا"(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٣).

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٢١٢).

الثاني: ملازمة تقوى الله تعالى في السر والعلن.

" فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور؛ كما فعل يوسف عليه السلام؛ اتقى الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان الله ودعاه حتى يثبته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر على الحبس "(١).

الثالث: اللجوء إلى الله تعالى ودعاؤه بصدق.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يوسف:٣٤].

وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء؛ لأنّ قوله: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء، وكأنه قال: رب اصرف عني كيدهن، فصرف عنه كيدهن أي: حال بينه وبين المعصية؛ ولذلك ختم ذلك باسمين يدلان على الدعاء فقال: ﴿السَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم(٢).

ومن أدب الدعاء: ختمه بما يناسبه من الأسماء الحسنى؛ ولما كان الدعاء بصوت ناسب أن يذكر اسم(السميع)، ولما كان دعاء الداعي لتحقيق مرغوب له أو دفع مرهوب عنه ناسب ذكر اسم(العليم) الذي يدرك ما يصلح الحال.

قال السعدي-وهو يذكر الفوائد من قصة يوسف-و"**منها**: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٣١).

(٢) تفسير الكشاف (٢/٤٤١)، تفسير البحر المحيط(٥/٣٠٦).

وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾"(١).

الرابع: الخوف من الله عز وجل.

فقد كان يوسف" معه من خوف الله ما يزعه عن الفاحشة، ولو رضي بها الناس، وقد دعا ربه عز وجل أن يصرف عنه كيدهن...فهذا كله يبين أن الداعي ليوسف إلى ترك الفاحشة كان خوف الله لا خوفًا من السيد...فيوسف صلى الله عليه وسلم خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق، وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى، مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات، ونيل الرياسة والمال مع المعصية؛ فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية.بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك"(٢).

الخامس: الصبر والتوكل على الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣].

"ففي هذا توكل على الله، واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة،

---

(١) تفسير السعدي (ص:٤٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١١٩، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣).

وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة"[1].

السادس: البعد عن الخلوة بالنساء والنظر إليهن والاختلاط بهن.

السابع: عدم الاغترار بالإيمان وقوة الصبر؛ فإن العبد قد يخان من قبل ذلك إذا لم تكن له حماية من الله.

قال تعالى: ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ " أي: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي "[2].

الثامن: الهرب من بيئة الفاحشة ومفارقة أهلها.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾[يوسف:٢٥].

فـ"يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب، وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه، فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته أي قطعته"[3].

التاسع: مخالفة الهوى المكروه.

يقول ابن الجوزي: "قرأت سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره، فتأملت خبيئة الأمر، فإذا هي مخالفته للهوى المكروه، فقلت: واعجبًا لو وافق هواه من كان يكون؟! ولما خالفه لقد صار أمراً عظيمًا، تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة! فياله عزاً

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٦).

(٣) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/ ٩٧).

وفخراً، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب"[1].

العاشر: رعاية المعروف والإحسان.

فإن يوسف عليه السلام راعى حق سيده فلم يخنه في أهله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣]. **قيل**: هذا مما يبين محاسن يوسف، ورعايته لحق الله، وحق المخلوقين، ودفعه الشر بالتي هي أحسن؛ فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان كل منهما مستقل بالتحريم؛ فالفاحشة حرام؛ لحق الله، ولو رضي الزوج، وظلم الزوج في امرأته حرام؛ لحقه، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط، كما لو ظلمه وأخذ ماله، وتاب من حق الله لم يسقط"[2].

(١) صيد الخاطر (ص:١٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٢١).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد العفة ومقابلها في قصة يوسف عليه السلام:

١-الحديث عن العفة والإعجاب بالحديث عنها يجيده الكثير من الناس، لكن الممارسة الفعلية حينما تكون الفاحشة سهلة التناول لا يستطيعها إلا النزر القليل، فالتنظير وحبه شيء، ولكن الواقع شيء آخر.

٢-انظر إلى هروب يوسف من الفاحشة مع تمكنه وغلبة الدواعي وانتفاء الموانع، وإلى هروب بعض الناس إلى الفاحشة مع قلة الدواعي وكثرة الموانع!.

٣-خطر نظر النساء لجمال الرجال، ولو نظرة واحدة تكفي في الفتنة.

٤-ذهول العقل بشيء، وانشغاله به ينسي الألم البدني، ففي غزوة من الغزوات كان عباد بن بشر حارسًا ظهور المسلمين، فقام يصلي، فرماه أحد الأعداء بسهم فنزعه، ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلّم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله! هلا نبهتني، فقال: إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها![1]. ومستفاد هذا من تقطيع النسوة أيديهن.

٥-تمسك بعروة العفة مهما تزينت لك الفتنة، وتترس بجناب الله ولو قالت: هيت لك، وفتحت لك أبواب الولوج.

٦-كم من جمال ظاهر لم يصنه جمال باطن، أما يوسف فقد كمل فيه الجمالان: جمال الظاهر بحسن الصورة، وجمال الباطن بسبوغ العفة، ونقاء السريرة.

٧-جمال الصورة له أثر في جذب الأنظار وتعلق القلوب، وخاصة نظر

(١) الرحيق المختوم (ص:٣٥٤).

النساء إلى الرجال؛ إذ افتتانهن بالجمال الظاهر أشد من الجمال الباطن(العقل، العلم، القوة).فنظرة النساء غالبًا إلى الصور، ونظرة الرجال إلى المعاني كالعلم والقوة.

ويوسف عليه السلام كان قد كسي من الجمال ما جعل امرأة العزيز تفتتن به فتنة عظيمة. حتى غدا جمال يوسف مضرب المثل في الحسن.

قال الشاعر:

لَوْ أسمعوا يعقوبَ ذكرَ ملاحةٍ   في وجههِ نسيَ الجمالَ اليوسفي
أَوْ لَوْ رآهُ عائداً أيُّوبُ في   سِنَةِ الكَرَى، قِدْماً، من البَلْوَى شُفي[1]

وقال آخر:

بأبي حُسنُ وجهك اليُوسفيِّ   يا كَفَّي الهَوَى وفوق الكَفِيِّ[2].

وقال آخر:

يُوسفيُّ الجَمالِ كم تاهَ صَبٌّ   في معاني جمالهِ اليوسفيِّ[3].

وقال آخر:

كملَ الجمال اليوسفيُّ به كما   تمَّ البهاءُ لديه واللطفُ الخفي[4].

٨- وصلت الحال في صديقات امرأة العزيز إلى حز أيديهن من فرط الدهشة،

---

(١) ديوان ابن الفارض (ص:١٤٩).

(٢) ديوان ابن الرومي (ص:٥٠٣٣).

(٣) ديوان صفي الدين الحلي (ص:١٣٣٢).

(٤) ديوان إبراهيم اليازجي (ص:١٨٦).

وتجاوزن في القول إلى أن قلن فيه: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف:٣١].

٩-اختيارهن تشبيه يوسف بالملائكة لما تقرر عند الناس كون الملائكة في غاية الحسن. ويدل على هذا:

أ-قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾[النجم:٦]، أي: ذو منظر حسن، قاله ابن عباس(١).

ب-وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور) (٢).

ج-مجيء جبريل بصورة دحية بن خليفة الكلبي " وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته(٣).

١٠-هناك صفة في النساء وهي حب التطلع، واكتشاف المجهول عند السماع عنه(قصة النسوة) فالمرأة إذا سمعت عن شيء تحب أن تراه.

١٢-الترف إذا لم يصن بشرف أوصل إلى التلف.

١٣-الترقيات لا تنال إلا بتضحيات؛ فيوسف لم يصل إلى هذه الرتبة العلية من الثناء بعظم عفافه إلا بعد سنوات من العناء، وأصناف من البلاء.

١٤-من جميل قول الرافعي عن مراودة امرأة العزيز يوسف قوله: "عجبًا للحب! هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس؛ ولكن أين مُلكها

---

(١) النكت والعيون (٥/٣٩٢).

(٢) رواه مسلم.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة (٢/٣٨٥).

وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي﴾ و ﴿الَّتِي﴾ هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت؛ فلم يبق على الحب مُلك ولا منزلة؛ وزالت الملكة من الأنثى!

وأعجب من هذا كلمة ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لون بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها؛ كما يصور كبرياء الأنثى؛ إذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها؛ فمهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهذا "الشيء الآخر" مظهر امتناع أو مظهر تحير أو مظهر اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة.

ثم قال: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ ليدل على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرحة في أدب سام كل السمو، منزه غاية التنزيه بما معناه: "إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغرائه مقبلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومنصبة من كل جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت -أول ما خلعت- أمام عينيه ثوب الملك.

ثم قال: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ ولم يقل: "أغلقت" وهذا يشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل

الواحد أقفالًا عدة، وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها في الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط"[1].

(١) وحي القلم (١/ ٩٥).

الذِّكْر والنِّسيان

المطلب الأول: الذِّكر:

التعريف:

لغة:

يقال: ذكر الشيء ذِكْرًا وذُكْرًا وذِكْرى وتَذكارًا وتِذكارًا: حفظه واسحضره، وجرى على لسانه بعد نسيانه، وتَذَكَّرَهُ واذَّكَرَهُ وادَّكَرَهُ واذْدَكَرَهُ قلبوا تاء افْتَعَلَ في هذا مع الذال بغير إدغام، وأَذْكَرَه إياه ذَكَّرَهُ، والاسم الذِّكْرَى، والذِّكْرَى بمعنى الذِّكْرِ، وبمعنى التَّذَكُّرِ، وذكر النعمة: شكرها، وذَكَرْتُ الشيء، خلافُ نسِيتُه، ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان، وذكرت الشيء بعد النسيان، وذكرته بلساني وبقلبي، وتذكرته، وأذكرته غيري وذكرته، بمعنى.

وتذكر الشيء **واستذكره**: ذكره، والذاكرة: قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب السابقة واستعادتها.

والتذكرة: ما تستذكر به الحاجة وما يدعو إلى الذكر والعبرة، وهي أعم من الدلالة والأمارة.

والتذكر: تفعُّل من الذكر، وهو ضد النسيان، واختير له بناء التفعل لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصر والتفهم والتعلم.

والذِّكْرُ: الحِفْظُ للشيء تَذْكُرُه، والذِّكْرُ أيضًا الشيء يجري على اللسان،

والذِّكْرُ: ما ذكرته بلسانك وأَظهرته، والذُّكْرُ بالقلب يقال: ما زال مني على ذُكْرٍ أَي: لم أَنْسَه.

والذكر: تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء في القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ[1].

اصطلاحًا:

الذكر: هيئة للنفس تمكِّن الإنسان من إبقاء المعلومات حاضرة في الذهن، أو استعادتها بعد نسيانها.

وأما التذكر فهُوَ: محاولة النَّفس استرجاع مَا زَالَ من المعلومات.

وقيل هو: حضور صورة المذكور العلمية في القلب[2].

نافذة:

لقد أعطى الله تعالى الإنسان نعمًا كثيرة لا تعد ولا تحصى، ومن تلك النعم: نعمة حفظ معلومات الأشياء، وتذكرها بعد نسيان، وذلك أن مصالح الإنسان الدينية والدنيوية تقوم على الحفظ والتذكر، ولولا ذلك لاختلت الحياة، وتعكرت

---

(١) المعجم الوسيط (١/٣١٣)، الصحاح للجوهري (٣/٢٢٨)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٦٣)، لسان العرب (٤/٣٠٨)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٣٥٨)، مدارج السالكين (١/٤٤٠).

(٢) الكليات (ص:٦٧)، مدارج السالكين (١/٤٤٠).

معيشة الإنسان.

وليست النعمة المقصودة هنا هي المعلومات المعادة، وإنما هي القدرة الذهنية على استحضار ذلك؛ إذ إن بعض المعلومات التي تستعيدها الذاكرة بعد أن عفا عليها الزمن قد يكون فيها إيلام للنفس؛ لما تحتويه من أفراح ذهبت، أو أتراح حلّت على الإنسان في ذلك الزمان الدارس.

وفي قصة يوسف عليه السلام سنجد أذهانًا حفظت معلومات وصِّيتْ بحفظها بغير نسيان، وأذهانًا ذهب عنها ذلك ولم تتذكره إلا بعد زمان، وسنجد أيضًا ذكريات حزينة تُستحضر بمجيء مناسباتها بعد أن مر عليها زمن من عمر هذه الحياة.

ستتحدث عنها في المشاهد الآتية:

المشهد الأول: تذكُّرُ يعقوب يوسفَ عليهما السلام:

لقد ظل ذكر يوسف في قلب يعقوب جرحًا داميًا لا يجف حتى يلقاه، ولا يزيده مرور الأيام والليالي إلا تجدداً؛ كحال الخنساء يوم قالت في صخر الذي- لا يرجى عوده فكيف بمن يرجى عوده!-:

يُذَكّرُني طُلُوعُ الشمسِ صَخراً وأذكرُهُ لكلّ غُروبِ شَمْسِ
يُؤرّقُني التّذَكّرُ حينَ أُمْسي فأُصْبحُ قد بُليتُ بفرْطِ نُكْسِ[1].

فعينُ يعقوب على ذكرى يوسف دائمة الهملان، وقلبه مصطلٍ بجمر الأحزان.

(١) ديوان الخنساء (ص:٦٧).

أفي كل دارٍ منك عينٌ تَرقرقُ...وقلبٌ على طول التذكر يخفِقُ[1].

وكلما عنّت مناسبة أو طرأ حزن على يعقوب حضر حزن يوسف، فاستولى على المشهد، فكأن الحزن كله حزن يوسف.

فحينما أستأذنه أبناؤه في أخذ بنيامين معهم إلى مصر تذكر خيانتهم له في يوسف فقال لهم:

﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤].

وعندما رجعوا إليه بنبأ احتباس بنيامين لدى العزيز نكأ هذا الجرح الجديد الجرح العتيق، فذكر يوسف، قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٤-٨٦].

والمعنى: أن يعقوب عليه السلام أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم، والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة -بالنسبة للأولى- المصيبة الأولى، فجَدَّد له حزنُ الابنين الحزنَ الدفين، وإنما خص يوسف بالذكر هنا دون بنيامين؛ لأن يوسف كان أصل الرزايا عنده؛ إذ ترتبت عليه، وكان أحب أولاده إليه، وكان دائماً يذكره ولا ينساه، والرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً،

(١) الموازنة (ص:٩٩).

والحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب، وأعظم لهيجان الحزن الأول.

كان لذي الرُّمة إخوة: هشام وأوفى ومسعود، فمات أوفى، ثم مات بعده ذو الرمة، **فقال** مسعود:

تَعَزَّيْتُ عن أوفى بغيلانَ بعدَهُ عَزَاءً وَجَفْنُ الْعينِ ملآنُ مُترَعُ
وَلَمْ تُنسني أَوْفى المصيباتُ بعدَه وَلَكِنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أوجعُ[1].

فإذا كان يعقوب تذكر يوسف عليهما السلام فقد تذكر عمر رضي الله عنه يعقوب وحزنه حينما قرأ الآية:

فعن عبد الله بن شداد قال: سمعت نشيج[2] عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ في صلاة الفجر سورة يوسف فلما مر بهذه الآية: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦] فبكى حتى انقطعت قراءته، وسمعت نشيجه[3].

ويوم أن خرجت العير بقميص يوسف من مصر قال: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف:٩٤].

فردوا عليه رداً سيئًا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾[يوسف:٩٤-٩٥].

يعني: إنك من حبّ يوسف وذكره لفي خطئك وزللك القديم بما تكابد من

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٠٥)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٣٣)، تفسير الخازن (٣/٣٠٧)، تفسير السعدي (ص:٤٠٤)، تفسير الكشاف (٢/٤٦٨)، الشعر والشعراء (ص:١١٥).

(٢) يقال: نشج الباكي ينشج نشيجًا إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

(٣) روى الأثر البخاري معلقًا، وروى البيهقي وعبد الرزاق، وذكر ابن رجب لرواية البخاري روايات أخرى، وقد أثبتنا الجميع في النص. فتح الباري. لابن رجب (٤/٢٤٣).

الأحزان على يوسف، فأنت لا تنساه، ولا تتسلى ولا تفتر ولا تذهل عنه على بعد العهد؛ إذ يقينهم أن يوسف قد مات، ويرون يعقوب قد لهج بذكره!.

غير أن لسان حال يعقوب **يقول** لهم:

لا يَعرِفُ الشَوقَ إِلّا مَن يُكابِدُه وَلا الصَبابَةَ إِلّا مَن يُعانيها

وقول الآخر:

لَا تَعْذلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى تَكُوْنَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

وقول الآخر:

القَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُوْلُ بِدَائِهِ وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ[1].

وعندما أرسل يعقوب أبناءه الحاضرين للبحث عن أبنائه الغائبين لم ينس يوسف عن رتبة التقديم والتسمية حيث قال: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

هكذا ظلت ذكرى يوسف في ذاكرة أبيه المحب لا تخلق ولا تبلى، ولسان حاله:

تَذَكَّرْتُ والذِّكْرَى تُهَيِّجُ ذا الهَوَى ومِنْ عادةِ المَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرا[2].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٦/٢٥٦)، تفسير ابن كثير (٤/٤٠٩)، تفسير البغوي (٤/٢٧٦)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٦٦)، تفسير السراج المنير (٢/١٠٨)، فتح القدير (٣/٧٧)، الدر الفريد وبيت القصيد (٩/١١٤).

(٢) الحماسة البصرية (ص:٣).

المشهد الثاني: تذكر يوسف عليه السلام:

١-تذكره جناية إخوته عليه:

لم يكن الفعل الذي أقدم عليه إخوة يوسف به فعلاً يمكن لذاكرة يوسف نسيانه؛ إذ كان فعلاً قاسيًا من جهة كان يظن فيها الحب والحنو، كما أن تلك الجناية أفقدته ما كان فيه من الهناء، وساقته إلى ما صار إليه من البلاء، قبل أن يخرج من سجنه، فكيف يمكن أن ينسى ماضيه الجميل مع أبيه:

وَكَيْفَ أَنْسَى زَمَانًا قَدْ نَعِمْتُ بِهِ ... وَالحَبْلُ مُتَّصِلٌ وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعُ[١].

وكيف يمكنه نسيان دياره التي ترعرع فيها، وأهله الذين أنس بهم في أرض الشام، وكأنه بمصر يقول عند التذكر:

وكيفَ أنسى دِياراً قد تَركتُ بِها ... أَهْلاً كِراماً لَهُمْ وُدِّي وَإِشْفَاقِي؟

إذا تَذكَّرتُ أيَّاماً بِهِمْ سَلَفتْ ... تَحَدَّرت بِغروبِ الدَّمعِ آماقِي

فَيا بريدَ الصَّبا بَلِّغ ذَوي رَحِمي ... أنِّي مُقيمٌ على عَهدِي ومِيثاقِي[٢].

وكيف يمكن أن لا يبقى أبوه حاضر الذكر لديه وهو المفتون بحبه:

كيفَ السُّلوُّ وكيفَ أنسَى ذكرَهُ ... وإذا دُعيتُ فإنَّما أُدعَى بِهِ[٣].

لذلك لما التقى يوسف بإخوته وأذن الله تعالى له بإظهار نفسه لهم قال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

---

(١) الدر الفريد وبيت القصيد (١٣٨/٩).

(٢) ديوان محمود سامي البارودي (ص:٦٢١).

(٣) الدر الفريد وبيت القصيد (١٣٨/٩).

فقد" ذكرهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التقرير لا التقريع والتوبيخ، كما يدل عليه نفي التثريب والدعاء بالمغفرة"[(١)].

"**يعني**: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه؛ لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجرّ إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم، وتنصحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً؛ إيثاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، وَيَشْتَفِي الْمُغِيظُ الْمُحْنَقُ، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها، وأسجحها، ولله حصى عقولهم ما أرزنها وأرجحها؟"[(٢)].

٢-تذكره حقَّ الله وحق سيده:

فإن يوسف عليه السلام لما دعته امرأة العزيز إلى نفسها امتنع عنها عندما حضره خوف الله، ورعاية حق مولاه في فراشه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[الأعراف:٢٠١].

يعني: "تذكروا أوامر الله ووصاياه، كقوله: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٣٥].أي: تذكروا تذكر ذوي عزم، فلم تتريث نفوسهم أن تبين لها الحق الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية، فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم[(٣)].

---

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٣٣).

(٢) تفسير الكشاف (٢/ ٤٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٤٠٥).

فلهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

٣-تذكره كيدَ النسوة له:

حينما أمر الملك بإخراج يوسف عليه السلام من السجن في المرة الأولى لم يسارع يوسف إلى الإجابة؛ لأن كيد امرأة العزيز وصواحبها لم يزل حاضراً في ذهنه، وكيف ينساه وسنواتُ البلاء التي عاشها في ضيق السجن إنما كانت نتيجة ذلك الكيد.

وإن نسي يوسف فليس ينسى ذلك اليوم الذي رأى فيه نسوة الكيد يقطعن أيديهن دهشًا بحسنه، ثم يتمالأن على عفافه وطهارته.

فلهذا أبى الخروج حتى تنفى عنه التهمة، ويعلم الجميع أن سجنه كان بظلم وعدوان.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

٤- تذكره نعم الله عليه:

طويت صفحة البلاء اليوسفية، وفتحت صفحة النعماء، فغدا يوسف في رياض النعمة عزيزاً سعيداً، قد ذهب عنه عناء ماضيه بكل أطيافه وألوانه، فصار في عز نعمته يتذكر فضل الله عليه بإنجائه من شدة الزمن السالف، وهذه هي حال التقي الصالح؛ فإن سراءه لا تنسيه شكر الله تعالى على الخروج من ضرائه.

فيوم اجتمع بأسرته وحصل تأويل رؤياه قال بلسان الذاكر الشاكر:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ❊ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠٠-١٠١].

المشهد الثالث: تذكّرُ إخوةِ يوسف:

نرى في هذه القصة أن إخوة يوسف لم يلحقهم نسيان في حالهم مع بنيامين في **أمرين**:

الأول: الميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم؛ فإنهم لما صاروا في مصر وأخذ عليهم بنيامين من قبل العزيز تناجوا فيما بينهم ماذا يقولون لأبيهم الذي قد أخذ عليهم العهد على رده، فقال كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[يوسف:٨٠].

فأخذ أخوهم "يذكرهم بالميثاق الذي أخذه يعقوب عليهم لما طلبوا منه أن يرسل معهم بنيامين، كما يذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل"[(١)].

وهم بلا شك ذاكرون لذلك، ولكن أراد من هذا التذكير إعذاره في بقائه في مصر حتى يأتي الفرج.

الثاني: كيفية الدخول إذا وصلوا مصر؛ فإن يعقوب عليه السلام أمرهم أن

(١) تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٧٤)، أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٦٣٨)، في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٢٤).

يدخلوا من أبواب متعددة لا من باب واحد، حيث قال: ﴿يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧].

فلما وصلوا لم ينسوا هذه الوصية الأبوية، بل ذكروها وعملوا بها؛ فدخلوا من أبواب شتى، ولم يدخلوا من باب واحد، **قال** تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾[يوسف:٦٨].

المشهد الرابع: تذكر ساقي الملك يوسفَ عليه السلام:

أوصى يوسف عليه السلام الناجي من الفتيين بأن يذكر مظلمته عند الملك حيث قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢].

ولكن ذلك الناجي نسي ذلك، فلم يذكر يوسف إلا عند حيرة الملك في أمر رؤياه حيث طلب تأويلها فلم يجد عند ملئه من يعبرها، فعند ذلك تذكر ذلك الساقي رؤياه في السجن وتعبير يوسف لها، وكيف وافق تعبيره الواقع الذي صار عليه مع صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[يوسف:٤٥].

والمعنى: فلما ظهر عوص تعبير هذا الحلم تذكر ساقي الملك ما جرى له مع يوسف عليه السلام، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف من ذكر حاجته للملك التي كان سأله عند تعبيره رؤياه أن يذكرها له بقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ

رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢]. فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة طويلة، والأمة: الحين والزمان، وقرأ ابن عباس، وزيد بن علي، والضحاك، وقتادة وغيرهم: بعد أَمَهٍ- بفتح الألف، وتخفيف الميم وفتحها- بمعنى: بعد نسيان، وذكر بعضهم أن العرب تقول من ذلك: "أَمِهَ الرجل يأمَهُ أمَهًا"، إذا نسي.

وقوله: ادكر أصله: واذتكر أبدلت التاء دالاً، وأدغمت الذال فيها فصار ادّكر[1].

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/٧١)، تفسير ابن كثير (٤/٣٩٢)، تفسير البحر المحيط (٥/٣١٣)، تفسير الطبري (١٦/١٢١،١١٩)، تفسير القرطبي (٩/١٠).

المطلب الثاني: النسيان:

التعريف:

لغة:

(نسي) النون والسين والياء أصلانِ صحيحان: يدلُّ أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على تَرْك شيء. وقال بعضهم: الأصل في الباب النِّسيان، وهو عزُوب الشّيء عن النَّفْس بعد حضوره لها.

والنِّسْيان- بكسر النون- ضدّ الذِّكر والحِفظ، نَسِيَه نِسْياً ونِسْياناً ونِسْوةً ونِساوةً ونَساوة: تركه على ذهول وغفلة، أو تركه على عمد، ونسي الأمر أهملته ذاكرته ولم يعه فهو ناسٍ ونسّاء، وهي ناسية ونساءة، وهو وهي نسي أيضًا.

وتناسى الشيء: حاول أن ينساه، وتظاهر أنه نسيه، وأنساه الشيء حمله على تركه أو على نسيانه.

وكل نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى به فهو: ما كان أصله عن تعمد. وما عذر فيه -نحو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)- فهو: ما لم يكن سببه منه[1].

اصطلاحًا:

النسيان هو: ترك الإنسان ضبط ما اُستودِع؛ إما لضعف قلبه؛ وإما عن غفلة؛ وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره.

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٤٢٢)، المعجم الوسيط (٢/٩٢٠)، لسان العرب (١٥/٣٢١).

وقيل: زَوَال الصُّورَة عَن الْقُوَّة المدركة مَعَ بَقَائِهَا فِي الحافظة[١].

نافذة:

إن النسيان صفة من صفات الإنسان التي لا تفارقه، وقد قيل: ما سمي الإنسان بهذا الاسم إلا لذلك؛ **قال** الشاعر:

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِنَسْيِهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

والنسيان حالة من الحالات الدالة على ضعف الإنسان وقصور شأنه، وفي ذلك الضعف نعمة من نعم الله عليه؛ فإن ما يمر بالإنسان من أحداث، وما يدخل ذهنه من معلومات لا يمكن للطاقة البشرية استيعاب كل ذلك من غير ذهاب، ولو بقيت لأدى ذلك إلى حتفه، أو الإضرار به.فاقتضت رحمة الله أن ينسى الإنسان أشياء كثيرة لتستمر حياته وعافيته.

وأما حكم النسيان من الناحية الشرعية: فإن النسيان عذر من الأعذار التي تسقِط الإثم؛ كما قال رسول صلى الله عليه وسلم: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[٢].

هذا في حق الله، أما في حقوق العباد فإنه " ليس عذراً؛ فلو أتلف مال إنسان يجب عليه الضمان؛ جبراً لحق العبد "[٣].

ومن ناحية اللوم وعدمه: فإن الإنسان لا يلام على نسيان شيء لم يكن له يد

(١) مفردات ألفاظ القرآن(٢/٤٢٥)، الكليات (ص:٥٠٦).

(٢) رواه الطبراني، وهو صحيح.

(٣) التقرير والتحبير (٣/٤٧٩).

في الغفلة عنه، لكنه يلام على نسيانه إذا تعمد التلهي عما كان عليه ذكره واستحضاره، وعمل أعمالاً شغلته قصداً عن ذلك الشيء، خاصة إذا كان لذكره حاجة تتعلق بدفع ضر، أو تحصيل مصلحة لإنسان.

وسنرى في قصة يوسف مشاهد للنسيان نتحدث عنها في الآتي:

المشهد الأول: نسيان الناجي من الفتيين وصيةَ يوسف له:

عبر يوسف عليه السلام ما رأى الفتيان، فكان في رؤيا الساقي ما يدل على نجاته، فوصاه بأن يرفع مظلمته إلى الملك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢].

فبعد هذه الجملة من الآية قال تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف:٤٢].

وقد اختلف العلماء في مرجع الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَاهُ﴾: هل يعود إلى الساقي، أو إلى يوسف؟

القول الأول: أنه يعود إلى يوسف عليه السلام، قاله الأكثرون، والمعنى عندهم:

أنسى الشيطان يوسف في ذلك الوقت أن يذكر الله بالاستغاثة به في تفريج كربه، ورجا غيرَه، وأوقع في قلبه الاستغاثة بالمخلوق وهو الملك، وتلك غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان، ونسي لهذا ربّه عزّ وجلّ الذي لو به استغاث لأسرع خلاصه، فعوقب بأن لبث في السجن بضع سنين.

وقد استدل أصحاب هذا القول بالآتي:

أ- جاء عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو لم يقل - يعني: يوسف -الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث.حيث يبتغي الفرج من عند غير الله)[1].

ب-كان الأولى بيوسف أن يتوكل على الله ولا يقول: اذكرني عند ربك، فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين.

ج- لو عادت الهاء على الساقي لدخل الكلام حذف وإضمار؛ لأن التقدير سيكون: فأنساه الشيطان ذكره لربه، ويكون كقوله ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوفكم بأوليائه، وإذا صح المعنى من غير إضمار وحذف، لم يعدل عنه إلى غيره.

د- أن يوسف سمى السيد رباً في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ و ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾.

القول الثاني: أنه يعود إلى الساقي الذي نجا، وهو قول ابن إسحاق ومجاهد، وبعض المحققين من العلماء، والمعنى: نسي الساقي الموصَى ذكر يوسف عند ربه، فأضاف الذكر إلى ربه؛ إذ هو عنده، والرب على هذا التأويل: الملك، أي: أنسى الشرابي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً تعوقه عن الذكر.

ويكون التقدير: فأنساه الشيطانُ ذكره لربه كقوله: ﴿يُخَوِّف أوْلِياءه﴾ أي: يخوّفكم بأوليائه.وكان من جملة مكايد الشيطان؛ لئلا يطلع نبي الله من السجن.

---

(١) رواه الطبراني، وهو ضعيف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك.

واستدل القائلون بهذا القول:

١- أن ذلك مطابق لقوله : ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ والضمير يعود إلى القريب، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

٢- ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه؛ بل كان ذاكراً له، وقد دعا الفتيين قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بالله **وقال** لهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾...الآيات.فبذا يذكر ربه عز وجل؛ فإن هذا مما علمه ربه؛ لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله، وإن كانوا مقرين بالصانع، ولا يؤمنون بالآخرة واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره؛ فذكر ربه ثم دعا الفتيين إلى الإيمان بربه، ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ الآية ثم لما قضى تأويل الرؤيا: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه أي: الذكر المضاف إلى ربه، والمنسوب إليه وهو أن يذكر عنده يوسف.

٣-ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف: قوله بعد ذلك : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[يوسف:٤٥]. فقوله : ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ دليل على أنه كان قد نسي فادكر.

٤-أن هذا من يوسف على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه، وجعله بإذن الله وتقديره سبباً للخلاص كما جاء عن عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، وكما كان رسولنا عليه الصلاة والسلام يطلب من يحرسه.والاستعانة

بالعباد في كشف الشدائد التي يقدرون عليها جائز.

٥- أن الله أراد ليوسف بطول مقامه في السجن إجزال أجره، فحصل نسيان الساقي أمر يوسف لذلك.

وقد ردوا على ما استدل به أصحاب القول الأول بما يأتي:

أ- أن الحديث ضعيف جدا؛ لأن سفيان بن وَكِيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد -هو الخُوزي -أضعف منه أيضًا. وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسَلات هاهنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن.

ب-ليس في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكل، بل قد قال يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ كما أن قول أبيه: ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لم يناقض توكله، بل قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وأيضاً فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصًا مع توكله على غير الله؛ فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركًا لا في عبادته، ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده؟.

وقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مثل قوله لربه: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه فكيف يكون قوله للفتى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ

رَبِّكَ﴾ مناقضًا للتوكل، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس؛ ولهذا بعد أن طلبه الملك وقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ قال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠]. فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك. فلم يكن في قوله له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ترك لواجب، ولا فعل لمحرم، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلمًا له مع علمهم ببراءته من الذنب. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٥]. ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه؛ فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولهذا قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠]. ولو لم يصبر ويتق، بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعًا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس.

ج- أن الناسي غير مؤاخذ، فكيف يعاقب وهو لم يتعمد الفعل؟!.

د- لا ريب أن يوسف سمى السيد ربًا في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ و ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ وهذا كان جائزاً في شرعه، كما جاز في شرعه أن يسجد له أبواه وإخوته، وكما جاز في شرعه أن يؤخذ السارق عبداً، وإن كان هذا منسوخًا في شرع محمد صلى الله عليه وسلم.

الترجيح:

ويبدو أن القول الثاني -وهو عود الضمير إلى الساقي- هو الراجح؛ لما يلي:

١-أن هذا هو المناسب لما ذكر الله تعالى في القصة من الثناء على يوسف، ولم يذكر أنه أذنب ذنبًا فيذكر عتابه له على ذلك؛ فالله سبحانه لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفاراً من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفاحشة؛ فعلم أنه لم يفعل ذنبًا في هذا ولا هذا.

٢-للأدلة والردود التي ذكرها أصحاب القول الثاني [(١)].والعلم عند الله

المشهد الثاني: نسيان إخوة يوسف صورته عليه السلام:

مرت السنون على إخوة يوسف بعد جريرتهم بحق يوسف، فظنوا أن يوسف قد هلك، أو قد بيع فتناقلته أيدي النخاسين والسادة، فأضحى عيشه في ذل العبودية، أو صار إلى أرض بعيدة لا يصلون إليها.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف:٥٨].

فقوله: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي: والحال أنهم منكرون له؛ لنسيانهم له بطول العهد؛ لأنهم فارقوه في سن الحداثة وقد غدا رجلاً ملتحيًا، أو لقلة تأملهم في حاله؛ لشدة هيبتهم إياه، ولم يكونوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٢٠)، الكشف والبيان (٥/ ٢٢٥)، النكت والعيون (٣/ ٤٠)، الوجيز للواحدي (ص:٥٤٧)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٠)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩١)، تفسير البحر المحيط (٥/ ٣١٠)، تفسير البغوي (٤/ ٢٤٤)، تفسير البيضاوي(٣/ ٢٩٠)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١١٥-١١٨)، تفسير القرطبي (٩/ ١٩٦)، زاد المسير (٤/ ٢٢٧)، التفسير البسيط (١٢/ ١٢٢-١٢٣)، مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٢-١١٨).

إليه، أو لأنهم اعتقدوا أنه قد هلك، أو أنه ملك كافر ويوسف مسلم، وقيل: إن العرفان إنما يقع في القلب بخلق الله تعالى له فيه، وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك العرفان في تلك الساعة في قلوبهم؛ تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، فكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام.

فلتباين ما بين حاليه في نفسه ومنزلته وزيه، وكونهم فارقوه صغيراً فكبر، وفقيراً فاستغنى، وباعوه عبداً فصار ملكاً؛ أنكروه.أما هو فعرفهم؛ لكونه لما فارقهم كانوا كباراً، والتغير الذي يطرأ على الكبير ليس كالذي يطرأ على الصغير، أو لأنه سألهم فعرفهم، أو لأن الله أعلمه بذلك.

وقد وقع الإخبار عنهم بالجملة الاسمية ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ للدلالة على أن عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكن منهم، وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد؛ للدلالة على أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل؛ ولهذا قال: ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾. **وقيل**: لما كان إنكارهم له أمراً مستمراً في حالتي المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام إياهم.

وتقديم المجرور بلام التقوية في: ﴿لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ للرعاية على الفاصلة، وللاهتمام بتعلق نكرتهم إياه؛ للتنبيه على أن ذلك من صنع الله تعالى، وإلا فإن شمائل يوسف عليه السلام ليست مما شأنه أن يجهل وينسى[(١)].

---

(١) ينظر: البحر المديد (٣/٣٩٨)، النكت والعيون (٣/٥٤)، الوجيز للواحدي (ص:٥٥١)، تفسير ابن كثير (٤/٣٩٧)، تفسير الخازن (٣/٢٩٥)، تفسير القرطبي (٩/٢٢٠)، روح المعاني (٨/١٣)، التحرير والتنوير (١٢/٨٤)، تفسير أبي السعود (٤/٢٨٨).

المطلب الثالث: تأملات في هذين المتقابلين: الذكر والنسيان في هذه القصة:

١-الظالم ينسى ظلمه ومظلومه، والمظلوم لا ينسى مظلمته وظالمه.

٢-قلب الأب لا ينسى جرحه بولده ولو توالت السنوات، خاصة إذا كان ذلك الجرح عن غدر ومكيده.

٣-تذكير المذنب بذنبه أسلوب حسن يدعو إلى توبة المذنب ومحو ماضيه المظلم.

٤-نزول السراء بعد تولي الضراء لا ينسي المؤمن فضل الله عليه بالفكاك من قبضة تلك الضراء.

٥-الوصايا الأبوية ينبغي أن تكون حاضرة في أذهان الأولاد؛ فإن ذلك من البر والحب للأبوين؛ لأنها ما جاءت إلا عن حرص وطلب للخير من الوالدين لأولادهما.

٦-حياة الترف التي تحل بغير المؤمنين بعد عناء تنسيهم رفقاء العناء، وشركاء البلاء؛ فكم من مترف نسي أصحابه الذين كان يتقاسم معهم حصص المشقة والضر.

الانتقام والعفو

المطلب الأول: الانتقام:

التعريف:

لغة:

يقال: نقم منه نقمًا ونقومًا عاقبه، ونقم الشيءَ أنكره وعابه، يقال: نقمت عليه الأمر، ونقمت منه كذا، وانتقم منه، وانْتَقَمَ اللهُ منه أي: عاقَبَه، والنِّقْمةُ: العقوبة والإنكار، ويقال: لم أَرْضَ منه حتى نَقِمْت وانتَقَمْت إذا كافأَه عقوبةً بما صنَع.

وفي الحديث: (أنه ما انتَقَم لنفسِه قَطّ إلا أن تُنتَهَكَ مَحارِمُ الله)[١] أَي: ما عاقبَ أَحداً على مكروهٍ أتاه من قِبَله[٢].

اصطلاحًا:

من خلال ما سبق يمكن أن يقال: إن الانتقام هو: إنزال العقوبة بمن عمل ما يكره المعاقِب، سواء كان ذلك عدلاً أم ظلمًا.

وهذا التعريف يبين أن الانتقام نوعان: نوع محمود وهو عقوبة من يستحق ذلك؛ كعقوبة الله للمذنبين غير التائبين، قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم:٤٧].

---

(١) متفق عليه.

(٢) المعجم الوسيط (٢/٩٤٩)، لسان العرب (١٢/٥٩٠)، مفردات ألفاظ القرآن(٢/٤٥١).

ونوع مذموم، وهو الانتقام ممن لا جرم له يستحق به تلك العقوبة، وهذا هو مقصودنا في هذه القصة؛ حيث سنذكر مشهدين للانتقام المذموم تضمنتهما قصة يوسف عليه السلام.

المشهد الأول: انتقام إخوة يوسف من يوسف عليه السلام:

كان إخوة يوسف يشعرون بألم نفسي تحترق به بواطنهم يوم يرون أباهم يفضل بالحب يوسف، حتى قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:٨].

فتكون من ذلك الشعور الحسد ليوسف على هذه المنزلة التي احتلها في قلب أبيهم.

ومازال ذلك الحسد ينمو وينمو حتى نبت منه حب الانتقام من يوسف؛ كي يطفئوا بذلك وهج صدورهم المشتعلة بنار الحقد.

فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[يوسف:٩].

هذا هو الرأي الأول" ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[يوسف: ١٠](١).

ففعلوا ما أرادوا من الشر، فجنوا بذلك الانتقام على أنفسهم وعلى رحمهم

(١) تفسير المنار (١٢/٢١٦).

وذوي قرابتهم، وخلفوا عهدهم مع أبيهم.

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَّعُوا الإِلَّ وأَعْرَاقَ الرَّحِمْ.

ولم تمر على تلك النفوس المضطرمة بلهيب الحقد رياح العفو حتى تخمد أوارها ويسكن سعارها؛ لأن الحاقد المنتقم " سماء إذا تغيّم لم يُرج صحوه، وإذا قدر لا ينتظر عفوه، يغضبه الجرم الخفيّ، ولا يرضيه العذر الجليّ، حتّى إنّه ليرى الذّنب وهو أضيق من ظلّ الرّمح، ويعمى عن العذر وهو أبين من نور الصّبح، وهو ذو أذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان، ويحجب بهذه العذر وله برهان، وذو يدين يبسط إحداهما إلى السّفك والسّفح، ويقبض الأخرى عن الحلم والصّفح، فمزحه بين القدّ والقطع، وجِدّه بين السّيف والنّطع، لا يعرف من العقاب إلّا ضرب الرّقاب، ولا من التّأديب غير إراقة الدّماء، ولا من التّأنيب إلّا إزالة النّعماء! "[1].

المشهد الثاني: انتقام امرأة العزيز من يوسف عليه السلام:

حبس يوسفَ عليه السلام خوفُ الله تعالى ثم رعاية سيده عن الاستجابة لمراودة امرأة العزيز، بعد أن حاولت معه، وعملت من وسائل استنزاله من حصن عفافه ما عملت، ولكن لم يعطها بغيتها من نفسه النقية؛ فلذلك أعملت معه أسلوب الانتقام؛ حتى تريح نفسها التي اجتاحها طوفان الغضب؛ لعصيانه لها وهي سيدته، وربة نعمته، فكان من انتقامها:

١-اتهامه بين يدي زوجها، وتوعده على ذلك بالسجن أو العذاب الأليم؛

---

(١) من رسالة للبديع الهمداني يصف ملكاً غشومًا. غرر الخصائص الواضحة (ص:٥٠٤).

حيث قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥].

٢-إكراهه على الظهور في مجمع النسوة اللاتي اجتمعن على كيده، وتوعده بالسجن والصغار إن رفض منعها من نفسه.

٣-إقناع زوجها وذوي الأمر بإدخاله السجن بتهمة مراودته لها.

٤-إدخاله السجن الذي بقي في بلائه بضع سنين.

٥-شيوع اتهامه بمراودة امرأة العزيز؛ إذ استقر لدى الناس أنه ما دخل السجن إلا بذلك.

فبهذه الأعمال "أرادت الانتقام منه؛ شفاء لغيظها من خيبتها، وإهانته لها"(١).

وهكذا انتصرت امرأة العزيز لنفسها الأمارة بالسوء، ولكنها في الحقيقة لم تزد على أن قربت يوسف عليه السلام إلى آخر مرحلة من مراحل البلاء التي سيخرج منها إلى العز والنعماء، فإذا كان انتقام إخوته منه قد وضعه على المرقاة الأولى من معراج علوه، فإن انتقام امرأة العزيز قد رفعه إلى المرقاة الأخيرة.

﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

(١) تفسير المنار (١٢/٢٣١).

المطلب الثاني: العفو:

التعريف:

لغة:

أصل العفو: الطمس والمحو، يقال: عفَت الرياحُ الآثارَ إِذا دَرَسَتْها ومَحَتْها، وعفا عن ذنبه وعنه ذنبه وله ذنبه عفواً؛ لم يعاقبه عليه، وعَفْوُ الله تعالى عن خَلْقه تركُه إيّاهم فلا يعاقبُهم؛ فَضْلاً منه، وكلُّ مَن استحقَّ عُقوبةً فتركْتَه فقد عفوتَ عنه، والعفو: الْإِعْرَاض عَن الْمُؤَاخَذَة على الذنب[1].

اصطلاحًا:

العفو: التَّجاوُزُ عن الذنب، وتَرْكُ العِقابِ عليه[2].

نافذة:

العفو عند المقدرة خلق كريم، وأدب عظيم، لا يقوم إلا في النفوس العلية التي تسامت عن التشفي، ولانت عند استحكام القدرة.

والعفوُ من شيمِ الكرام متى تَرى عفواً لـذي لـؤمٍ إذا هـو يقـدرُ!

وللعفو عند العظماء لذة أعظم من لذة الانتقام؛ فقد قالوا: "لذة العفو أطيب من لذة التشفي؛ لأن لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي يلحقها ذم

(١) المعجم الوسيط .(٢/٦١٢)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٥٦)، لسان العرب (١٥/٧٢)، الكليات (ص:٥٩٨) (ص:٦٣٢).

(٢) لسان العرب (١٥/٧٢).

الندم...وقال الشاعر – وقد نظم هذا المعنى –:

لــذَّةُ العَفْــوِ إنْ نَظَـرْتَ بِعَـيْنِ الــ عَــدْل أشْــفى مِــنْ لَــذَّةِ الإنْتقــامِ
هــذه تُكــسِبُ المَحامِــدَ والأجْــ رَ وهـــذه تَجـــيءُ بالآثـــامِ"[1].

وقال المأمون: "إني لأجد لعفوي لذة أعظم من لذة الانتقام"[2].

"وحكي أن عبد الملك بن مروان نقم على رجل ذنباً، فهرب منه، فلما ظفر به هم بقتله، فقال له الرجل: إن الله قد فعل ما أحببت من الظفر، فافعل ما يحبه من العفو؛ فإن الانتقام عدل، والتجاوز فضل والله يحب المحسنين، فعفا عنه"[3].

وفي هذه القصة المباركة سنجد النبيين الكريمين: يعقوب وابنه يوسف يتربعان على قُنَّة العفو عن ذنوب من جنى عليهما، وفرق بينهما، وأذاقهما من آلام الأحزان، وحُرق الأشواق ما قد زخرت بالحكاية عن بعضه الآياتُ الكريمات.

أولاً: عفو يعقوب عليه السلام:

جاء قميص الفرح إلى يعقوب فمحا حزن قلبه، وأزاح الغشاوة عن نور عينيه، وعند ذلك أتاه أبناؤه المسيؤون إليه يمشون على طريق الاعتذار، ويجرون إليه ثوب الندامة والاستغفار، فطلبوا منه العفو عن ماضيهم الملطخ بالعقوق.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩٧].

فقال أبوهم العفوُّ الكريم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

(١) الذخائر والعبقريات (٢/ ١١١).
(٢) سراج الملوك (ص:٦٢).
(٣) غرر الخصائص الواضحة (ص:٢٠٧).

الرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٨].

ونلاحظ في هذا الجواب من يعقوب عليه السلام أنه لم يبادر بالدعاء لهم بالمغفرة كما بادر بها يوسف في قوله تعالى: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

وقد" أجاب السيد محمد رشيد رضا في تفسيره الخاص بسورة يوسف بما خلاصته: أن حال يوسف مع إخوته هي حال الحاكم القادر، بل الملك القاهر مع المسيء إليه الضعيف لديه، الذي كبرت إساءته فاستحيا من طلب غفرانها، فتبرع أخوهم بغفرانها تأميناً لهم من خوف الانتقام، وكان قادراً عليه، وتعجيلاً لهم بسرور الحياة التي جعل الله أزمتها في يديه، فكان المثل الأعلى في حسن الأسوة، وما ينبغي أن يكون عليه الإخوة، وأما حال أبيهم معهم فإنها حال المربي المرشد للمذنب الذي لا يخشى منه انتقامًا، وليس من حسن التربية أن يريهم أن ذنبهم هين لديه، فليس بينهم وبين غفرانه لهم إلا كلمة يقولونها بألسنتهم، على أن ذنبهم كان موجهًا إليه وإلى يوسف وأخيه، فمن العدل أن يكون استغفاره لهم بعد علمه بحالهم مع أخويهم، ولم يكن على علم بعفو يوسف عنهم، ثم إن ذنوبهم من الذنوب العظام التي طال عليها الأمد، والتي لا تغفر -بحسب شرع الله وسنته- إلا بتوبة نصوح تجدد حياتهم"(١).

وهناك أسباب أخرى ذكرها العلماء سيأتي ذكرها في الأزمنة والأمكنة، إن شاء الله.

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (٥/٣٨٣).

ثانيًا: عفو يوسف عليه السلام:

طوى يوسف صفحة البلاء بخروجه من السجن، وفتح صفحة النعماء، فكان في الأولى مؤمنًا صابراً، وفي الثانية تقيًا كريمًا شاكراً، فازداد خيراً إلى خيره، وبراً إلى بره.

فجاء جدب السنين بإخوته إليه ممتارين محتاجين فمد إليهم رداء كرمه وعفوه، وفضله وإحسانه.

فلم يغره سلطانه فينتقم ممن فرق بينه وبين أبيه، وألقاه في البئر، وصيره إلى حياة الرق سنين عدداً، لكنه تزيا -مع كل ذلك- بالعفو، وكره لباس الانتقام.

"**قال** بعض الحكماء: التزين بالعفو خير من التقبح بالانتقام"[1].

فكان يوسفُ العفوِ يومَ القدرةِ:

مستفيضَ الندى كريمَ السجايا   عاجلَ العفو آجلَ الإنتقام[2].

ولننظر إلى عفو يوسف عليه السلام مشهداً مشهداً:

مشهد العفو الأول:

جاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم لم يعرفوه، فأكرمهم وأحسن ضيافتهم، وملأ أوعيتهم بالطعام الذي يحتاجون، ولم يصنع بهم شيئًا من العتاب أو العقاب.

(١) غرر الخصائص الواضحة (ص:٥٠٤).

(٢) يتيمة الدهر (١/٣٥٤).

مشهد العفو الثاني:

لما رجعوا إليه، وحصلت حيلة إبقاء بنيامين قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:٧٧].

في هذه اللحظة التي هم فيها بين يديه، وأمرهم إليه يتهمونه ظلماً بالسرقة دون أن يشعروا بأنه يوسف؛ ليدل على الحقد المتأصل في نفوسهم عليه، لكن يوسف عليه السلام ما عاقبهم، أو أساء إليهم بالقول رداً على إساءتهم، بل حلم عنهم، وعفا وكتم.

فقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي: إجابتهم عن هذه القولة القبيحة، على تمكنه مما يريد بهم من الانتقام.

وإجابته هي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ يريد: أنتم شر منزلاً عند الله ممن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف؛ لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية، وخيانتكم حقيقة[١].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما تصفون، وهذا إشارة إلى كذبهم فيما نسبوا إليه من السرقة[٢].

مشهد العفو الثالث:

وفد إخوة يوسف على يوسف مرة أخرى مسترحمين طالبين منه أن يمن

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٠/١٧٩)، تفسير البغوي (٤/٢٦٤).

(٢) تفسير البيضاوي(٣/٣٠٢)، البحر المديد.(٣/٤١٠).

عليهم بالطعام، وهم يشعرون بالخزي بعدما جرى في موقف بنيامين ما جرى، لكن الحاجة ألجأتهم للعودة إليه؛ إذ لم يجدوا غيره من الناس يكفيهم المؤونة في هذه السنوات الشهباء.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].

فرقَّ لهم إذ رآهم على هذه الحال من المسكنة والحاجة، فتعرف إليهم بإذن الله له بذلك، حيث قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

أي: هل علمتم قبحه فتبتم عنه، وفعلهم بيوسف معروف، وفعلهم بأخيه: حسده وإفراده عن يوسف وإذلاله، وفعلتم ذلك حينما كنتم جاهلين بقبحه؛ فلذلك أقدمتم على ذلك أو كنتم جاهلين عاقبته، وإنما قاله نصحًا لهم، وتحريضًا على التوبة، وشفقة عليهم؛ لما رأى عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبًا[١].

فقالوا متعجبين من حاله وبقائه ومصيره إلى هذه الحال من العز: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾، فأجابهم بلسان الشاكر المعترف بفضل الله، لا بلسان المتكبر المعاتب: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

يقول: نعم، أنا يوسف الذي حسدتموه فألقيتموه في البئر؛ تلخصًا منه، وهذا

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٠٣)، البحر المحيط (٥/٢٧٩)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٦٢)، تفسير البيضاوي (٣/٣٠٦).

أخـي محـسودكم الثـاني الـذي أذليتمـوه وآذيتمـوه، قـد مَـنّ الله علينـا بالـسلامة والكرامة والعز، والجمع بعد الفرقة والخوف والإهانة والذل.

"فيوسف – عليه السلام – اتقى الله وصبر، وبنيامين صبر ولم يعص الله، فكان تقيًا. أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر؛ تعريضًا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه، ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم"[1].

وفي هـذه اللحظـات الحرجة لم يـسع إخـوةَ يوسـف إلا أن يعترفـوا ليوسـف بالفـضل، ولهـم بالخطـأ حيـث قـالوا: ﴿تَـاللَّهِ لَقَـدْ آثَـرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَـا وَإِنْ كُنَّـا لَخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩١].

يقولـون: لقـد فـضلك الله علينـا بالملـك، أو بالـصبر والعلـم، أو بـالحلم والصفح، أو بحسن الخلق والخلق، والإحسان، والملك والسلطان، وبصبرك على أذانـا، أو بـالتقوى، وسـيرة المحـسنين. وخطـابهم إيـاه بـذلك اسـتنزال لإحـسانه، واعـتراف بـما صـدر مـنهم في حقـه ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، ومـا كنـا في فعلنـا الـذي فعلنا بك في تفريقنا بينك وبين أبيك وأخيك وغير ذلك من صنيعنا الذي صنعنا بك إلا مذنبين آثمين[2].

كـان ليوسـف الحق أن يعـاقبهم على جنايتهـم – وهـو منطـق العدل والحـق –، لكنه أراد درجة الفضل التي هي ألذ وأعلى.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١١٣).

(٢) تفسير الطبري (١٦/٢٤٥)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٣٨)

رأى مجاشع بن ربعي قومًا يتآمرون في الانتقام من رجل فقال لهم: هل لكم في الحق، أو فيما هو خير من الحق؟ قالوا: قد عرفنا الحق، فما الذي هو خير منه؟ قال: العفو؛ فإن الحق مُرٌّ(١).

فلذلك جرى في هذه الأثناء أن يوسف أثلج صدور إخوته بتلك الكلمة الخالدة في جبين الكرم والفضل، فأعلن موقفه النهائي من ماضيهم معه، فقال لهم بلسان العفوِّ المقتدِر: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

يعني: قال يوسف بعد هذا الاعتذار والتوبة معلنًا الصفح والعفو عنهم: لا لوم ولا توبيخ ولا تعيير عليكم فيما صنعتم، ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحقّ الأخوة، ولكن لكم عندي العفو. ولما أعفاهم من التثريب كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى، فأتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يغفر الله لكم ذنوبكم وظلمكم، وهو أرحم الراحمين لمن تاب إليه وأناب إلى طاعته. وهذا مثل عالٍ في العفو الجميل والصفح الكريم. وهذا دعاء من يوسف لإخوته بأن يغفر الله لهم ذنبهم فيما أتوا إليه وركبوا منه من الظلم، يقول: عفا الله لكم عن ذنبكم وظلمكم، فستره عليكم(٢).

إن عفو يوسف عليه السلام عن إخوته لم يقف عند هذا الحد، بل أتبعه بإحسان، وما أجمل العفو والإحسان إذا اجتمعا؛ فلذلك نلاحظ أنه عدد وجوه

---

(١) جمهرة الأمثال/العسكري (١/ ٦٤).

(٢) ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١١٣٢)، تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٧)، السراج المنير (٢/ ١٣٤).

إحسانه إليهم بعد العفو عنهم، فكان منها:

١-الدعاء لهم بالمغفرة.

٢-الإسراع بإرساهم إلى أبيه بقميصه ليفرحوه، ويأتوا بأهلهم أجمعين.

٣-حسن اعترافه بنعمة الله عليه أمام أبويه وإخوته من غير أن يجرح مشاعرهم فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

فما أعظم هذا العفو بعد أن ذاق يوسف من صروف البلاء ما ذاق!.وقد ذكر بعض العلماء أن الله وصف قصة يوسف بأحسن القصص لاشتمالها على أمور منها:

حسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وإغضاؤه عند الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم بعد التمكن من الانتقام(١).

وإن نسينا فلن ننسى عفو يوسف عن امرأة العزيز، وعفوه عن الساقي؛ إذ لم يعنفه على نسيانه وصيتَه.

(١) الكشف والبيان(٥/١٩٧)، التفسير المظهري (٥/١٣٥).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الانتقام والعفو في قصة يوسف عليه السلام:

١-إذا هبت عليك رياح الانتقام الجائر، وصرصرت في هبوبها نحوك فقد تحمل إليك حبوب لقاح أمانيك من غير تعب منك، فكم من منتقم أهدى لمن انتقم منه سُلّم بلوغ الآمال!.

٢-يظن المنتقم الظالم أنه انتصر، وإنما انتصر عليه هواه وشيطانه، وأما نفسه المخدوعة فستعرف أنها لم تظفر بغير الخسارة.

يحكى عن عنان بن خريم أنه دخل على المنصور، وقد قدم بين يديه جماعة كانوا قد خرجوا عليه ليقتلهم، فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين، من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، ومن شفى غيظه وأخذ حقه لم يجب شكره، ولم يحسن في العالمين ذِكره، وإنك إن انتقمت فقد انتصفت، وإذا عفوت فقد تفضلت، على أن إقالتك عثارَ عبادِ الله موجبةٌ لإقالته عثرتك، وعفوك عنهم موصول بعفوه عنك؛ فقبل قوله، وعفا عنهم[١].

٣-حب يوسف كان طريقَ الانتقام منه في المشهدين؛ فزيادة حبه في قلب أبيه أغرى إخوته للانتقام منه، وزيادة حب جماله في قلب امرأة العزيز من غير أن ترتشف من ريقه ألقى به في شبكة نقمتها.

٤-ما أجمل تلك اللحظات التي سكبت فيها كلمات العفو اليوسفية على آذان إخوته الذين كانوا ينتظرون ماذا سيصنع بهم من صنوف النقمة، وأي عقوبة كان

(١) غرر الخصائص الواضحة (ص:٥٠٣).

سيختارها لهم لتناسب جرمهم، لكنهم فوجئوا بعبارات أعادت إليهم الحياة بعد أن تفرقت شَعاعًا بين أنواع العقوبات المتوقعة، في تلك اللحظات التي انتصر فيها العفو على الانتقام، والمظلوم على الظالم بصفحه عنه، والصلة على القطيعة، والرحمة على القسوة؛ امتلأت قلوب إخوة يوسف سعادة وتعظيمًا، وحبًا ليوسف العفوِ اليوم، بعد أن كان يوسف البغضِ لديهم في الأمس.

٥-انظر كيف تخلى إخوة يوسف عن أخيهم يوم أُتهم؛ فلم يلتمسوا له عذراً أو يحققوا في المسألة، بل جاء الموقف إذكاء لحقدهم الكامن عليه وعلى أخيه.

٦-رعاية مشاعر الناس من صفات الكرماء، فتأمل كيف راعى يوسف مشاعر إخوته في يوم العز، فقد قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾[يوسف:١٠٠].

فلم يذكر الجب؛ لئلا يخجل إخوته، ولما فيه من التعريض بالتوبيخ، ولأنه خرج من الجب إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فألمّ بما جرى بينه وبين إخوته إجمالاً؛ اقتصاراً على شكر النعمة، وإعراضًا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته، فمر بها مر الكرام، وباعدها عنهم بقدر الإمكان؛ إذ ناطها بنزغ الشيطان(١).

وقال السعدي: "وهذا من لطفه، وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب؛ لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.فلم يقل جاء بكم من

(١) البحر المديد(٣/٤٢٥)، النكت والعيون (٣/٨٣)، التحرير والتنوير (١٢/١٢٠).

الجوع والنصب، ولا قال: "أحسن بكم"، بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه.

فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، وقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فلم يقل: "نزغ الشيطان إخوتي" بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين"[١].

(١) تفسير السعدي (ص:٤٠٥).

الإساءة والإحسان

المطلب الأول: الإساءة:

التعريف:

لغة:

يقال: أَساءَ الرجلُ إساءَةً: خلافُ أَحسَن، وأَساءَ إِلَيْهِ: نَقِيضُ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، **قال** عز مِن قائل: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُم لأَنفسِكمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، والسُّوأَى: خِلَافُ الحُسْنَى، **قال** الشاعر:

أَسِيئِي بِنا، أَوْ أَحْسِنِي، لَا مَلُومَةٌ		لَدَيْنا، وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ

وأساء فلان: أتى بسيء، وأساء الشيء أفسده ولم يحسن عمله، وألحق به ما يشينه ويضره[1].

اصطلاحًا:

الإساءة: فعل ما لا ينبغي فعله مما يعود بالضرر على الفاعل أو على غيره.

نافذة:

إن الإساءة عمل رديء، يدفع إليها تحرك الشر داخل النفس الإنسانية، فتنزع حينئذ إلى ارتكاب ذلك الضرر الذي قد يكون قاصراً أو متعديًا؛ فإذا كان يتعلق

(١) المعجم الوسيط (١/٤٥٩-٤٦٠)، لسان العرب (١/٩٥)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/٥٦)، لسان العرب (١/٩٦- ٩٧).

بنفس المسيء من عمل الخطايا واقتراف السيئات فهو ضرر قاصر، وإذا كان يتعلق بأذية الخلق، وإلحاق السوء بهم فهو ضرر متعد.

والمسلم الحق هو الذي يسلم نفسه من النوعين؛ حتى يسلم من عواقب السوء في دنياه وأخراه.

ومن أعظم الإساءة المتعدية: الإساءة إلى الأقارب وذوي الإحسان؛ فإن ذلك يدل على خبث النفوس المسيئة، وجحودها للمعروف، وتناسيها لرابطة القربى، وحق الواشجة المشتركة.

وفي قصة يوسف عليه السلام سنرى أنواعًا من الإساءة على النحو الآتي:

أولاً: الإساءة إلى الأب:

إن الأب منهل الإحسان البشري إلى أولاده، فهو يبذل ما يستطيع من الجهود التي تبعد عنهم السوء والأذى؛ ولهذا أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[البقرة:٨٣] [النساء:٣٦] [الأنعام:١٥١] [الإسراء:٢٣].

وهذا " أمر بالإحسان إليهما فيفيد النهي عن ضده: وهو الإساءة إلى الوالدين، وبذلك الاعتبار وقع هنا في عداد ما حرم الله؛ لأن المحرم هو الإساءة للوالدين، وإنما عدل عن النهي عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان؛ اعتناء بالوالدين؛ لأن الله أراد برهما، والبر إحسان، والأمر به يتضمن النهي عن الإساءة إليهما بطريق فحوى الخطاب، وقد كان كثير من العرب في جاهليتهم أهل جلافة، فكان الأولاد لا يوقرون آباءهم إذا أضعفهم الكبر؛ فلذلك كثرت وصاية

القرآن بالإحسان بالوالدين "[1].

ولكن حينما يغلب الهوى على النفس لم تعد تراعي حق ذي الحق؛ فإخوة يوسف عندما أرادوا شفاء غليلهم من يوسف؛ أقدموا على ما أقدموا عليه دون أن يفكروا في الإساءة التي سيلحقونها بأبيهم جراء ذلك الفعل المشين.

لقد نفذوا مأربهم فنتج عن إساءتهم: حزن أبيهم الطويل، وتنغيص عيشه، وكثرة بكائه، حتى ذهب نور بصره، ولحقه من الآلام ما لحقه.

ثانيًا: الإساءة إلى الأخ:

لم يكن يوسف عليه السلام ذا ذنب يستحق عليه الإساءة، ولم يكن لدى إخوته رحمة تحول بينهم وبين الإضرار به من غير ذنب جنته يداه، غير أن النعمة في عين الحاسد ذنب لا يغتفر إلا بالانتقام من صاحبها.

ولقد كانت إساءة إخوة يوسف نحو يوسف:

١-حسده وبغضه.

٢-إلقاؤه في البئر.

٣-التفريق بينه وبين أبويه.

٤-ما نتج عن ذلك من بلايا ليوسف.

٥-اتهامه بالسرقة.

وفي جلسة الاعتراف والاعتذار بين يدي يوسف عليه السلام اعترفوا

(١) التحرير والتنوير (٧/١١٨).

بإساءتهم كما قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩١].

" أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضًا -على قول من لم يجعلهم أنبياء - وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه "[١].

ثالثًا: الإساءة باتهام البريء:

وهذه إساءة أخرى تلقاها يوسف عليه السلام من امرأة العزيز التي أرادت منه ما حرم الله تعالى، فلما منعها ذلك ألقت عليه التهمة بمراودتها، قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف:٢٥].

وهي في هذه الإساءة كما قال العرب: "رَمَتْنِي بِدَائِهَا وانْسَلَّتْ"[٢]، حيث رمت بذنبها على يوسف، ونسبت عيبها إليه؛ تخلصًا من سخط زوجها عليها.

فهي مسيئة في صورة البريئة، حينما جعلت يوسف المحسن إليها وإلى زوجها بعفافه وتمنعه؛ هو المراود لها!

وَأَجرَأُ مَن رأَيتُ بظَهرِ غَيبٍ		عَلَى عَيبِ الرّجالِ ذَوُو العُيُوبِ

(١) تفسير السعدي (ص:٤٠٤)، تفسير ابن كثير (٤/٤٠٨).

(٢) مجمع الأمثال (١/٢٨٦).

وقال الآخر:

يَـرُوْمُ أَذَى الأَحْـرَارِ كُـلُّ مُـلأَّمٍ[1] وَيَنْطِقُ بِالعَوْرَاءِ مَنْ كَانَ مُعْوِرَا[2].

وقد نتج عن هذه الإساءة إلى يوسف: إساءات كثيرة كان أبرزها: إدخاله السجن؛ بناءً على تلك التهمة التي هو بريء من مضمونها كما برئ الذئب من دمه.

---

(١) رَجُلٌ مُلأَّمٌ -كَمُعَظَّمٍ-: مَنْسُوبٌ إلى اللُّؤْمِ.

(٢) الدر الفريد وبيت القصيد (٩/ ٥٠٥).

المطلب الثاني: الإحسان:

التعريف:

لغة:

يقال: أحسن: فَعلَ ما هو حسن، وأحسن الشيء أجاد صنعه، وحسن الشيء حسنًا جمُل، فهو حسن. والحَسن: عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه، والحُسْنى ضدُّ السُّوأَى، والمَحاسنُ في الأَعمال ضدُّ المَساوئ، وأَحسَنَ به الظنَّ نقيضُ أَساءَه.

والفرق بين الإحسان والإنعام: أَن الإحسانَ يكون لنفسِ الإنسان ولغيره تقول: أَحْسَنْتُ إلى نفسي، والإنعامُ لا يكون إلا لغيره.

والإحسان يقال على **وجهين**: **أحدهما**: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملاً حسناً. والْإِحْسَان: هُوَ فعل مَا ينفع غَيره بِحَيْثُ يصير الْغَيْر حسنًا بِهِ؛ كإطعام الجائع، أَو يصير الْفَاعِل بِهِ حسنًا بِنَفسِهِ؛ **فعلى الأول**: الْهمزَة فِي أحسن للتعدية، **وعَلى الثَّانِي**: للصيرورة. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[النحل:٩٠]، فالإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو: أن يعطي ما عليه، ويأخذ أقل مما له، والإحسان: أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع[(١)].

---

(١) المعجم الوسيط(١/١٧٤)، لسان العرب (١٣/١١٤)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٢٣٤- ٢٣٦)، الكليات (ص:٥٣).

اصطلاحاً:

الإحسان هو: فعل الإنسان ما ينبغي فعله من الخير لنفسه أو لغيره[1].

نافذة:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:٩٠].

هذه آية واحدة من الآيات التي تدل على فضل الإحسان، ومن تتبع آيات القرآن الكريم سيجد حديث القرآن العزيز عن فضيلة الإحسان حديثاً كثيراً؛ ترغيبًا فيه، وتحذيراً من ضده؛ فقد تحدث القرآن العظيم عن الأمر به والحث عليه، ودعوة الناس إليه، وذكر أعمال الإحسان وخصاله، ووعد المحسنين بالبشارة والزيادة، والمحبة والثواب والجنة.وهذا فضل عظيم وخير كثير يغتنمه الإنسان من عبادة الإحسان.

إن الإحسان عمل عظيم ينتج عن النفوس السليمة التي يتحرك فيها الخير، ليتجه إلى جهات كثيرة؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء)[2].

فإتقان عبادة الله وأداء حقه كما ينبغي إحسان، ومجاهدة النفس على لزوم الحق، وإعطاء ما للناس عليها للخلق إحسان، وإسداء المعروف للناس، وكف الإساءة عنهم إحسان.

---

(١) التعريفات (ص:٢٧)، الكليات (ص:٥٣).

(٢) رواه مسلم.

وسنرى في هذه القصة المباركة صوراً للإحسان وأعمالاً للمحسنين نتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولاً: صيغ ورود لفظ الإحسان في قصة يوسف:

ورد ذكر هذا اللفظ على صيغتين: الفعلية والاسمية:

ففي صيغة الفعلية جاء في قالب الفعل الماضي على صورة واحدة في آيتين:

قوله تعالى:﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[يوسف:٢٣].

وقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾[يوسف:١٠٠].

ويلاحظ على هذا الفعل الماضي المزيد بحرف أنه قد جاء في الآية الأولى متعديًا بنفسه، وفي الآية الثانية متعديًا بالباء، وهذا الفعل في أصله لازم، ولكن لما دخلت عليه همزة النقل نقلته إلى التعدي، وأكسبته في الآية الأولى مفعولاً واحداً. وأما في الآية الثانية فتعديه بالباء فيه ثلاثة أقوال:

أ- يجوز أن يتعدى هذا الفعل بالباء كما يتعدى باللام، فيقال: أحسن بي وأحسن إلي، كما يقال: أساء إليه وبه، قال كُثيِّر:

أَسِيئِي بِنا، أَوْ أَحْسِنِي، لَا مَلُومةٌ لَدَيْنا، وَلَا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ

ب-أنه من باب نيابة الحروف فالباء بمعنى اللام.

٣- أن الفعل أحسن ضُمِّن معنى لطف، ولطف يتعدى بالباء[1].

وفي صيغة الاسمية جاء لفظ الإحسان في قالب اسم الفاعل المجموع في خمس آيات:

---

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص:١٤٣)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٤٢)، التحرير والتنوير (١٢/١١٩).

١ -﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

٢ -﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٣٦].

٣- ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦].

٤ -﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨].

٥ -﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

ونلاحظ في هذا الورود ما يأتي:

أ-جاء الوصف بالإحسان في الآيات الخمس في حق يوسف عليه السلام تصريحًا وتلميحًا، وهذا يبين مدى ما وصل إليه يوسف من الإحسان العظيم عند الله وعند خلقه.

ب-تكرر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ مرتين: على لسان الفتيين، وعلى لسان إخوة يوسف، وتكرر قوله: ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بنفي إضاعته مرتين: الأولى من قبل الله، والثانية من قبل يوسف.

ج- الآيـات: الأولى، والثالثـة والخامـسة، وردت في بيـان ثـواب المحـسنين وعدم ضياعه، والآيتان: الثانية والرابعة جاءتا في الثناء على يوسف؛ لطلب خيره.

ثانيًا: المحسنون في قصة يوسف:

١-الله جل جلاله:

لقد تحدث يوسف معترفًا بنعم الله عليه، وذكر أن ذلك حصل بإحسان الله إليه، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

فالإحسان هو الإخراج من السجن بعد أن ابتلي به وبها عُطف عليه، وخص من إحسان الله إليه إحسانين هما: يوم أخرجه من السجن، ومجيء عشيرته من البادية.

ومن الإحسان الخفي: ما يؤذن به قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ ففيه فائدة لا تخفى، أي: لطف بي محسنًا إلي غير هذا الإحسان.

و ﴿إذ﴾ ظرف زمان لفعل ﴿أَحْسَنَ﴾ فهي بإضافتها إلى ذلك الفعل اقتضت وقوع إحسان غير معدود؛ فإن ذلك الوقت كان زمن ثبوت براءته من الإثم الذي رمته به امرأة العزيز، وتلك منّة، وزمن خلاصه من السجن؛ فإن السجن عذاب النفس بالانفصال عن الأصدقاء والأحبة، وبخلطة من لا يشاكلونه، وبشغله عن خلوة نفسه بتلقي الآداب الإلهية، وكان أيضًا زمن إقبال

الملك عليه.وأما مجيء أهله فزوال ألم نفساني بوحشته في الانفراد عن قرابته وشوقه إلى لقائهم، فأفصح بذكر خروجه من السجن، ومجيء أهله من البدو إلى حيث هو مكين قوي[١].

٢- يوسف عليه السلام:

لقد جمع يوسف الإحسان بنوعيه؛ فقد أحسن في عبادة ربه، وأحسن إلى خلقه: أحسن إلى أبويه، وأحسن إلى إخوته، وجميع آل يعقوب، وأحسن إلى العزيز، وأحسن إلى امرأته وإن كان في الظاهر أساء إلى مشاعرها الجامحة عن الحق، لكن ترك الاستجابة لها إحسان إليها، وأحسن إلى صاحبيه في السجن، وأحسن إلى الملك؛ إذ ضبط له أمر شعبه في وقت المجاعة، وأحسن إلى الناس بتأمين شأنهم المعيشي.

وستتحدث عن ذلك في التفصيل الآتي:

أ- إحسان يوسف في عبادة الله تعالى:

فقد كان يوسف عليه السلام في غاية الإحسان في عبادة ربه؛ ولهذا أثنى الله عليه بوصف الإحسان، وبيّن أن ما أعطاه كان جزاء إحسانه. **ومن عباداته التي أحسن فيها**: الصبر والتقوى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

(١) تفسير أبي السعود (٤/٣٠٧)، تفسير الطبري (١٦/٢٧٥)، روح المعاني (١٣/٥٩)، التحرير والتنوير (١٢/١١٩).

أي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: جعلناه نبيًا رسولاً وعالمًا ربانياً ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علمًا نافعًا.

ودل هذا على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير، والنبوة.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: الصابرين والمهتدين أي: إنه كان محسنًا في عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى.يقول تعالى ذكره: وكما جزيت يوسف فآتيته بطاعته إيّاي الحكمَ والعلمَ، ومكنته في الأرض، واستنقذته من أيدي إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصيّ.

وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له، وتنبيه على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله، متقياً في عنفوان أمره، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وفي ذكر ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة(١).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٣٩٥)، تفسير ابن كثير (٤/٣٧٨)، تفسير البغوي (٤/٢٢٧)، تفسير الطبري (١٥/٢٣)، تفسير أبي السعود (٤/٢٦٤)، التحرير والتنوير (١٢/٤٤).

عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

فقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الصابرين في بلائه، القائمين بطاعته؛ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فمن يخف الله وعقابه وَيَصْبِرْ عن المعاصي وعلى الطاعات؛ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير؛ لاشتماله على المتقين والصابرين(١).

ب- إحسان يوسف إلى أبويه:

وكان ذلك **بأمور**:

١-التعجيل بإسعاد أبيه قبل لقائه به، وذلك بإرسال قميص الفرح إليه ليرتد إليه بصره، قال تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾[يوسف:٩٣].

٢-استقبال أبويه وضمهما والاعتناء بهما عناية خاصة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩].

٣-إجلاسهما على سرير ملكه؛ إكرامًا لهما، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾[يوسف:١٠٠].

وهناك وجوه من إحسانه إلى أبويه يشتركان فيها مع إخوته.

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤٠٤)، تفسير الكشاف(٢/٤٧٣).

ج- إحسان يوسف إلى إخوته وأسرته:

فقد شهد له إخوته بالإحسان إليهم وإلى غيرهم قبل أن يعرفوه، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨].

فقد وصفوه بما شاهدوا من إحسانه لهم ولغيرهم، يعني نراك من المحسنين في أفعالك كلها، **وقيل**: من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة، ورد البضاعة إلينا، فأتم إحسانك بهذه التتمة، ولا تغير عادة إحسانك؛ فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أباً شيخًا كبيراً[(١)].

فمن وجوه إحسانه إليهم:

١ -حسن استقبالهم وضيافتهم وإكرامهم بالطعام، ورد دراهمهم إليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[يوسف:٥٩].

فقوله: "﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ جملة حالية، أي: ألا ترون أني أوفي الكيل لكم إيفاء مستمراً، والحال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وقد كان الأمر كذلك. وتخصيص الرؤية بالإيفاء؛ لوقوع الخطاب في أثنائه، وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمراً فيما سبق ولحق؛ ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية، ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به"[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٢٩٩)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٣٠)، تفسير الخازن (٣/٣٠٥)، التحرير والتنوير (١٢/١٠٣).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/٢٨٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[يوسف:٦٥].وقد ذكر بعض المفسرين أسبابًا لوضع دراهمهم التي أخذوا بها الطعام في متاعهم، فمن ذلك:

أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم، وطلبه له لمزيد الإكرام، فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه، وأراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم في رحالهم؛ حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم، وأراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم(١).

٢-العفو عنهم والدعاء لهم، قال تعالى: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

"أي: لا أثرِّب عليكم، ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحًا تامًا، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق، وخيار المصطفَين"(٢).

٣-الإتيان بهم من البدو إلى مصر، قال تعالى: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣].

٤-إكرامهم عند الدخول إلى مصر، وإشراكهم في عزه وغناه وملكه، قال

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب(١٨/١٣٥).
(٢) تفسير السعدي (ص:٤٠٤).

تعالى: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[يوسف:٩٩].

٥-إكرام بنيامين وتطمينه والعناية الخاصة به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:٦٩]

د- إحسان يوسف إلى العزيز:

كان إحسانه إليه: بحفظه لأهله من قبول المراودة، وكان ذلك خوفًا من الله، ورداً لإحسان العزيز إليه، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

يعني: إنه سيدي الذي اشتراني أحسن إكرامي فلم أكن لأفعل بامرأته ذلك، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة.وفي هذه الآية دليل أن معرفة الإحسان واجب؛ لأن يوسف امتنع عنها لأجل شيئين: لأجل المعصية والظلم، ولأجل إحسان الزوج إليه(١).

هـ-إحسان يوسف إلى الفتيين:

فقد شهدا له بالإحسان على عمومه، أو في خصوص تعبير الرؤى، **قال** تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٣٦].

---

(١) بحر العلوم (٢/١٨٧)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/ ٩١).

فقـد قيـل: إن هـذين الفتيـين توسـما مـن يوسـف عليـه الـسلام كـمال العقـل والفهم، فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا، ولم يكونا علما منه ذلك من قبل، وقد صادفا الـصواب؛ ولـذلك قـالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم.

وقيل: من المحسنين من الـذين يجيدون عبارة الرؤيا؛ لمـا رأياه يقـص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلاً حسنًا، أو من العلماء؛ لمـا سمعاه يذكر للناس مـا يدل على علمه وفضله، أو من المحسنين إلى أهل السجن أي: فأحسن إلينا بكشف غمتنا إن كنت قادراً على ذلك.

وقيل: إن وجه ذلك أنهما قالا لـه: نبئنا بتأويل رؤيانا محسنًا إلينا في إخبارك إيانا بذلك، كما نراك تحسن في سائر أفعالك[1].

ز-إحسان يوسف إلى الملك:

فقد أعانه في استقرار دولته، وتأمين حياة شعبه، وذلك بتدبيره الاقتصادي الحكيم الـذي ألهمـه الله إيـاه، فعـاش النـاس تحت ولايتـه في سنوات الجدب في كفاية لم تصل بهم إلى حد الهلاك من الجوع، حينما ادخر من سنوات الخصب إلى تلك السنوات القاحلة.

ح- إحسان يوسف إلى الناس:

فقد أحسن إليهم بحسن فكره الاقتصادي الـذي قام على الادخار في أيام النعمة، ثم توزيع ذلك عليهم بالعدل في سنوات الشدة، فحمدوا له ذلك الصنيع

(١) التحرير والتنوير (١٢/٦٠)،تفسير أبي السعود (٤/٢٧٦)، تفسير الطبري (١٦/١٠٠).

الذي حافظ على عيشهم في ظل القحط.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾[يوسف:٤٧-٤٨].

مكافأة يوسف على إحسانه:

لقد أعطى الله تعالى يوسف عليه السلام على إحسانه في عبادته وإلى عباده ثوابًا عاجلاً وثوابًا آجلاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يوسف:٥٦-٥٧].

يعني: وكما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من الجب، وخلصناه من السجن، وزيّناه في عين الملك، حتى قربه وأدنى منزلته؛ كذلك مكنا له في الأرض يعني: أرض مصر؛ ومعنى التمكين هو: أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾؛ لأنه تفسير للتمكين.

وجملة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ إلى آخرها تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف عليه السلام من الرحمة في أحواله في الدنيا، وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم، وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولأجره في الآخرة خير من ذلك له، ولكل من آمن واتقى.

وقوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى

إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد، وفي هذا تسلية أهل البلاء، إذا صحبهم الإحسان والتقوى، وبشارتهم بالعز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والنصر والتمكين في الأرض بعد الاستضعاف والهوان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ...﴾ فيه أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان، عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٣٩، ٤٠](١).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

فيخبر يوسف عليه السلام أنه بإحسانه في الصبر والتقوى نال ما نال من نجاة وعز ومكانة.

٣-إحسان أحد إخوة يوسف إليه:

وهو القائل: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[يوسف:١٠]، وذلك عندما سمعهم يقولون: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[يوسف:٩].

---

(١) ينظر: البحر المديد (٣/٣٩٧)، التحرير والتنوير (١٢/٨٣)، تفسير ابن كثير (٤/٣٩٦)، تفسير الخازن (٣/٢٩٣).

وهذا من باب تخفيف الشر، و" العرب تقول: ويل أهون من ويلين، كما تقول: بعض الشر أهون من بعض[1].

قال طرفة:

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا حنانَيْكَ! بعضُ الشرّ أهوَن من بعضِ[2].

ومعنى الآية: لا تَصِلوا في عداوته وبغضه إلى قتله؛ استجلابا لشفقتهم عليه، أو استعظامًا لقتله، ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى، وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم، وهذا عطف منهم على أخيه؛ لما أراد الله من إنفاذ قضائه، وإبقاء على نفسه، وسبب لنجاتهم من الوقوع في هذه الكبيرة وهو إتلاف النفس بالقتل.

وما أشار به هذا القائل من إلقاء يوسف عليه السلام في غيابة جب هو أمثل مما أشار به الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة؛ لأنه يحصل به إبعاد يوسف عليه السلام عن أبيه إبعاداً لا يرجى بعده تلاقيهما دون إلحاق ضر الإعدام بيوسف عليه السلام؛ فإن التقاط السيارة إياه أبقى له، وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده؛ لأنه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم، أو باعوه فزاد بعداً على بعد.

وفي قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ تعريض بزيادة التريث فيما أضمروه؛ لعلهم يرون الرجوع عنه أولى من تنفيذه؛ ولذلك جاء في شرطه بحرف الشرط وهو

---

(١) البصائر والذخائر (١/ ٤٢).

(٢) ديوان طرفة بن العبد (ص:٣٨).

﴿إِنْ﴾ إيماء إلى أنه لا ينبغي الجزم به، فكان هذا القائل أمثل الإخوة رأيًا، وأقربهم إلى التقوى.

وكان هذا الرأي من حكمة الله في يوسف؛ لأنه لم يكن لهم سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لابدّ من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة أخيهم فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب[1].

٤-إحسان العزيز إلى يوسف:

فقد أمر امرأته عند شرائه بإكرامه، فحصل ذلك، ولقي يوسف في ذلك البيت حسن المعاملة وكرم النُزل، خاصة من العزيز، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[يوسف:٢١].

وقد أثمر ذلك الإحسان في قلب يوسف رداً جميلاً يوم مراودة المرأة له، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

فقوله:﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: أحسن تعهدي وإقامتي وتربيتي حيث أمرك بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه، وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه[2].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٧٢)، التحرير والتنوير (١٢/٢٧)، تفسير أبي السعود (٤/٢٥٦)، تفسير البحر المحيط (٥/٢٨٤).

(٢) البحر المديد (٣/٣٦٩)، تفسير أبي السعود (٤/٢٦٥).

٥-إحسان ساقي الملك إلى يوسف:

فإن الملك لما رأى تلك الرؤيا ولم يجد أحداً من ملئه يعبرها له قال ذلك الساقي: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[يوسف:٤٥].

فجاء إلى يوسف فعبرها للملك، فعاد الساقي إلى الملك فأخبره بتعبير يوسف فأعجبه ذلك، فأمر بإخراجه من السجن فطلب منه يوسف التحقيق مع النسوة؛ لإعلان براءته على الناس ففعل الملك ذلك، ثم أخرجه من السجن وولاه الوزارة.

وهذا كله كان من أسبابه: إحسان الساقي؛ رداً على إحسان يوسف إليه في تعبير رؤياه، وهو تكفير أيضًا عن إساءة الساقي غير المقصودة في تأخير إخبار الملك بمظلمة يوسف.

٦-إحسان الملك إلى يوسف:

وذلك بإخراجه من السجن، والتحقيق مع النسوة حتى ظهرت براءته على الملأ، وإكرامه ورفع مكانته لديه، وتوليته أمور مالية الدولة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٤-٥٥].

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الإساءة والإحسان في قصة يوسف عليه السلام:

١-إن الإساءة أليمة على النفوس البريئة، فكيف إذا نزلت بقلب أب أو ذي قربى!

٢-غاية الإحسان: أن تحسن عبادة الله، وتحسن إلى عباد الله.

٣-ألقِ إحسانك في عباد الله، وسينبت وتجني ثمرته ولو بعد حين؛ فيوسف لما أحسن إلى الساقي كان الساقي هو الذي دل الملك عليه فخرج به من الضراء إلى السراء.

٤-إن الإحسان عمل عظيم يثمر ثمرات طيبة، فمن هذه القصة نجد أنه أثمر: إدخال المسرة على الناس، وكشف الضر عنهم، وحفظ الحرمات، وإيصال المنفعة إلى من يحتاجها، والوصول إلى معرفة الحق، وتخفيف الشر، وضبط شؤون الدولة، وغير ذلك.

٥-الإنسان الصالح أينما وقع نفع(إنا نراك من المحسنين) قيلت في وصف يوسف في السجن، وفي وصفه وهو يدير وظيفته.

٦-(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) دعوة للإحسان، وتطمين لمن أحسن بأن الله لن يضيعه كما لم يضيع يوسف.

٧-إذا رسخ الإحسان في نفس المؤمن فإن جهات إحسانه تتعدد ولا تقتصر على جهة معينة؛ فيوسف عليه السلام امتد إحسانه إلى كل أحد اتصل به؛ ولهذا أثنى الله تعالى عليه بالإحسان في أكثر من موضع في هذه القصة.

الرجاء واليأس

المطلب الأول: الرجاء:

التعريف:

لغة:

(**رجا**) الراء والجيم والحرف المعتلّ أصلان متباينان، يدلُّ أحدُهما على الأمَل، والآخَر على ناحية الشيء.

فالأول الرَّجاءُ، وهو الأمل، يقال: رجَوت الأمْرَ أرجُوه رجواً ورجاء ورجاة ورجاءة ورجاوة ومرجاة ؛أملته، فأنا راج، والشيء مرجو وهي مرجوة، وارتجاه رجاه، وترجاه أمله وما لي في فلان رَجِيَّةٌ أَي: ما أَرْجُو.قَالَ بِشْرٌ يخاطب بنته:

فَرَجِّي الخَيْرَ وانْتَظِرِي إِيَابِي إذا ما الْقارِظُ العَنَزِيُّ آبَا

والرَّجَاءُ: نَقِيضُ اليَأْسِ، وهو الطمع فِيمَا يُمكن حُصُوله، ويرادفه الأمل، وهمزَتُه منقلبة عن واو بدليل ظُهورِها في رَجاوةٍ.

ومن ألفاظ الرجاء: عَسى، وهي لمقاربة الْأَمر على سَبِيل الرَّجَاء والطمع، أَي: لتوقع حُصُول مَا لم يحصل، سَوَاء يُرْجَى حُصُوله عَن قريب أَو بعيد مُدَّة مديدة[1].

---

(١) المعجم الوسيط (١/٣٣٣)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٤٩٤)، لسان العرب (١٤/٣٠٩)، الكليات (ص:٤٦٨)، (ص:٦٣٥).

اصطلاحًا:

الرجاء هو: ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة، وقيل: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل.

وقيل: ترقب الانتفاع بما تقدم له سبب ما[1].

نافذة:

إن الحياة الدنيا لا تسلم من منغصات، ولا يأمن الحي فيها من مكروهات، ولبلائها حالان: حال يطول فيها، وحال فيها يقصر.

وفي حال طول البلاء يتمايز الناس، ويصيرون إلى صابر وجازع، ويائس وراجٍ، وبذلك تتباين أحوالهم تبعًا لمواقفهم.

فأهل الرجاء تهون عليهم وطأة الضراء، ويخف وهجها في نفوسهم، بل إنهم يزدادون تفاؤلاً بالفرج كلما ازداد حبل الضر شداً، ولسان حالهم يقول:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ ... وَضَاقَ لِمَا بِهَا الصَّدْرُ الرَّحِيبُ

وَأَوْطَنَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ ... وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ

وَلَمْ تَرَ لِانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا ... وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ

أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ ... يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ

وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ ... فَمَوْصُولٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ[2].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٨٩)، التعريفات (ص:١٤٦)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣٥٦).

(٢) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا (ص:٨١).

وفي واحة الإيمان الزكية، والثقة برب البرية ما يزيد الراجي رجاء، والآمل بالنجاة من الشدائد أملاً، فما يعده الله للمؤمن خير مما يعده المؤمن لنفسه، وتناهي ضرائه هو بوابة سرائه، فما بعد شدة الظلام إلا الفجر الصادق.

وفي هذه القصة المباركة سنتعرف على بعض مواقف الرجاء، وسنتحدث عن ذلك في هذه المشاهد:

المشهد الأول: رجاء يعقوب عليه السلام:

نزلت بيعقوب فاجعة فَقدِ ابنه يوسف، ثم فجع بابنه بنيامين، فطال بكاؤه وحزنه، ولم يجد فيمن حوله من يشاركه شعوره، ويخفف عنه وجعه، غير شيء واحد كان هو سلوته التي يلجأ إليها كلما اشتد عليه خناق البلاء، إنه الرجاء بعودة من فقده؛ ثقة بالله تعالى وحده.

ولنتأمل في هذا الموقف الأول لرجاء يعقوب؛ فإنه لما جاءه أبناؤه وأخبروه باحتباس بنيامين لم يخف رجاؤه، ولا ظهر جزعه، بل ازداد أملاً، وامتلأ تفاؤلاً ليس بعودة بنيامين وحده، بل بعودة أبنائه الثلاثة، فما أعظمه من رجاء في شدة البلاء؟

قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

"لم يفقد يعقوب الأمل في رحمة الله، ولم يقطع الرجاء في عودة يوسف وبنيامين إليه؛ فلذا قال عقب اتهامه لأولاده في شأن بنيامين: عسى الله أن يأتيني بأولادي جميعًا: يوسف وبنيامين وابني الكبير الذي تخلف في مصر حتى آذن له

بالعودة أو يحكم الله له.وأكد رجاءه في الله بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:إنه هو الواسع العلم الذي يبتلي بحكمة، ويرفع البلاء بحكمة، وهو أرحم الراحمين، هذا وقد قيل: إن مبعث الرجاء عنده تلك الرؤيا التي رآها يوسف في صغره: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].فكان ينتظر تحقيقها، ويحسن ظنه بالله تعالى، وبخاصة بعد أن اشتد به الكرب، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدة المستحكمة فرجًا، وبعد العسر يسراً"[١].

وحينما قال له من حوله في يأس وقنوط: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[يوسف:٨٥].رد عليهم برجاء وثقة:

﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].

يقول: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من لطف الله ورأفته ورحمته ما يوجب حسن ظني وقوة رجائي، وأنه لا يخيب دعائي، وأشار إلى حسن ظنه بالله، وجميل عادة الله عنده[٢].

"إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته، فضلاً عن عودته إلى أبيه...إن هذا كله لا يؤثر شيئًا في شعور الرجل الصالح بربه، فهو يعلم من حقيقة ربه، ومن شأنه ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة...وهذه قيمة الإيمان بالله...إن هذه الكلمات

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (٥/ ٣٧٠).

(٢) البحر المديد (٣/ ٤١٤).

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها، وتعرض مذاقًا يعرفه من ذاق مثله، فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب...والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه- مهما- بلغت إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق..."[(١)].

وفي موقف آخر بلغ فيه الكرب مداه يطرد الأب الكريم اليأسَ أمام أعين أبنائه اليائسين، فيأمرهم بالذهاب للبحث عن ابنيه المفقودين فيقول: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾؛ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين.ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله ورَوحه.

يقول لأبنائه: لا تيأسوا من الظفر بيوسف عليه السلام، معتلين بطول مدة البعد التي يبعد معها اللقاء عادة؛ فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك، فحقه أن يأخذ في سببه،

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/٤٠٩).

ويعتمد على الله في تيسيره، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة، وينكرون غيرها.

وقد نَهّضهم وبشرهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه؛ فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون. فالمؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء، فينال به خيراً، ويحمد عند الرخاء فينال به خيراً، والكافر بضد ذلك[1].

وهكذا أنزل يعقوب أبناءه عن مركب اليأس، وحَمَلهم على مركب الرجاء حتى وصلوا إلى مصر، وهناك وجدوا يوسف وبنيامين، وقرت عين يعقوب، وانتصر الرجاء على القنوط، وتم اللقاء الميمون.

رُبَّ أَمرٍ تزهق النَّفس لَهُ ... جاءها من خَلَلِ الْيَأْسِ الْفرجْ

لَا تكن من وَجه رَوحٍ آيسًا ... ربّما قد فُرجتْ تِلْكَ الرُّتجْ

بَيْنَمَا الْمَرْء كئيبٌ موجعٌ ... جَاءَهُ الله بِرَوحٍ فابتهجْ [2].

المشهد الثاني: رجاء يوسف عليه السلام:

كان يوسف الصديق على رجاء لا يخالطه يأس، ويقين لا يخالجه ريب بأنه سيلقى أهله مرة أخرى، وسيختفي ليل كروبه إذا أذن الله بشروق فجر الفرج، وسيظفر شوقه بلقاء أبيه البعيد عن جسده، القريب من روحه وحبه.

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤٠٤)، التحرير والتنوير (١٢/ ١١٠) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٦)، تفسير الخازن (٣/ ٣١١).

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٥/ ٢٣).

وكان له تفاؤل لا يتسع له المدى بربه الذي يدرك أنه رحيم بعبده المؤمن، وسينيله ما ترجوه رجواه، ويُذهب عنه بلواه.

وقد اعتمد رجاؤه الراسخ على قاعدتين:

الأولى: بشرى الرؤيا التي رآها في صغره وعبرها له أبوه؛ فإنه كان ينتظر تحققها، ولم تغب عن باله في كل محنه، ولما رفع أبويه على العرش وخروا له سجداً تحققت تلك الرؤيا، فذكر ذلك لأبيه، وهذا يدل على حضور تلك الرؤيا في خاطره بلا غياب.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[يوسف:١٠٠].

الثانية: وعد الله تعالى له وهو في أول محنة من محنه بقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٥].

فكانت تلك البشرى وذلك الوعد أُنسه في وحشة بلائه، ورجاءه الذي ينتظر حصوله عند رحيل ضرائه.

المشهد الثالث: رجاء العزيز في يوسف:

حينما اشترى العزيز يوسف رأى فيه مخايل الرشد، وعلامات النجابة والفضل، فرجا به الخير، فعن عبد الله بن مسعود، قال: "أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، والتي قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] وأبو

بكر حين تفرس في عمر رضي الله عنهما"(١).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[يوسف:٢١].

"فتضمنت هذه الوصية إكرامه، وحسن معاملته في كل ما يختص بإقامته، بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو: ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا﴾ بالقيام ببعض شئوننا الخاصة، أو شئون الدولة العامة؛ لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فيكون قرة عين لنا، ووارثًا لمجدنا ومالنا إذا تم رشده، وصدقت فراستي في نجابته. وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له، وروي أنه كان عقيمًا. وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون في موسى، وكانت صالحة ملهمة، وأما العزيز فكان ذكيًا صادق الفراسة، فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه، وذكائه وحسن خلاله، على أن حسن عشرته وكرم وفادته، وشرف تربيته، خير متمم لحسن استعداده الفطري؛ إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلا البيئة الفاسدة، وسوء القدوة"(٢).

---

(١) رواه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٢٥).

المطلب الثاني: اليأس:

التعريف:

لغة:

(**يأس**) الياء والهمزة والسين أصل يدل على قَطْع الرَّجاء، ويقال: إنَّه ليست ياء في صَدرِ كلمةٍ بعدها همزة إلاّ هذه، يقال منه: يَئِس يَيْأَس ويَيْئِس، على يَفْعَل ويَفْعِل.

واليَأْس: القُنوط، وأَيْأَسْتُه وآيَسْتُه: قَنَّطْتُه، قَالَ طَرَفَة بنُ العَبْد:

وأَيْأَسَني من كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُه كَأَنا وَضَعْناه إِلى رَمْسِ مُلْحَدِ

ويَئِسَ من الشيء يَيْأَس، ويئست فَأَنا يائس وآيس، والمصدر اليَأْسُ واليَآسَة واليَأَس، وقد استَيْأَسَ وأَيْأَسْته، وإِنه لَيائِسٌ ويَئِس ويَؤُوس ويَؤُس والجمع يُؤُوس، وآيَسَه فلان من كذا فاسْتَيْأَس منه بمعنى أَيِسَ، واليَأْسُ ضد الرَّجاء.

واليأس: انتفاء الطمع، يقال: يئس واستيأس مثل: عجب واستعجب، وسخر واستسخر[1].

اصطلاحًا:

اليأس هو: الْقطع على أَن الْمَطْلُوب لَا يتَحَصَّل؛ لتحقيق فَوَاته[2].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦/١٥٣)، لسان العرب (٦/٢٥٩)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/٥٤٨)، الكليات (ص:٩٨٥)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥/٣٧٦).

(٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص:٦٣٣).

نافذة:

بين ركام الشكوك وضعف الإيمان داخل النفس الإنسانية يولد مولود مشؤوم النسل، ذلك المولود يقال له: اليأس.داء نفسي ينشر الحواجز في طرق الآملين، ويبطل النجاح في تصور الراجين، يدع المرء في دائرة مغلقة لا منفذ فيها لأمل، ولا طريق فيها لتفاؤل.

يجعل الحياة في عيني صاحبه ليلاً ممتداً بلا صباح، وشقاء مستمراً بلا أفراح، وقعوداً بلا حركة وعمل، ورضا بالواقع المرير من غير تصرف لتغيير ما يكون تحت الطوق تغييره.

هكذا يصنع اليأس بصاحبه، وكلما ازداد البؤس وعز النصير قوي واشتد حتى لم يبق لديه أمل في شيء.

وفي قصة يوسف نلاحظ شهود اليأس يسيطر على إخوة يوسف ومن حول يعقوب؛ إذ غدوا في قنوط تام من عودة يوسف ولقاء أبيه به، **ويمكن ملاحظة ذلك في مشهدين:**

الأول: نهي يعقوب لبنيه عن اليأس، وتعليل ذلك بأن اليأس صفة ليست من صفات أهل الإيمان، وذلك عند أمرهم بالعودة إلى مصر للتحسس من يوسف وأخيه، وهذا يدل على أن يعقوب قد لاحظ استحكام اليأس على أبنائه فلذلك قال لهم ذلك القول.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

يريد: فاطردوا عنكم تصور عدم عودة يوسف؛ فاطمعوا بعودته برحمة الله وحده، وهذا شأن المؤمنين، وأما غيرهم فلا طمع لهم في رحمة الله؛ فلذلك هم يائسون من فرج الله ورحمته.

والثاني: ردهم رداً شديداً على يعقوب لما أخبرهم بريح يوسف؛ فهو قال لهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف:٩٤]. فردوا عليه بعبارة مفعمة باليأس: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾[يوسف:٩٥].

أي: "بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقائه، وقيل: إنما قالوا هذا؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات"(١).

فلما وصلوا إلى مصر ذهب ليل اليأس بسطوع شمس المشاهدة حينما قال الغائب الميؤوس من حياته أو عودته: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾[يوسف:٩٠].

ليعطي ذلك المشهد درسًا لليائسين بأن رجاء المؤمنين قريب الحصول، وليس ليائس محصول وَلَا مَعْقُول.

عَسى فَرجٌ يكون عَسى	نعلّل نفسنا بعسى
فَلَا تقنط وَإِن لاقيت	همًّا يقبض النفسا
فأقرب مَا يكون الْمَرْء	من فرج إذا يئسا(٢).

(١) تفسير البيضاوي (٣/٣٠٨)، تفسير القرطبي (٩/٢٦١).

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٥/٢٩).

معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[يوسف:١١٠]

حصل في معنى هذه الآية إشكال؛ ولهذا سنتناول الحديث عنها فيما يأتي:

١-معنى "اسْتَيْئَسَ":

استيأس: استفعل من اليأس ضد الرجاء، **قال** أبو عبيدة في قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ استفعلوا من يئست، ومثّله في هذه الآية، وليس مراده بـ استفعل إلا الوزن خاصة، وإلا فالسين والتاء زائدتان، واستيأس بمعنى يئس كـ استعجب وعجب، وفرق بينهما الزمخشري: بأن الزيادة تقع في مثل هذا؛ للتنبيه على المبالغة في ذلك الفعل(١).

٢-القراءات القرآنية في الآية:

أولاً: قوله تعالى: ﴿كذبوا﴾:

قَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو وَابْن عَامر ويعقوب: ﴿كُذِّبُوا﴾ مُشَدّدَة الذَّال، مضمومة الكاف.

وَقَرَأَ عَاصِم وَحَمْزَة والكسائي وأبو جعفر: ﴿كُذِبُوا﴾ خَفِيفَة الذال، مضمومة الكاف، من قَوْلك: كذبتك الحَدِيث أَي: لم أصدقك.

توجيه القراءتين:

فمن قرأوا بالتشديد جعلُوا الضَّمِير فِي ظنُّوا للرسل، وَالظَّن بِمَعْنى الْيَقِين.

---

(١) فتح الباري (٨/٣٦٧).



وحجتهم فِي ذَلِك: أَن ذكر الرُّسُل قد تقدم، وَلم يتَقَدَّم ذكر الْمُرْسل إِلَيْهِم فَيجْعَل الضَّمِير لَهُم، وَإِذا كَانَ ذَلِك كَذَلِك فَالْأولى أَن يَجْعَل الضَّمِير للرسل، فَيكون الفعلان للرسل، وَيصير كلَاما وَاحِدًا.

وَمعنى الْآيَة: حَتَّى إِذا استيأس الرُّسُل من إِيمَان قَومهمْ، وظنوا أَي: أيقنوا أَن قَومهمْ قد كذبوهم؛ جَاءَهُم نصرنَا أَي: جَاءَ الرُّسُلَ نصرُنَا. **وقال** قوم: لَيْسَ الظَّن بِمَعْنى الْيَقِين، بل لَفظه مَعْنَاهُ، قَالُوا: وَمعنى الْآيَة: حَتَّى إِذا استيأس الرُّسُل مِمَّن كذبهمْ من قَومهمْ أَن يصدقوهم، وظنت الرُّسُل بِأَن من قد آمن بهم من قَومهمْ قد كذبوهم؛ جَاءَهُم نصر الله عِنْد ذَلِك.

قَالَت عَائِشَة رَضِي الله عَنْهَا: (لم يزل الْبلَاء بالرسل حَتَّى خَافُوا أَن يكون من مَعَهم من الْمُؤمنِينَ قد كذبوهم)[1].

ومن حجة التثقيل قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾[فاطر:٤]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾[سبأ:٤٥].

ومن قرأ بالتخفيف فله فيهَا وَجْهَان من التَّفْسِير:

أَحدهمَا: حَتَّى إِذا استيأس الرُّسُل من إِيمَان قَومهمْ، وَظن قَومهمْ أَن الرُّسُل قد كُذبُوا بِمَعْنى: أخْلفُوا مَا وعدوه من النَّصْر؛ جَاءَ الرُّسُلَ نصرنَا، فَجعل الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿ظنُّوا﴾ للْقَوْم، وَجعل الظَّن مُوَافقًا لَفظه مَعْنَاهُ.

فَإِن قيل كَيفَ يجوز أَن يحمل الضَّمِير فِي ﴿ظنُّوا﴾ على الْقَوْم، وَالَّذِي تقدم ذكره الرُّسُل؟

(١) رواه البخاري.

قيل: إِن ذَلِك لَا يمْتَنع؛ لِأَن ذكر الرُّسُل يدل على الْمُرْسل إِلَيْهِم؛ فَلهَذَا جَازَ أَن يحمل الضَّمِير على الْمُرْسل إِلَيْهِم.

وَالْوَجْه الآخر: حَتَّى إِذا استيأس الرُّسُل من إِيمَان قَومهمْ، وَظن قَومهمْ أَن الرُّسُل قد كذبتهم فِيمَا أخبروهم بِهِ من أَنهم إِن لم يُؤمنُوا بهم نزل بهم الْعَذَاب، ثمَّ رد إِلَى مَا لم يسم فَاعله فَقيل: إِنَّهُم كِنَايَة عَن الْقَوْم.وإنما ظنّوا ذلك لما شاهدوه من إمهال الله إياهم، وإملائه لهم.

ومن حجة التخفيف: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[التوبة:٩٠].

وقال بعضهم: فالظن فِي الْقِرَاءَة الأولى يَقِين، وَالضَّمِير الأول للرسل وَالثَّانِي للمرسل إِلَيْهِم، وَالظَّن فِي الْقِرَاءَة الثَّانِيَة شكّ، وَالضَّمِير الأول للمرسل إِلَيْهِم وَالثَّانِي للرسل.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فنجي﴾:

قَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو وَحَمْزَة والكسائي وأبو جعفر: ﴿فننجى من نشَاء﴾ بنونين الأولى مَضْمُومَة، وَالثَّانِيَة سَاكِنة، وَالْيَاء الَّتِي فِي فننجي سَاكِنة.

وَقَرَأَ ابْن عَامر ويعقوب وَعَاصِم فِي رِوَايَة أَبى بكر وَحَفْص: ﴿فنجي من نشَاء﴾ مُشَدّدَة الْجِيم، مَفْتُوحَة الْيَاء بنُون وَاحِدَة على مالم يسم فَاعله.

توجيه القراءتين:

من قرأ ﴿فنجِي﴾ بالماضي فحجته: أَن الْقِصَّة مَاضِيَة، فَأتى بـ نجي على لفظ الْمَاضِي.وَيُقَوِّي هَذَا: أَنه قد عُطف عَلَيْهِ فعل لم يسم فَاعله، وَهُوَ قَوْله: ﴿وَلا يُرَدُّ

بَأْسُنَا﴾ وَلَو كَانَ ننجي مُسْندًا إِلَى الْفَاعِل كَقَوْل من خَالفه لَكَانَ: لَا نرد؛ لِيَكُون مثل الْمَعْطُوف عَلَيْهِ.

ومن قرأ: ﴿فننجي﴾ بالمضارع فحجته قَوْله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[غافر:٥١]، وَقَوله:﴿ فننجي من نشَاء﴾ حِكَايَة حَال الْأَمر من الْقِصَّة فِيمَا مضى، كَمَا أَن قَوْله ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص:١٥]، إِشَارَة إِلَى الْحَاضِر، والقصة مَاضِيَة؛ لِأَنَّهُ حكى الْحَال[١].

٣-الخلاف في معنى الآية:

اختلف المفسرون في المعنى في هذه الآية في جملتين في الآية:

الجملة الأولى: قوله تعالى: ﴿اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾:

فيأس الرسل يحتمل ثلاثة أمور:

الأول: يأسهم من النصر.

الثاني: يأسهم من تعذيب قومهم، قاله مجاهد.

الثالث: يأسهم من قومهم أن يؤمنوا بالله، ويصدِّقوهم فيما أتوهم به من عند الله، قاله ابن عباس، وهذا هو الأرجح.[٢].

الجملة الثانية: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾:

---

(١) ينظر: السبعة في القراءات (ص:٣٥١-٣٥٢)، المبسوط في القراءات العشر (ص:٢٤٨)، حجة القراءات (ص:٣٦٦-٣٦٨)، الأحرف السبعة للقرآن (ص:٥٠)، الحجة في القراءات السبع (ص:١٩٩)، الحجة للقراء السبعة (٤/٤٤١-٤٤٥).

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٣٥)، بحر العلوم (٢/٢١٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٢٥)، تفسير الطبري (١٦/٢٩٦)، النكت والعيون (٣/٨٩)، زاد المسير (٤/٢٩٦).

اختلف المعنى في هذه الجملة لدى المفسرين بناء على الاختلاف في القراءة:

فمن قرأ بالتشديد فالضمير في (ظنوا وكذبوا) عائد على الرسل، ولهم في معنى ذلك **وجهان**:

الأول: أن الظن بمعنى اليقين، أي: علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك، فلما يئسوا من إيمانهم دعوا عليهم، وهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال. وهذا قول الحسن وعطاء وقتادة.

وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن **قال** تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾[البقرة: ٤٦] أي: يتيقنون ذلك.

الثاني: أن يكون الظن بمعنى الحسبان، والتقدير: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم في مجيء النصر، وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها، وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية.

فعن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت له- وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ - قال: قلت: أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبُوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري، لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِبُوا ؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم

قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك[1].

وعن ابن أبي مليكة قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ خفيفة، ذهب بها هناك، وتلا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤]. فلقيت عروة بن الزبير فذكرت له ذلك فقال: قالت عائشة: معاذ الله، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت، ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم. فكانت تقرؤها {وظنوا أنهم قد كُذِّبوا}مثقلة[2].

ومن قرأ بالتخفيف فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم، ومعنى التخفيف هكذا: ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من الرسالة، أو فيما توعدوهم به من العذاب لما طال الإمهال، واتصلت العافية.

وقال بهذا التأويل في هذه القراءة: ابن مسعود ومجاهد، ورجح أبو علي الفارسي هذا التأويل، وقال: إن رد الضمير في (ظنوا وفي كذبوا) على المرسل إليهم وإن كان لم يتقدم لهم ذكر صريح جائز **لوجهين**:

أحدهما: أن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إليه.

والآخر: أن ذكرهم قد أشير إليه في قوله: ﴿عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾.

وتحتمل هذه القراءة أيضًا أن يكون الضمير في (ظنوا وفي كذبوا) عائداً على

(١)رواه البخاري.

(٢)رواه البخاري.

الرسل.

والمعنى: كذبهم من أخبرهم عن الله، والظن على بابه.وحكى هذا التأويل قوم من أهل العلم.والرسل بشر فضعفوا وساء ظنهم، قاله ابن عباس وابن مسعود أيضًا وابن جبير، وقال: ألم يكونوا بشراً؟ **وقال** ابن مسعود لمن سأله عن هذا: هو الذي نكره.

وردت هذا التأويل عائشة أم المؤمنين وجماعة، من أهل العلم وأعظموا أن توصف الرسل بهذا. **وقال** أبو علي الفارسي: هذا غير جائز على الرسل. **قال** ابن عطية: وهذا هو الصواب، وأين العصمة والعلم؟.

الخلاصة:

قال ابن قتيبة: "وهذه مذاهب مختلفة، والألفاظ تحتملها كلّها، ولا نعلم ما أراد الله عز وجل، غير أنّ أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله صلوات الله عليهم؛ ما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[1].

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٣٥)، المحرر الوجيز (٣/٢٩٤-٢٩٥)، بحر العلوم (٢/٢١٣)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٨١)، تفسير الطبري (١٦/٢٩٦-٣٠٦)، النكت والعيون (٣/٨٩)، بحر العلوم (٢/٢١٤)، زاد المسير (٤/٢٩٦)، تأويل مشكل القرآن (ص:٢٣٤).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الرجاء واليأس في قصة يوسف عليه السلام:

١- في رجاء يعقوب رغم تضاعف الكروب، وتطاول السنين، وانقطاع حبل الأمل لدى من حوله؛ ما يعلمنا أن الإيمان يجعل من صاحبه قوي الرجاء كلما قوي البلاء.

٢-تحت مظلة الرجاء يجد الآمل برداً وسلامًا حينما يرى الآفاق من حوله لا تمطر إلا اليأس.

٣-عوِّد لسانك رجاء الخير من كل ما تحصل عليه من الأمور المشروعة.

٤-حينما يدب اليأس بين يديك، ويخطر متبختراً أمام ناظريك، فاغمض عينيك لتجد في قلبك المترع بالإيمان، وحسن الظن بالله أن رجاءك في فرج الله هو الحقيقة وأن ذلك اليأس حلم سيختفي باستيقاظ الضمير على فراش الأمل الفسيح.

٥-الرجاء مرقاة إلى الراحة والظفر، واليأس مدحضة إلى شدة الألم والفوات.

٦-رجاء الأب الثكلان بعودة ابنه الفقيد ليس كرجاء الأخ؛ فقلب الوالد يخبره عن ابنه ويحدثه عن حاله من وراء السنين والحجب المكانية.

٧-لا تنثر مشاعرك المفعمة بالرجاء أمام من لا يقدر مشاعرك، ولا يريد لمشاعرك إلا الامتلاء باليأس؛ فإن ريح يوسف لم تجدها إلا أنف يعقوب وحده.

٨-لحظة الظفر بالأمل المنشود بعد طول الانتظار وشدة أصوات اليأس؛ لحظة عظيمة انتصر فيها الرجاء على القنوط، والصبر على الجزع، وصوت العقل على صخب الجهل، والإيمان على الكفر، واليقين على الشك.

المعصية والاعتذار منها

المطلب الأول: المعصية:

التعريف:

لغة:

(**عصى**) العين والصاد والحرف المعتل أصل يدل على الفرقة، يقال: عَصَى، وهو عاصٍ، والجمع عُصاة وعَاصون، وعصاه معصية وعصيانًا: خرج من طاعته، وخالف أمره فهو عاص.

والعصيان: الامتناع عن الانقياد، والخروج عن الطاعة، والعِصيانُ خِلافُ الطَّاعَة، وعَصى العبدُ ربه إذا خالَف أَمْرَه، وعصى فلان أَميرَه يَعْصِيه عَصْياً وعِصْياناً ومَعْصِيَةً إذا لم يُطِعْهُ فهو عاصٍ وعَصِيٌّ[(١)].

اصطلاحًا:

المعصية هي: مخالفة الأمر قصداً، وقيل: الأمر المحرم، وقيل: كل ما عصي الله به[(٢)].

نافذة:

(١) المعجم الوسيط (٢/٦٠٦)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٣٣٤-٣٣٥)، لسان العرب (١٥/٦٣)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٠٠).

(٢) التعريفات (ص:٢٨٣)، القاموس الفقهي (ص:٢٥٢).

إن الله تعالى خلق الإنس والجن ليطيعوه، ولا يعصوه، غير أن أكثر الناس لم يقم بهذه الغاية من الخلق، بل سلك سبيل العصيان؛ تلبية لرغباته، وإشباعًا لشهواته، وهو بذلك يريد الوصول إلى إسعاد نفسه، ولكنه أخطأ الطريق؛ إذ السعادة كل السعادة في العاجل والآجل هي في طاعة الله، والبعد عن معصيته.

وفي قصة يوسف ذكر الله تعالى بعض المعاصي، وكيف كانت عواقبها السيئة على أهلها وغيرهم.

وسنكتفي بذكر معصيتين تحدثت عنهما هذه القصة المباركة:

المعصية الأولى: معصية إخوة يوسف:

كانت هذه المعصية معصية كبيرة، وعملاً تجرد عن الرحمة وصلة القربى، دفع إليها حب الانتصار للنفس، والرغبة في الانتقام من المحسود.

لم يفكر الجناة بمآلات جنايتهم عند الله وعند أبيهم، فركبوا هواهم، وأخذوا يوسف وألقوه في غيابة الجب، بعد أن كانوا عازمين على قتله أو إلقائه في أرض مهلكة.

وهذه المعصية التي قاموا بها لم تكن وحدها هي الذنب الذي ارتكبوه، بل سبقته معاصٍ تتعلق به، وتبعتها معاص أخرى، فكانت معصيتهم محفوفة بخطايا سابقة ولاحقة.

وهذه يبين شؤم المعصية؛ إذ قد لا يتوصل إليها إلا بذنوب، ولا يخرج من تبعاتها بين الناس إلا بذنوب أيضًا، **قال** ابن القيم: "والمصيبة كل المصيبة الذنب الذي يتولد من الذنب، ثم يتولد من الاثنين ثالث، ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعاً

وهلم جرا. ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك من حيث لا يشعر، فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض يتلو بعضها بعضًا، ويثمر بعضها بعضًا. **قال** بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها. وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال، وتطلب له الشواهد"(١).

فإخوة يوسف حسدوا، ثم عزموا على العصيان، ثم تآمروا على خطة تنفيذ المعصية، ثم كذبوا على أبيهم، وطلبوا خداعه، ووعدوه فأخلفوا موعده، ثم ألقوا يوسف في الجب، ثم كذبوا على أبيهم مرة أخرى، والنتيجة النهائية: عقوق أبيهم، وإدخال الضر عليه، وإيقاع أخيهم في طريق المحن.

قال السعدي -وهو يسوق فوائد هذه القصة-: "ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة"(٢).

يقول ابن إسحاق في معصية إخوة يوسف: "وَكُلٌّ قَدْ عَظُمَ فِيهِ جُرْمُهُ..لما

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٩٩).

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٠٨).

اجتمعوا عليه من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَعِ، الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل عليهم، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين ولده، وحبيبه على كبر سنه، ورقة عظمه، مع مكانه من الله وبين من أحبه طفلاً صغيراً على ضعف قوته، وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه يغفر الله لهم، وهو أرحم الراحمين؛ فقد احتملوا أمرًا عظيما"(١).

المعصية الثانية: معصية امرأة العزيز:

كانت العلاقة في قصر العزيز بين يوسف وأهل ذلك البيت علاقة قائمة على المودة والاحترام، فيوسف بالنسبة لهما كالابن الوحيد المحبوب، والعزيز وزوجته لدى يوسف هما أهل النعمة والفضل.

غير أن هذه الحياة المعمورة بهذا الصفاء تكدرت بحصول معصية امرأة العزيز التي قلبت الأحوال رأسًا على عقب.

وهذا يبين أثر المعصية؛ فإن من آثارها: ذهاب النعم، وحلول النقم، وتحول المودة إلى كراهية، والاجتماع إلى فرقة، والأنس إلى وحشة.

فامرأة العزيز دعت يوسف إلى نفسها حينما رأت فيه جمالاً وشبابًا، وظنت أنه لما كان ابن نعمتها فسيلبي طلبها بلا تردد، لكن أشرعة آمالها تكسرت على صلابة عفة يوسف، فماذا حدث بعد ذلك؛ لكي ننظر عواقب المعصية أو العزم عليها؟

إنها لما خاب سعيها وهرب يوسف من شرها نحو الباب وجد العزيز،

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٧/٢١٠٦).

فسارعت المرأة إلى اتهام يوسف، وعرض العقوبة المقترحة عليه، وعملت ذلك: لئلا يسبقها يوسف بإخبار العزيز بالحقيقة، فيغضب عليها زوجها.

فيوسف لما سمع منها التهمة دافع عن نفسه بكونها هي المراوِدة، فشهد شاهد من أهل المرأة ببراءة يوسف، وصدقه فيما قال عن تلك المرأة.

فكانت المفاجأة أن العزيز غض الطرف عن الموضوع، ولم يكن لديه غيرة كافية تحمله على عقوبة زوجته بعدما تبينت خيانتها. فشجع ذلك زوجته على استئناف الرغبة في مرة أخرى.

ونلاحظ من هذا أن ضعف غيرة الزوج معصية ساعدت امرأة العزيز على العزم على معصيتها، " وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة أو عديمها وكان يحب امرأته ويطيعها ؛ ولهذا لما اطلع على مراودتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩]. فلم يعاقبها، ولم يفرق بينها وبين يوسف؛ حتى لا تتمكن من مراودته، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد محبة منه لامرأته، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة.

ومع هذا شاعت القصة، واطلع عليها الناس من غير جهة يوسف، حتى تحدثت بها النسوة في المدينة، وذكروا أنها تراود فتاها عن نفسه ومع هذا : ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وأمرت يوسف أن يخرج عليهن؛ ليقمن عذرها على مراودته وهي تقول لهن: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢] "[١].

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١١٩-١٢٠).

إن امرأة العزيز حينما تبعثرت أمانيها على سفوح العفة اليوسفية، ولم تستطع الوصول إلى غايتها المشؤومة انتقلت إلى معصية أخرى وهي إيقاع يوسف في السجن، لتلد معصيتها الأولى معاصي أخرى.

المطلب الثاني: الاعتذار من المعصية:

التعريف:

لغة:

يقال: اعتذر فلان صار ذا عذر، واعتذر إليه طلب قبول معذرته، ويقال: اعتذر من ذنبه، واعتذر عن فعله تنصل، واحتج لنفسه، وفلان صار ذا عذر.

واستعذر إليه قدم إليه الاعتذار، واستعذر من فلان قال: من عذيري منه، وطلب من الناس العذر إن هو عاقبه.

والعذر: رَوْم الإنسان إصلاحَ ما أُنكِرَ عليه بكلام.يُقال منه: عَذَرْتُه فأنا أَعْذِرُه عَذْراً، والاسم العُذْر.وتقول: عَذَرْتُه من فلان، أي: لُمْتُه.

والعُذْر: الحجة التي يُعْتَذر بها، والجمع أَعذارٌ يقال: اعْتَذَر فلان اعْتِذاراً وعِذْرةً ومَعْذرة من دِيْنِهِ فعَذَرْته، وعذَرَ يَعْذُرُهُ فيما صنع عُذْراً وعِذْرةً وعُذْرَى، ومَعْذُرة والاسم المعذَرة، ولي في هذا الأَمر عُذْرٌ وعُذْرَى، ومَعْذرةٌ أَي: خروجٌ من الذنب.

والعذر: تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه.ويقال: عذر وعذر، وذلك على ثلاثة أضرب: إما أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنبًا، أو يقول: فعلت ولا أعود، ونحو ذلك من المقال.وهذا الثالث هو التوبة، فكل توبة عذر، وليس كل عذر توبة، واعتذرت إليه أتيت بعذر، وعذرته: قبلت عذره. قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٩٤].

والمعذِّر: من يرى أن له عذراً ولا عذر له.

اصطلاحًا:

من خلال ما سبق يمكن أن نعرف الاعتذار بأنه: طلب الإنسان إصلاح ما أنكر عليه بكلام[1].

نافذة:

جميل أن يؤوب إلى المرء رشدُه عقب أن يعصي أو يخطئ، ويعرف أنه كان على طريق غير سالك، وعمل ليس بمحمود؛ فإن ذلك قد يمحو ذنبه السالف، أو على الأقل يقف فلا يواصل الخطى على ذلك الدرب المهلك.

فالاعتذار صحوة حسنة تحضر الإنسان بعد أن أسكرته الشهوة أو الشبهة، فوقع فيها لا تحمد عقباه، لكن ذلك الاعتذار في المنطق الإسلامي قد يكون نافعًا لصاحبه عند الله وقد لا يكون؛ فإن كان في الاعتذار اعتراف بالذنب، وندم خالص على فعله، وإقلاع عن مباشرته، وعزم على ترك العودة إليه فهو توبة تنفع صاحبها، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو مجرد اعتذار فحسب.

وفي قصة يوسف سنلاحظ اعتذار إخوة يوسف،وامرأة العزيز،وكيف كان ذلك

أولاً: اعتذار إخوة يوسف عليه السلام:

لم يكن إخوة يوسف يجهلون حرمة ما سيفعلون بيوسف قبل أن يقدموا على

---

(١) المعجم الوسيط(٢/٥٨٩- ٥٩٠)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٢٥٣)، لسان العرب (٤/٥٤٥)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/٧٨)، الكليات (ص:٦٤٤).

ذلك؛ لأنهم كانوا في بيت صلاح ونبوة، ولكن لما طغى عليهم حب الذات، وإرادة الانتصار للهوى، وغلبة النفس الأمارة بالسوء؛ لم يبالوا حينئذ باقتراف ذلك الجرم وتبعاته؛ ولهذا فإنهم لما ذكروا مقترح التخلص من يوسف بيتوا التوبة على قول بعضهم، **قال** تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[يوسف:٩].

وقد اختلف المفسرون في مرادهم بالصلاح بعد هذا الفعل بيوسف:

فقيل: إن المراد هو الصلاح الديني، يعني: بالتوبة إلى الله من بعد قتله، قاله ابن عباس والسدي.وذلك أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا: نتوب إلى الله من هذا الفعل، ونكون من الصالحين في المستقبل.فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم؛ تسهيلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطًا من بعضهم لبعض.

وقيل المراد: الصلاح الدنيوي، أي: صلاح الأحوال في عيشهم مع أبيهم بعد ذهاب يوسف، قاله مقاتل والحسن، فيصير أبوكم محباً لكم مشتغلاً بشأنكم.أو تصلح دنياكم، وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم، أو صلاح الأحوال بتسوية أبيهم بينهم من غير أثرة ولا تفضيل.

واختلفت وجهات نظر المفسرين أيضًا في هذا الذي بيتوه، فمنهم من رأى ذلك نية خير، حتى قال: "وفي قصتهم نكتة عجيبة وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب، وكذلك المؤمن لا ينسى التوبة وإن كان مرتكبًا للخطايا".

ومنهم من يرى أن ذلك توبة فاسدة فقال تعليقًا على ذلك: "هكذا ينزغ

الشيطان، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث.وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا.. والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات! وليست التوبة هكذا.إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر، حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة.أما التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان![1].

مرت السنون على إخوة يوسف بعد معصيتهم تلك حتى جاءت سنوات الجدب فوردوا مصر، حتى جرى التعارف بينهم وبين يوسف، وهناك جرى اعتذارهم له.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ* قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٨٩-٩٢].

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ اعتراف منهم بذنبهم، وأكثر المفسرين على أن الذي اعتذروا منه هو إقدامهم على إلقائه في الجب، وبيعه، وتبعيده عن البيت والأب. **والمعنى :** والحال أن شأننا: أنَّا كنا مذنبين أو عاصين لله فيما فعلنا

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥)، بحر العلوم (٢/ ١٨١)، تفسير الخازن (٣/ ٢٦٥)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/ ٧٦)، تفسير السعدي (ص:٣٩٤)، تفسير الطبري (١٥/ ٥٦٤)، تفسير الكشاف (٢/ ٤٢١)، زاد المسير (٤/ ١٨٤)، في ظلال القرآن (٤/ ١٩٧٣)، النكت والعيون (٣/ ١١).

بك. **والخاطئ**: فاعل الخطيئة، أي: الجريمة، وقد نفعت فيهم الموعظة؛ فلذلك أقروا له بأنهم أساءوا إليه، وأخطأوا في حقه.

وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف، وفي ضمن هذا سؤال العفو؛ فلذلك دعا لهم يوسف بالمغفرة[(١)].

ثم اعتذروا بين يدي أبيهم وطلبوا منه الاستغفار لهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٧-٩٨].

يقول تعالى ذكره: قال ولد يعقوبَ الذين كانوا فرَّقوا بينه وبين يوسف: يا أبانا سل لنا ربك يعفُ عنَّا، ويستر علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيك وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في القيامة﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا

وهذه توبة واعتراف بالذنب، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله، فقالوا: يا أبانا، أستغفر لنا ذنوبنا، طلبوا منه عليه الاسلام الاستغفار، ونادوه بعنوان الابوة؛ تحريكًا للعطف والشفقة، وعللوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أي: ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له. وكأنهم كانوا على ثقة من عفوه؛ ولذلك اقتصروا على طلب الاستغفار، وأدرجوا ذلك في الاستغفار.

وقيل: حيث نادوه بذلك وأرادوا: ومن حق شفقتك علينا أن تستغفر لنا؛

---

(١) ينظر: تفسير الرازي:مفاتيح الغيب(١٨/١٦٣)، البحر المديد(٣/٤١٩)، التحرير والتنوير (١٢/١١٤)، النكت والعيون(٣/٧٥)، بحر العلوم (٢/٢٠٨)، تفسير ابن كثير (٤/٤٠٨)، تفسير السعدي (ص:٤٠٤)، تفسير القرطبي (٩/٢٥٧).

فإنه لولا ذلك لكنا هالكين؛ لتعمد الإثم. فمن ذا يرحمنا إذا لم ترحمنا؟

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾، أي: سوف أسأل ربي أن يعفو عنكم ذنوبكم التي أذنبتموها فيّ وفي يوسف ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه.

وإنما وعدهم بالاستغفار في المستقبل إذ قال: سوف أستغفر لكم ربي للدلالة على أنه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل، ويعلم منه أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى، ولكنه أراد أن ينبههم إلى عظم الذنب، وعظمة الله تعالى، وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة.

روي عن محارب بن دثار أنه قال: كان عم لي يأتي المسجد فسمع إنسان يقول: اللّهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحر فاغفر لي.فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسئل عبد الله بن مسعود عن ذلك فقال: إن يعقوب عليه السلام أخر بنيه إلى السحر. ويقوي هذا التأويل: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له)(١) (٢).

ويبدو أن حالهم بعد هذه التوبة قد حسنت، وذهب عنهم طيش الماضي، وعاشوا على خير وصلاح، قال السعدي-وهو يسرد فوائد هذه القصة-: "ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم

---

(١) متفق عليه.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/ ٥٤)، المحرر الوجيز (٣/ ٢٨٧)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٠)، تفسير الخازن(٣/ ٣١٥)، تفسير الطبري (١٦/ ٢٦١)، روح المعاني (١٣/ ٥٥).

انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين"(١).

ثانيًا: اعتذار امرأة العزيز:

اقترفت امرأة العزيز ذنبًا كبيراً في حق يوسف عليه السلام بمراودته، ثم باتهامه، فلما أدرك زوجها ذلك لم يعاقبها، بل أمرها بالاستغفار من خطيئتها حيث قال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٢٩].

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية في **أمرين**:

القائل لامرأة العزيز هذا القول، والمراد بالاستغفار والجهة التي يطلب منها غفران ذنبها:

أ-أما القائل فقد قيل: إنه الشاهد قال ليوسف: سليه أن لا يعاقبك على ذنبك الذي أذنبتِ، وأن يصفح عنه فيستره عليك.

وقيل: إنه زوجها.

ب-وأما المراد بالاستغفار وجهته فقد اختلف فيه المفسرون إلى **قولين**:

الأول: توبي إلى الله من ذنبك؛ فإنك قد أثمت.

الثاني: استعفي زوجك؛ لئلا يعاقبك، قاله ابن عباس، وهذا على قول من يرى أن القائل لها هو الشاهد.

فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل أنهم كانوا يرون ذلك ذنبًا، ويستغفرون منه، وإن كانوا مع ذلك مشركين، فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش

---

(١) تفسير السعدي (ص:٤٠٨).

ويستغفرون الله منها، حتى (إن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع هند بنت عتبة بن ربيعة بيعة النساء على أن لا تشرك بالله شيئًا، ولا تسرق ولا تزني، قالت: أو تزني الحرة؟!) وكان الزنا معروفًا عندهم في الإماء؛ ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحرية في مقابلة الرق...والفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها وكراهتها، وأولئك القوم كانوا يقرون بالصانع مع شركهم[1].

غير أن المرأة لم تعمل بهذه الوصية، بل استمرت في إصرارها، ولكن يوسف يأبى كل الإباء، حتى عاقبته بإدخاله السجن، وشاع بين الناس أنه ما دخل السجن إلا لكونه راودها.

فلما جاء أمر الملك بإطلاقه من سجنه أبى يوسف ذلك حتى تبرأ ساحته من التهمة، فطلب يوسف من الملك سؤال النسوة- شريكات امرأة العزيز في الكيد له-عن خطبهن في مراودة يوسف، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥١-٥٣].

تقول: الآن تبينت وظهرت براءة يوسف ثم اعترفت على نفسها بالمراودة، وأن يوسف صادق فيما قال، ذلك ليعلم يوسف أني لم أكذب عليه أو أرميه بذنب هو بريء منه في حال غيبته، والإشارة بذلك إلى توبتها وإقرارها، والتقدير: توبتي

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٤)، تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٠٠)، تفسير الطبري (١٦/ ٦١)، زاد المسير (٤/ ٢١٣)، مجموع الفتاوى (١٥/ ١٤٦).

وإقراري هذا ليعلم أني لم أخنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، يقول: وأن الله لا يسدّد صنيع من خان الأمانات، ولا يرشد فعالهم في خيانتهموها.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ هذا منها اعتراف بعد الاعتراف السابق، وفيه الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات كأنها قالت: وما هذا ببدع ولا ذلك نكير على البشر فأبرئ أنا منه نفسي، والنفوس أمارات بالسوء مائلة إليه، فالنفس البشرية- التي من جملتها نفسي- في حد ذاتها لأمارة بالسوء مائلة إلى الشهوات، مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها، بل إنما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك ومن جملتها نفسي، أو هي أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء منقطع أي: لكن رحمة ربي هي التي تصرف عنها السوء.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة لما يعتري النفوس بموجب طباعها، ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك، وإيثار الإظهار في مقام الإضمار مع التعرض لعنوان الربوبية؛ لتربية مبادئ المغفرة والرحمة[1].

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (٢/ ٢٢)، المحرر الوجيز (٣/ ٢٦٣)، بحر العلوم (٢/ ١٩٨)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٥- ٢٨٦).

المطلب الثالث: تأملات في المعصية والاعتذار منها في هذه القصة:

١-سالك طريق الذنب عن قصد وإصرار لا يقف عند ذلك الذنب، بل قد يتعداه إلى سلسلة من الخطايا ربما لا تقف عند غاية.

٢-المعصية المتزينة -خاصة المتعلقة بالشهوة- تحتاج إلى فرار ومفارقة البيئة، ولا يصدق المرءُ الشيطانَ بالبقاء اختباراً للصبر وقوة الإيمان.فكم من إنسان في مكان تتزين فيه المعاصي ومازال فيه دون مفارقة!

٣-المعاينة واللقاء بين الرجال والنساء- خصوصًا مع توفر دواعي الفتنة وحصول الخلوة وطول الملازمة- هو الداء الذي لا دواء له إلا المفارقة العاجلة بأقل الجراحات.

٤-الاعتراف بالذنب خير من التمادي في الباطل؛ فاعتراف إخوة يوسف وامرأة العزيز بالجناية أظفرهم بالعفو وصلاح الشأن، ورفع المنزلة.

٥-ما أعظم اعتذار امرأة العزيز! فقد بادرت إلى الاعتذار قبل أن يوجه إليها الأمر به على التخصيص، ونسبت المراودة إلى نفسها، وشهدت ليوسف بالصدق في نسبة المراودة إليها، واستدركت على نفسها بأنها لم تخن زوجها بحصول الفاحشة، وإنما هي مجرد مراودة، ولم تخن يوسف بالكذب عليه وإضافة السوء عليه حال غيابه؛ لأن يوسف لم يكن حاضراً ذلك المجلس، ثم أردفت ذلك ببيان أن الخائنين لا يظفرون بتوفيق الله لهم.وذكرت أن نفسها ليست معصومة، بل تقع منها الخطايا؛ لأن النفس كثيرة الأمر بالسوء لأهلها إلا من رحمه الله فنجا من ذلك، ثم ختمت اعتذارها واعترافها بأن الله غفور رحيم؛ لعلها ترجو رحمة الله بقبول توبتها ومغفرته لذنوبها.

الذُّلُّ والعِزُّ

المطلب الأول: الذل:

التعريف:

لغة:

(**ذل**) الذال واللام- في التضعيف والمطابقة- أصلٌ واحد يدلُّ على الخُضوع، والاستكانة، واللِّين. فالذُّل: ضِدّ العِزّ. وهذه مقابلةٌ في التضادِّ صحيحة، تدلُّ على الحكمة التي خُصَّتْ بها العرب دون سائر الأمم؛ لأنّ العزّ من العَزَازِ، وهي الأرض الصُّلْبة الشديدة. **والذِّلُّ** خلاف الصُّعوبة. وحُكي عن بعضهم أنَّه قال: "بعضُ الذِّلِّ-بكسر الذال- أبْقَى للأهْلِ والمال".

يقال: ذل ذلاً وذلة ومذلة ضعف وهان، فهو ذليل وهي ذليلة، والذل: الضعف والمهانة، **والذليل**: الضعيف والمهان، **ويقال**: بيت ذليل قريب السقف من الأرض.

وذَلَّ يذِلُّ ذُلاًّ وذِلَّة وذَلالة ومَذَلَّة فهو ذلِيل بَيِّن الذُّلِّ والمَذَلَّة من قوم أَذِلاّء وأَذِلَّة وذِلال، وأَذَلَّ الرجلُ صار أَصحابه أَذِلاَّءَ، وأَذَلَّه وجده ذَلِيلاً، واسْتَذَلُّوه رأَوه ذَلِيلاً، ويُجْمَع الذَّلِيل من الناس: أَذِلَّة وذُلاَّناً.

والذل- بِالْكَسْرِ- فِي الدَّابَّة ضد الصعوبة، وبالضم فِي الْإِنْسَان ضد الْعِزّ؛ لِأَن مَا يلْحق الْإِنْسَان أَكثر قدرًا مِمَّا يلْحق الدَّابَّة، فَاخْتَارُوا الضمة لقوتها للْإِنْسَان،

والكسرة لِضعْفِهَا للدابة.

وَقيل: بِالضَّمِّ: مَا كَانَ عَن قهر، وبالكسر: ما كان بعد تصعّب، وشماس من غير قهر.

ويقال: الذُّلُّ والقُلُّ، والذِّلَّةُ والقِلَّةُ.

والذُّلُّ متى كان من جهة الإنسان نفسه لنفسه فمحمود، نحو قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٥٤] (١).

اصطلاحًا:

من خلال ما سبق يمكن أن نعرف الذل اصطلاحًا فنقول هو: عبارة عن ضعف وانكسار يلحق الإنسان بسبب حاجة ظاهرة، أو تسلط قوة قاهرة.

وهذا الذل الذي قصدناه إنما هو الذل بين المخلوقين، وهو الذي أشارت إليه آيات القصة، وليس ذل المخلوق للخالق فذاك له تعريف وموضع ليس مكانهما هنا.

نافذة:

إن الظلم شيمة من شيم النفوس غير الزكية، التي تطلب عزها من ذل الآخرين، وراحتها من عنائهم، وغناها من افتقارهم، وابتسامها من دموعهم.

فينشأ بفعل الظلم من يُكسى جبة الذل من غير رضا بها، ويتجرع آلام

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٣٤٥)، المعجم الوسيط (١/٣١٤)، لسان العرب (١١/٢٥٦)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٦٨)، الكليات (ص:٤٦٢).

الإذلال منتظراً فرج الله بالعز.

وقد يكون هناك قوم أذنبوا وظلموا غيرهم، وصاروا سببًا في ذلهم، فكوفئوا على ذلك بإصابتهم بالذل جزاء وفاقًا، فكما أذلوا غيرهم أذلهم الله، والجزاء من جنس العمل.

وفي هذه القصة سنمر بمشاهد للذل لمن لم يكن أهلاً لذلك، وبمقابلها مشاهد ذل لقوم استحقوا ذلك الذل بمعاصيهم العدوانية.

لهذا سنذكر أربع صور من صور الذل عرضتها هذه القصة:

أولاً: ذل الرق:

قضى حسد إخوة يوسف بإلقاء يوسف في الجب، ومن الجب وصل إلى أيدي السيارة الذين باعوه رقيقًا إلى عزيز مصر. فصار يوسف الصديق مأسور الحرية، مقيد التصرف، يقاسي الحرمان، بعيداً عن أبيه وأسرته.

وغدا يتحكم في شأنه غيره، يأمره وينهاه وليس له إزاء ذلك إلا الاستجابة والتنفيذ.

لا يستطيع الخروج من تلك العباءة السيادية، ولا المغادرة عنها إلى آفاق الحرية؛ حيث يصنع ما يريد كما يريد.

هكذا وصل يوسف عليه السلام إلى هذه الحياة الجديدة التي كان لا يعرفها وإنما يسمع عنها، أوصلته إليها جناية الجاني الذي طلب راحته بشقاء غيره.
ولكن الله تعالى تفضل على يوسف بسيد أكرم مثواه، فخفف عنه بعض ذل الرق وأوجاعه.

ومع ذلك كله كان حنينه إلى الحرية وشوقه إلى حياته السابقة في حضن أبيه المحب يعكر عليه ما يجد من الراحة في بيت العزيز، وكان لسان حاله:

قضَّيتُ عهدَ حداثتي ما بين ذلٍّ واغترابْ
لم يُغنِ عني بين مشـ ـرقها ومغربها اضطرابْ
لم يبقَ من أهلي سوى ذِكْرٍ تناساه الصحاب[1].

ثانيًا: ذل السجن:

انتقل يوسف عليه السلام من ضيق الرق إلى ضيق أشد منه، لكنه ضيق سيوصله إلى سعة عظيمة، وذل سيمكنه من معاقد العز المنيف.

فحينما كان يوسف عليه السلام يأبى موافقة امرأة العزيز في هواها كانت تهدده بالسجن والصغار، ففي يوم جمع النسوة قالت لهن: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢]. **يعني**: الذليلين.

ومع استمرار المراودة الأنثوية التي يقابلها الاستعصام اليوسفي نفذت تلك المرأة وعيدها، فدخل يوسف السجن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٥].

وكان يوسف عليه السلام قد اختار ذلك السجن على تلك المعصية فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣].

(١) في الأدب الحديث (٢/١٩٨).

"أي: ذلك الذل والصغار أَحَبُّ إِلَيَّ، أي: آثَر عندي وأخير في الدِّين مما يدعونني إليه؛ وإن كان ما يدعونه إليه تهواه نفسه، وتميل إليه وتحبه؛ فأخبر أن السجن أحبّ إليه"(١).

أقام يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، لا يؤنسه إلا ذكر الله تعالى والدعوة إليه.

وصار أمره بيد السجّان وآمريه، منتظراً فرج الله تعالى بالخروج.

غير أنه لم يكن يدري بأن الله تعالى سيبلغه من الآمال فوق أمله الذي حصره بالخروج فحسب، ولم يكن يعلم بأن الله قدر عليه السجن ليصعد به إلى قنن العز الشامخة، وقمم الرفعة الباذخة، وسيلقي عن جسده ثوب العناء والمحن، وسيلبس حُلَّة المنح والعز العظيم.

حتى جاء اليوم الموعود بمجيء الفتى الناجي برؤيا الملك.

ثالثًا: ذل الحاجة والفاقة:

مرت الأعوام فخرج يوسف من محنه إلى عز سلطانه، ووظيفته الجديدة التي قضى منها المرحلة الأولى- السنوات المخصبة-، ثم جاءت المرحلة الثانية- السنوات المجدبة- فعم القحط بلاد الشام ومصر، وكان يوسف عليه السلام قد ملأ الخزائن بالطعام؛ استعدادًا لتلك السنوات العجاف، فلم يجد أهل الشام وجهة للتزود غير مصر، فوفدوا عليها أيام ولاية يوسف، فدخلوا عليه فعرفهم ولم يعرفوه.

(١) تفسير الماتريدي (٦/٢٣٥).

فأعطاهم وأحسن إليهم، وأمرهم بالإتيان ببنيامين فلم يسعهم إلا السمع والطاعة، ولما احتبس يوسف بنيامين بسبب الصواع استرحموه واستعطفوه، وتوسلوا إليه بنعته والثناء عليه، وذكر حال أبيهم ليسترئفوه، فقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨].

فرجعوا إلى أبيهم فردهم إلى مصر مرة أخرى فدخلوا على يوسف المردَّى بعز الاستغناء، وهم في ثياب ذل المسكنة والفقر، تكاد مناظرهم تنطق بذلك قبل ألسنتهم فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعني: الشدة والفقر والجوع، وأرادوا بأهلهم: من خلفهم، ومن وراءهم من العيال ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أي: ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع. ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل: أي: يجعله تامًا لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم إما بالمسامحة، وإما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم، وإما بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروي، أو التوسيع عليهم في الدنيا.

وإنما قدموا هذا الكلام ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز

العطف والرأفة، وتحريك سلسلة المرحمة، كما ذكروه استدراراً لعطفه، وتحريكاً لمروءته وسخائه، قبل أن يخبروه بمطلبهم الذى حكاه القرآن في قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: هذا هو حالنا شرحناه لك، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة، ما دام أمرنا كذلك، فأتم لنا كيلنا، ولا تنقص منه شيئًا، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة[1].

فسبحان الله كيف ذلوا بين يديه، وألجأتهم الحاجة إليه بعدما فعلوا به ما فعلوا!

قال ابن الجوزي: "و من عجائب الجزاء في الدنيا: أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف، و شروه بثمن بخس؛ امتدت أكفهم بين يديه بالطلب، يقولون: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾"[2].

وقال ابن القيم: "والمقصود أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي فقالوا ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب،وبيعه بيع العبيد"[3].

---

(١) ينظر: تفسير الخازن(٣/٣١١)، الوسيط لسيد طنطاوي (ص:٢٣٤٥)، تفسير أبي السعود (٤/٣٠٣)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٣٦)، فتح القدير (٣/٧١).

(٢) صيد الخاطر (ص:٣٤).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/١١٧).

رابعًا: ذل الجناية:

وكما انتقل يوسف عليه السلام من ذل الرق إلى ذل السجن بسبب جناية إخوته عليه؛ فقد انتقل إخوته أيضًا من ذل الحاجة إلى ذل الإحساس بألم ما اقترفوا في حق يوسف بين يديه وهو عزيز مصر الذي أحسن إليهم وأكرمهم.

فقد بقوا مدة يطلبون منه الميرة في وقت شدة الحاجة، وهو ينيلهم بسخاء ويكرم نزلهم، ولما حصلت قضية الصواع ازدادوا حرجًا عنده، واستولى عليهم الخجل فذهبوا، ولكن الفاقة ألجأتهم إليه مرة أخرى للاستطعام؛ إذ لم يجدوا غيره محسنًا، فجاءوا إليه في ثياب الذل يستطعمونه ويسترحمونه وهم يذكرون ما نسب إلى بنيامين فيذوبون خجلاً، لكن ليس لديهم حيلة إلا الوقوف بين يديه موقف الذليل؛ فإنهم لما قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].

هنا رقّ لهم يوسف إذ رآهم على هذه الحال من الذل والعوز فتعرف إليهم بوحي الله له.

ولكن لابد لاستكمال درس تأديبهم من إعطائهم الحصة الأخيرة منه، فانتقل بهم إلى المشهد النهائي الذي يبدون فيه أذلاء بين يديه؛ لكي يعتبروا بأن الظالم إذا لم يتب لابد أن يقف موقف الذل، ويشهد مشاهد التأديب أو العقاب؛ ليعلم أن أحوال البشر لا تدوم على حال، وأن ما أراد الله حصوله لابد أن يكون، ولا يمكن ليد البشر أن تحول دون ذلك؛ فلهذا **قال** لهم يوسف الصديق- مذكراً لهم بماضيهم المظلم معه ومع أخيه-: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ

جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

يقول موبخًا ومذكراً لهم بأفعالهم الذميمة وإهانتهم له ولأخيه؛ إذ تلك المعاملة السيئة تنافيها الأخوة، وقد أراد بقوله: ﴿مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التفريقَ بينهما في الصغر ومضرتهم ليوسف، وإذايتهم أخاه من بعده؛ فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه، ولم يشر إلى قصة بنيامين الآخرة؛ لأنهم لم يفعلوا هم فيها شيئًا.

وقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقد نسبهم إلى الجهل إما لذلك، وإما إلى جهل السيئات، وقلة الحُنكة، وإما إلى الجهل بعواقب أفعالهم، وإما إلى جهل الصغر وطيشه.

وأتاهم يوسف عليه السلام من جهة الدين، وكان حليماً موفقاً، فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ لا تعلمون قبحه؛ فلذلك أقدمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه؟ لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم، وتنصحاً لهم في الدين، وإيثاراً لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويشتفي المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور.

وقد تضمنت الآيات البيان عما يوجبه الجهل من سلوك طريق الغي، وحمل النفس على الظلم، الذي يؤدي إلى الذل بعد العز، والفقر بعد الغنى[١].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢/١١٢)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٣٢)، النكت والعيون =

فلما **قال** لهم يوسف تلك العبارة دهشوا وطفق الخجل يحيط بهم من كل جانب، وربما بدأ الخوف يدب في قلوبهم؛ خشية أن يثأر يوسف لنفسه اليوم وهو في كامل قوته وسلطانه، وليس لهم شيء يدفع عنهم بطشه وأخذته.

قال ابن عطية: "فلما خاطبهم هذه المخاطبة- ويشبه أن يكون قد اقترن بها من هيئته وبشره وتبسمه ما دلهم- تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أنه يوسف فخاطبوه مستفهمين استفهام مقرر"[(١)] قائلين: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

إنهم تَعجَّبوا من أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه؛ فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فكأنه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأنا يوسف وهذا أخي، قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة [(٢)].

فلما سمعوا ذلك قالوا في ذل وخزي: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩١].

= (٣/٧٤)، بحر العلوم (٢/٢٠٨)، تفسير ابن كثير (٤/٤٠٨)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٣٦)، المحرر الوجيز(٣/٢٨٣)، البرهان في علوم القرآن للإمام الحوفي - سورة يوسف (ص:٣١٠).

(١) المحرر الوجيز.(٣/٢٨٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٠٨)، تفسير أبي السعود (٤/٣٠٤)، التحرير والتنوير (١٢/١١٣).

وهنا يجسد في أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه في الماضي، فينتابهم الخزي والخجل، حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان عليهم، فقالوا له في استعطاف وتذلل: ﴿تالله لَقَدْ آثَرَكَ الله عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي: نقسم بالله تعالى لقد اختارك الله تعالى لرسالته، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة. أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك، ومتعمدين لما ارتكبناه في حقك من جرائم، ولذلك أعزك الله تعالى وأذلنا، وأغناك وأفقرنا، ونرجو منك الصفح والعفو.

يقولون: وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرم أنّ الله أعزّك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك(١).

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ٤١٣)، تفسير الكشاف (٢/ ٤٧٣).

المطلب الثاني: العز:

التعريف:

لغة:

(**عز**) العين والزاء أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على شدّةٍ وقوّةٍ وما ضاهاهما، من غلبةٍ وَقهر.

ويقال: عَزّه على أمرٍ يَعِزُّه، إذا غلبَه على أمره.وَعز فلَان يعز-بِالْكَسْرِ-: قوي بعد ذله، وأعزه قوّاه، وجعله عزيزاً، وأحبه وأكرمه.

وعز فلَان عزاً وَعزة وعزازة قوي وَبرئ من الذل، وَيُقَال: عز فلَان على فلَان كرم عَلَيْهِ، وَعز الشَّيْء قلّ فَلَا يكَاد يُوجد، وَعز الْأَمر عَلَيْهِ اشْتَدَّ، يُقَال: عز عَليّ أَن تفعل كَذَا اشْتَدَّ وشق.فَهُوَ عَزِيز، والجمع أعزة وأعزاء وعزاز.

والعزة: القوة والغلبة والحمية والأنفة، والعِزُّ في الأَصل: الشدة والغلبة، والعِزُّ والعِزَّة: الرفعة والامتناع، وخلاف الذل[1].

اصطلاحًا:

العز: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلَب[2]، أو يقع في موقع ذل.

وقيل: التأبي عَن حمل المذلة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٣٨)، المعجم الوسيط (٢/٥٩٨)، لسان العرب (٥/٣٧٤)، الكليات (ص:٦٣٦).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن(٢/٩٠).

وَقيل: الترفع عَمَّا تلْحقهُ غَضَاضَة[1].

نافذة:

إن العز الذي نريده هنا هو العز المحمود وهو عز المؤمن الذي وصل إليه بفضل الله تعالى، وحسن طاعته، ومنه: عز يوسف عليه السلام الذي تحلى به في مواطن يذل فيها أناس لشهواتهم وأهوائهم ونفوسهم، وعزه الذي آل إليه بعد سنوات الصبر والمحن المتلاحقة، فكان ذلك مكافئة من الله تعالى ليوسف على كفاحه، وتحمله شدائد الأحوال.

ففي هذه القصة نرى مشاهد عديدة من عز يوسف عليه السلام الذي اتصف به، أو الذي منحه الله إياه.

أولاً: عز العفة:

هذا النوع من العز لا يصل إليه إلا كل كريم قد استطاع أن يغلب هواه وشهوته، والنصر عليهما ليس بالأمر اليسير على كل نفس.

فمن أراق ماء عفته وأطاع هواه وعصى مولاه، فهو من أذل الخلق، وقد قيل: "عَبْدُ الشهوة أَذلّ من عبد الرِّقّ"[2].

ومن منع شهوته، وألجم هواه، وتعفف في مواطن الحرام فهو من أعز الخلق.

(١) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص:٢٠٣).

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب (٢/١٦٨).

"فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه، وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف، والغنى والجاه عند الله وعند الناس، قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته"[1].

و"يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه، ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه، **قال** الحسن: إنهم وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين؛ إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه"[2].

قال ابن القيم: "فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكبرهم؛ فهم أذل الناس بواطن. قد أجمعوا بين رذيلتي الكبر والذل". ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته"[3].

ويوسف الصديق عليه السلام تزينت له الفتنة كي تسرق عفافه، ويصير ذليلاً في تلبية داعي الهوى، فما قبل هذا الذل، ولا رضي لنفسه الكريمة بهذا الهوان، بل أطاع ربه، وعصى الهوى، وتلك المرأة، فقال في عزة طاعته: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

ولو أطاع يوسف منادي الفاحشة لصار في ذل؛ إذ إن الذل نتيجة حتمية

(١) روضة المحبين (ص:٤٨٣).

(٢) روضة المحبين (ص:١٠٢).

(٣) روضة المحبين (ص:٤٧٣)، الجواب الكافي (ص:١٢٦).

للعصيان، يقول ابن القيم-وهو يسوق عقوبات المعاصي وآثارها-: "ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العِلية؛ فان الله خلق خلقه قسمين: عِلْيَةً وَسَفَلَةً، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء، كما في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي أنه قال: (جعلت الذلة والصغار على من خالف أمري)، وكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتي يكون من الأسفلين"[1].

ثانيًا: عز البراءة من التهمة:

إن المتهم بالخطيئة-والتهمة فيه صادقة-منكس الرأس، يغشاه الذل ويلبسه الصغار؛ خصوصًا إذا سيق بذلك إلى أيدي العقاب.

لكن حينما يكون المرء طاهر الثوب فإنه إذا اتهم بالسوء فسيبقى عزيزاً مرفوع الهامة، يستطيع الإفصاح عن طهارته، والدفاع عن نفسه بكل جرأة.

فيوسف عليه السلام عندما طلب الملك إخراجه من السجن عقب تعبيره رؤياه؛ لم يقبل يوسف هذا العرض المغري؛ ليتخلص به من عناء سجنه، وإنما طلب من الملك فتح ملف تحقيق مع النسوة-ومنهن امرأة العزيز-اللاتي رمينه بالمراودة ظلمًا؛ لأنه لو وافق على الخروج من دون ذلك لخرج ومعرة التهمة

(١) الجواب الكافي (ص:٥٨).

مازالت باقية، كما أنه لو كانت التهمة فيه حقة لسارع إلى القبول من غير ذلك الطلب.

فجمع الملك النساء وتحقق من أمر التهمة، فاعترفت تلك النسوة وامرأة العزيز ببراءة يوسف مما رمي به، وشهدن جميعًا بسلامته من السوء، وكمال عفته ونزاهته.

فكسب يوسف عليه السلام بذلك أول عز له قبل أن يفارق موضع سجنه، ليخرج من هناك بعزة البراءة التي ساقته إلى أنواع أخرى من العز.

ثالثًا: عز المكانة المرموقة لدى الملك:

إن يوسف عليه السلام لما عرف الملك علمه وعقله، وصيانته وعفته طلب خروجه؛ ليكون من خلصائه، وملئه المقربين، ولم يخرجه ليعود إلى بيت العزيز رقيقًا معذبًا تحت سلطان المرأة المفتونة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

رابعًا: عز الوظيفة السامية:

إن تنويه الملك بشأن يوسف والثناء عليه -فيما تقدم- تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته، وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير؛ فلذلك أجابه[١] بقوله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥].

(١) التحرير والتنوير (١٢/٨١).

فتولى يوسف عليه السلام خزائن مصر، وهي الوظيفة المهمة استعداداً لنفع الأمة بحسن تدبيره في السنوات المقبلات، فصار أمر الناس إليه في طعامهم وأموالهم، وصار إلى عز شامخ.

وعقب هذا النوع من العز يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

فمكَّنه الله من أرض مصر، حتى ملكها بأجمعها؛ وذلك أنه لما فوض إليه الملك اجتهد في جمع الطعام وتكثير الزراعات، حتى دخلت السنون المجدبة، وعم القحط مصر والشام، ونواحيهما، وتوجه الناس إليه، فأحسن إعطاءهم.

حتى صار الأمر إلى أن كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوّأ له؛ لم يمنع منه؛ لاستيلائه على جميعها، ودخوله تحت ملكته وسلطانه[1].

خامسًا: عز العفو والإحسان:

في يوم وقوف إخوة يوسف بين يديه أذلاء يحملون صغار عدوانهم عليه؛ لم يكن يوسف يومذاك واقفًا على رؤوسهم موقف المنتصر المقتص، أو المنتقم القادر؛ فإن هذا الموقف لو كان ربما فيه شفاء للنفس، وانتصار على الغيظ، ولكن ليس فيه لدى الكرماء وأهل الرفعة ريح العز.

وقديمًا قيل: "إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه"[2].

---

(١) البحر المديد (٣/٣٩٦)، تفسير الكشاف(٢/٤٥٥).

(٢) الإعجاز والإيجاز (ص:٣٩).

فلهذا كظم يوسف غيظه و انتصر على نفسه، فعفا عن إخوته عفو العزيز المقتدر، والعفو عند المقدرة من أخلاق الرجال العظماء.

مَـا أَحْـسَنَ العَفْـوَ مِـنَ القَـادِرِ   وَلَا سِـيَّمَا عَـلَى غَـيْرِ ذِي نَـاصِرِ[1].

فقال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢]، ولسانه حاله:

صَـفُوحٌ عَـنِ الإِجْـرامِ حَتَّـى كَأَنَّـهُ   مِـنْ العَفْـوِ لَمْ يَعْـرِفْ مـنَ النَّـاسِ

وقال الآخر:

فلـــــما أن ملكنــــــاهمْ عفونـــــا   وحـسنُ العفـوِ في كـرمِ الطبـاعِ[3].

ولم يقف يوسف عليه السلام مع إخوته عند حد العفو، بل سعى به الكرم وطيب النفس إلى درجة الإحسان، فطلب منهم المجيء مع سائر أسرته إلى مصر حيث الكفاية والعز واجتماع الأحبة، **قال** تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣].

سادسًا: عز تحقق الرؤيا:

وصل آل يعقوب إلى مصر، فأحسن يوسف استقبالهم وإكرامهم، ورفع أبويه حتى أقعدهما على سرير سلطانه، ثم خرَّ له أبواه وإخوته ساجدين تكريمًا وتعظيمًا، لفضله عليهم وإحسانه إليهم، فلما رأى يوسف ذلك تذكر رؤياه، قال تعالى:

---

(١) الدر الفريد وبيت القصيد (٣/٤٥٨).

(٢) التذكرة الحمدونية (٢/١٤٢).

(٣) الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى (ص:٩٨).

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[يوسف:١٠٠].

فإخوة يوسف الذين كادوا له، وفعلوا به ما فعلوا ها هم اليوم ينحنون أمام عزه سجداً، تحية وإكباراً لهذه النفس العظيمة التي اصطفاها الله من بينهم للنبوة ونفع الخلق.

سابعًا: عز الآخرة:

لا ريب أن صلاح الإنسان في الدنيا سبب لعزه في الآخرة، وكلما كان صلاحه في الدنيا أعظم كان عزه في الآخرة أتم.

فحينما ذكر الله تعالى ما أعطى يوسف من العز في الدنيا؛ جزاء تقواه وصبره وإحسانه في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦]، أعقب ذلك بقوله: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يوسف:٥٧].

والمراد أن يوسف عليه السلام وإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا، إلا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل، وفيه دليل على أن الذي أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله في الدنيا من الملك(١).

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ١٣١)، تفسير الخازن (٣/ ٢٩٤).

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الذل والعز في قصة يوسف عليه السلام:

١-كان يوسف عليه السلام في يوم البلاء صبورا، وفي يوم العز شكورا، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم.

٢-الحرية نعمة عظيمة لا يدرك قدرها إلا من ذاق آلام تضييقها، وحُرم نسمات أيامها الجميلة.

٣-ما أعظم جرم من أوصل عزيزاً إلى منحدر ذل، بغيًا وعدوانًا!

٤- سنوات الإذلال الظالم مملوءة الزمان والمكان بأنّات الذليل المظلوم، ودعواته الصاعدة إلى ذي العزة والجبروت تستنزل منه الفرج للمظلوم، وتستعجل العقوبة بالذل للظالم.

٥- ما أعظم عز الطاعة وأحسنه لسكون النفس ورفعتها، وإبعادها عن مواطن الذل وهيئات المسكنة بين أيدي الخلق!

٦- لله كم في موقف إخوة يوسف مع يوسف من عبر وعبرات، وهم بين يديه يسترحمونه ويطلبونه، ويذلون بين يديه، وهو قد أحسن إليهم، وأكرم نزلهم ثم يفجؤهم بخبر بأنه يوسف، فكم غشَاهم بذلك الخبر من الخجل وردّاهم ثوب الحياء، وهم يتذكرون ذلك الماضي المخزي الذي صنعوه به، وظنوا أنهم لن يروه بعد ذلك، ثم هم يرونه في مكانة سامية مكانة عزيز مصر، وهو في أبهة الملك، وقوة الجاه، ورفعة الإحسان، ثم هو مع هذا السلطان يقابلهم بالعفو والدعاء.إن ذلك الموقف ربما كان أشد على نفوسهم من ألم يوسف في الجب بفعلتهم.

٧-إذا كان في معصية الله عز فما أسفله، وإذا كان في طاعة الله ذل فما أجمله! فيوسف زجر نفسه عن المعصية و آثر ذل السجن على عز الاستجابة لرغبة امرأة العزيز فأورثه الله العز عنده وعند خلقه. "**قال** بعض السلف: من كان له واعظ من قلبه زاده الله عز وجل عزاً، والذل في طاعة الله أقرب من العز في معصيته "(١).

٨-إننا لو تأملنا حال يوسف عليه السلام في أيام عزه فسنجده على هذه الأحوال **الطيبة**:

أ-شكرُ الله تعالى، والاعتراف بنعمه.

ب-نسبة الفضل فيما ناله إلى الله.

ج-العفو عمن أساء إليه.

د-السعي في نفع الناس، وإزالة الضراء عنهم.

هـ-إكرام الوالدين، والإحسان إلى الأقارب.

ز-الرغبة في الآخرة، وعدم الاغترار بزينة الدنيا.

---

(١) روضة المحبين (ص:٣٩٧).

الدخول والخروج

المطلب الأول: الدخول:

التعريف:

(**دخل**) الدال والخاء واللام أصلٌ مطرد منقاس، وهو الوُلوج، يقال: دخل يدخُل دخولاً، ودخل المكان ونحوه وفيه دخولاً صار داخله، والدُّخُول نقيض الخروج، ويستعمل ذلك في المكان، والزمان، والأعمال، وأدخله المكان ونحوه وفيه صيره داخله.ودَخَلَ في الأمر دُخُولًا أخذ فيه، ودَخَلْتُ على زيد الدار إذا دخلتها بعده وهو فيها.

ويقال: دَخَلْتُ البيت، والصحيح فيه أَن تريد دَخَلْت إِلى البيت، وحذفت حرف الجر فانتصب انتصاب المفعول به؛ لأَن الأَمكنة على ضربين: مبهم، ومحدود؛ فالمبهم **نحو**: جهات الجسم السِّتِّ، فهذا وما أَشبهه من الأَمكنة يكون ظرفاً؛ لأَنه غير محدود، أَلا ترى أَن خَلْفك قد يكون قُدَّاماً لغيرك؟ فأَما المحدود الذي له خِلْقة وشخص وأَقطار تَحُوزه **نحو**: الجَبَل والوادي والسوق والمسجد والدار، فلا يكون ظرفاً؛ لأَنك لا تقول: قعدت الدار، ولا صليت المسجد، ولا نِمْت الجبل، ولا قمت الوادي، وما جاء من ذلك فإِنما هو بحذف حرف الجر نحو: دخلت البيت[1].

(١) المعجم الوسيط(١/٢٧٥)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٣٣٥)، لسان العرب (١١/٢٣٩)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٣٩)، المصباح المنير(ص:١٠١).

ستتحدث عن الدخول في قصة يوسف في النقاط الآتية:

أولاً: صيغ ورود لفظ الدخول في قصة يوسف:

ورد هذا اللفظ في هذه القصة بصيغة الفعل في أقسامه الثلاثة:

١-الفعل الماضي: وقد جاء منه ستة أفعال، خمسة منها متصلة بضمير الجمع، وواحد منها مجرد.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾[يوسف:٥٨].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾[يوسف:٦٨].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى﴾[يوسف:٦٩].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا﴾[يوسف:٨٨].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾[يوسف:٩٩].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف:٣٦].

٢-الفعل المضارع: ورد منه فعل واحد مجزوم بـ لا الناهية. قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾[يوسف:٦٧].

٣-فعل الأمر: ورد منه فعلان متصلان بضمير الجمع.

قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف:٦٧]، وقال: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[يوسف:٩٩].

ثانيًا: مواضع الدخول:

أولاً: السجن:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف:٣٦]. " أي : فسجنوه، واتفق أنه دخل معه في ذلك اليوم رجلان آخران"(١).

وقد ذكر القرآن هذا الدخول دون أن يشير إلى سبب ذلك.

أما المفسرون فقد ذكروا أن الفتيين كانا خباز الملك وساقيه، وذكروا أن سبب إدخالها السجن تهمتها بإرادة سم الملك.والله أعلم.

وقد بقي هذان الفتيان في السجن مدة، ثم خرجا، فقُتل أحدهما وبقي الآخر.

ثانيًا: مكان يوسف في مصر:

وكان لإخوة يوسف أربعة دخولات على يوسف:

الدخول الأول: قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[يوسف:٥٨].

وهذا الدخول هو أول دخولهم إلى مصر، وكان ذلك في سنوات الجدب؛ فقد بلغهم أن في مصر عزيزاً يمير الناس الطعام، ويحسن إليهم، فوردوا تلك الأرض لذلك.

وفي هذا الدخول جرى اللقاء بين يوسف وإخوته فعرفهم بعلامات وهم لم يعرفوه؛ لتغير هيئته، واستبعاد أن يصير أمره إلى ذلك، وطول سنين الفراق بينهم

(١) البحر المديد (٣/ ٣٨٢).

وبينه.

ولا ريب أن يوسف فرح فرحًا عظيمًا بهذا اللقاء؛ لأنه سيتوصل به إلى لقاء أبيه بعد حين، لكنه لم يظهر لهم ذلك.

وفي هذا الدخول الأول رجع إخوة يوسف بطلبه إرسال بنيامين في الدخول الثاني.

الدخول الثاني: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:٦٩].

في هذا الدخول جاء إخوة يوسف ببنيامين؛ طلبًا لزيادة الطعام، ونزولاً عند رغبة العزيز الذي أكرمهم وأحسن إليهم.

وفي هذا الدخول الثاني حصل الآتي:

أ- تعرَّف يوسف إلى بنيامين، واستمر في عدم تعريف نفسه لإخوته، وكل ذلك بوحي من الله تعالى.

ب–حصلت حيلة الصواع؛ لإبقاء بنيامين لدى يوسف.

ج–بقي بنيامين في مصر، ورجع إخوته إلى أبيه.

الدخول الثالث: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].

وفي هذا الدخول جرى الآتي:

أ-دخول إخوة يوسف عليه في مظهر الاسترحام والمسكنة، وشكوى الحاجة، وطلب الإحسان إليهم بالطعام.

ب-تذكير يوسف لإخوته بما فعلوا به في الماضي.

ج- حصل التعارف بين يوسف وإخوته.

د-عفو يوسف عن إخوته ودعاؤه لهم.

ه-إرسال قميصه معهم إلى أبيه، وطلب الإتيان بأهلهم أجمعين إليه.

الدخول الرابع: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[يوسف:٩٩].

وفي هذا الدخول حدث الآتي:

أ-دخل آل يعقوب كلهم مصر.

ب-كان هذا الدخول أسعد دخول وآمنه ليعقوب وبنيه.

ج-استقبال يوسف لأسرته عند دخولهم، وزيادة إكرامه لأبويه.

د-كان هذا الدخول للاستقرار في ظل العز والغنى، وليس كالأنواع الثلاثة الماضية.

ثالثًا: أبواب مصر: قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧].

وفي هذا الدخول جرى الآتي:

أ-سبب هذا الدخول: هو طلب الميرة للمرة الثانية واصطحابهم بنيامين لزيادة كيل بعير، والسماح لهم بالكيل مرة أخرى.

ب-علة هذه الكيفية في الدخول: الظفر بالسلامة من الشر؛ فقد خاف يعقوب على أبنائه إذا دخلوا مصر من باب واحد أن يصابوا بسوء؛ فلذلك أمرهم أن يتفرقوا على الأبواب عند الدخول.

ج-نفذ أبناء يعقوب أمر أبيهم في كيفية الدخول، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨].

المطلب الثاني: الخروج:

التعريف:

(خرج) الخاء والراء والجيم أصل يدل على النّفاذ عن الشَّيء، والخُروج نقيض الدخول، **يقال**: خَرَجَ يَخْرُجُ خُرُوجاً ومَخْرَجاً فهو خارِجٌ وخَرُوجٌ وخَرَّاجٌ، وقد أَخْرَجَهُ وخَرَجَ به، ويقال: استخرجه طلب إليه أن يخرج، واستخرج الشيء استنبطه، واستخرج الشيء من المعدن خلصه من ترابه، وخرج خروجًا برز من مقره أو حاله وانفصل، سواء كان مقره داراً، أو بلداً، أو ثوابًا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه الخارجة.

والمَخْرَجُ: موضعَ الخُرُوجِ، يقال: خَرَجَ مَخْرَجاً حَسَناً،وهذا مَخْرَجُه[(١)].

وسنتحدث عن الخروج في قصة يوسف في النقاط الآتية:

أولاً: صيغ ورود لفظ الخروج ومرادفاته في قصة يوسف:

ورد هذا اللفظ بصيغة الفعل: الماضي، والأمر؛ ففي الماضي جاء منه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[يوسف:٧٦]، وقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾[يوسف:١٠٠].

وفي الأمر جاء منه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[يوسف:٣١].

وأما مرادفات الخروج فقد ورد من ذلك: الفصل، والإرسال، والإذهاب،

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/١٧٥)، المعجم الوسيط (١/٢٢٤)، لسان العرب (٢/٢٤٩)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٢٩٢).

والمجيء الذي هو بمعنى الإخراج من مكان إلى آخر، كما سيأتي معنا.

ثانيًا: صور الخروج ومواضعه في قصة يوسف:

الأول: الخروج من عند يعقوب:

وكان ذلك بخروج إخوة يوسف بيوسف أولاً، ثم ببنيامين بعد ذلك.

فقد طلب أبناء يعقوب من أبيهم الموافقة على خروج يوسف معهم إلى المراعي؛ ليلعب هناك، ويجد المتعة والراحة، وهذا كان ظاهر أمرهم، لكنهم كانوا يبطنون أنه خروج ليوسف بلا عودة إلى أبيه. قال تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١٢].

ويعقوب كان يتوجس من هذا الخروج؛ لمعرفته بكراهية أبنائه ليوسف؛ فلذلك قال لهم - محاولاً إقناعهم بعدم إخراجه معهم -: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[يوسف:١٣].

لكنهم أكثروا المحاولة لإقناع أبيهم بالموضوع، وقطعوا له المواعيد بالحفظ والرعاية، فخرجوا به، ولكن إلى الجب، فألقوا فيه، ورجعوا إلى أبيهم بدونه.

وأما بنيامين فإن إخوته لما ذهبوا إلى مصر طلب يوسف منهم الإتيان به في الدخول الثاني إلى مصر، وإذا لم يأتوا به فلن يكيل لهم مرة أخرى.

فرجعوا إلى أبيهم فطلبوا منه أن يخرج معهم بنيامين إلى مصر للغرض الصحيح المتقدم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:٦٣].

فأبى يعقوب عليه السلام في بدء الأمر؛ لأنه كان يخشى أن يكون هذا الخروج كخروج يوسف من غير رجوع.

لكنه وافق حينما رأى المصلحة من ذلك، وكمل توكله على الله، وأخذ المواثيق على أبنائه في حفظه وإعادته، قال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف:٦٦].

وحينما نتأمل في هذين الخروجين ليوسف وبنيامين نلاحظ الآتي:

أ-لم يكن ليوسف وبنيامين اختيار في الخروج؛ فالطالب هم إخوتهما، والموافق هو أبوهم.

ب-كان إخوة يوسف في إخراج يوسف من عند أبيه قاصدين الشر وفعلوه، وفي إخراج بنيامين كانوا قاصدين الخير.

ج-كان خروج يوسف من أجل مصلحته في الظاهر، وخروج بنيامين من أجل مصلحة الأسرة.

د-كان خروج يوسف من الشام إلى الشام، ثم دخل مصر بعد ذلك، وكان خروج بنيامين من الشام إلى مصر، واستقر فيها.

هـ-كلا الأخوين اُحتبس في خروجه، غير أن احتباس يوسف طال، واحتباس بنيامين قصر، وفي كليهما حصل الحزن ليعقوب.

و-عاد أبناء يعقوب عقب خروج يوسف حزنى كذبًا، وعادوا بعد خروج بنيامين حزنى صدقًا.

ز-خروج يوسف كان سببًا لدخول الحزن على يعقوب، وخروج بنيامين كان بدءاً لدخول السرور عليه بعد حزن يسير.

الثاني: خروج يوسف على النسوة بأمر امرأة العزيز:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف:٣١].

فـ"قولها: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ يقتضي أنه كان في بيت آخر، وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها. وعدي فعل الخروج بحرف "على"؛ لأنه ضمن معنى "أُدْخُل"؛ لأن المقصود دخوله عليهن لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه"(١).

فامرأة العزيز لما سمعت عن نسوة المدينة أنهن يتحدثن عن مراودتها يوسفَ عليه السلام؛ أرادت أن تريهن جمال يوسف حتى يعذرنها فيما فعلت.

فدعتهن إلى بيتها، وأعملت حيلتها في ترتيب أمرها؛ لتكون رؤية يوسف أوقع في قلوبهن، ومما عملته:

أ-دعوتهن لمأدبة عملتها من أجلهن في الظاهر والباطن ليعذرنها في حب يوسف ويعنها عليه.

ب-إدخالهن إلى مكان، وجعل يوسف في مكان آخر.

ج-إعطاؤهن طعامًا من فاكهة أو غيرها وسكاكين؛ ليقطعن ذلك الطعام.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٥٥).

د-إخراج يوسف على النسوة وهن في غفلة انشغالهن، ولما أخرج عليهن وهن على تلك الحال شُدِهن برؤيته، وفعلن بأيديهن ما ذكر الله تعالى، وكانت هذه الحيلة من امرأة العزيز أوقع في الفتنة؛ فإنهن لو جئنا وهو المجلس ودخلن عليه فرأينه لم يكن الأمر بأشد عليهن مما فعلت امرأة العزيز من إخراجه عليهن.

هـ-ويبدو أنها قد زينته في لباسه ليتم لها ما تريد.

الثالث: إخراج السقاية من وعاء بنيامين:

قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦].

احتال يوسف لإبقاء بنيامين عنده بإدخال السقاية في رحله، ولكي لا تنكشف تلك الحيلة بدأ فتيانه بالبحث عن السقاية في رحال إخوته، حتى وصل إلى رحل بنيامين فأخرج منه السقاية.

وبهذا الإخراج استطاع إبقاء بنيامين عنده بشريعة يعقوب.

الرابع: خروج إخوة يوسف من مصر بقميصه إلى أبيه:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف:٩٤].

أي: خرجت منطلقة من مصر متوجهة إلى يعقوب في الشام، يقال : فصل من البلد فصولاً إذا انفصل منه، وجاوز حيطانه، **قال** ابن عباس: لما خرجت

العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف[1].

الخامس: خروج يوسف من السجن:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾[يوسف:١٠٠].

خرج يوسف عليه السلام من السجن، فشكر الله تعالى على هذه النعمة أمام أبيه وإخوته، ولم يذكر خروجه من الجب، **قال** الرازي: "ولم يذكر إخراجه من البئر **لوجوه**:

الأول: أنه **قال** لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[يوسف:٩٢]. ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريباً لهم، فكان إهماله جارياً مجرى الكرم.

الثاني: أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكاً، بل صيروه عبداً، أما لما خرج من السجن فقد صيروه ملكاً، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاماً كاملاً.

الثالث: أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة، فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته، وزالت التهمة، فكان هذا أقرب إلى المنفعة"[2].

السادس: خروج آل يعقوب من الشام إلى مصر:

طلب يوسف من إخوته الخروج بآل يعقوب من الشام إلى مصر **فقال** لهم: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣].

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٣٣)، تفسير ابن كثير (٤/٤٠٩)،تفسير القرطبي (٩/٢٥٩)، تفسير الكشاف(٢/٤٧٥).

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب(١٨/١٧١).

فجاء يعقوب عليه السلام وآله فدخلوا مصر فحصل اللقاء بيوسف وبنيامين بعد الفراق، واجتمعت الأسرة كلها تحت ظلال الأمن والغنى والسلطان، فتحدث يوسف عن هذه النعمة فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾[يوسف:١٠٠].

"والمجيء في قوله: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو"(١).

وقد بقيت ذرية يعقوب في مصر بعد خروج آبائهم من الشام إليها مئات السنين، ولم يخرجوا منها إلا في عهد موسى عليه السلام.

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٠).

الأوامر والنواهي

المطلب الأول: الأوامر:

التعريف:

لغة:

(**أمر**) الهمزة والميم والراء من الأمر واحد الأمور، والأمر ضدّ النهي، تقول العرب: أَمَرْتُك أَن تفعَل ولِتَفْعَلَ وبأَن تفعَل، فمن قال: أَمرتك بأَن تفعل فالباء للإِلصاق، والمعنى: وقع الأَمر بهذا الفعل، ومن قال: أَمرتُك أَن تفعل فعلى حذف الباء، ومن قال: أَمرتك لتفعل فقد أَخبرنا بالعلة التي لها وقع الأَمرُ.

وأَمرتُه بكذا أَمراً والجمع الأَوامِرُ، وائتمر مطاوع أمره يقال: أمرته فأتمر، واستأمره: طلب أمره واستشاره.

والأمر: التقدم بالشيء سواء كان ذلك بقولهم: افعل وليفعل، أو كان ذلك بلفظ خبر نحو: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾[البقرة:٢٢٨]، أو كان بإشارة أو غير ذلك، ألا ترى أنه قد سمى ما رأى إبراهيم في المنام من ذبح ابنه أمراً؛ حيث قال: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[الصافات:١٠٢]، فسمى ما رآه في المنام من تعاطي الذبح أمراً[١].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/١٣٧)، المعجم الوسيط (١/٢٦)، لسان العرب (٤/٢٦)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٤٦).

اصطلاحًا:

الأمر: استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء[1]، وبعضهم يضع بدل قولهم: "على وجه الاستعلاء" قولَه: "مِمَّن هُوَ دونه"[2].

وبهذا يتبين أن طلب الفعل إذا كان من الأعلى للأدنى فيسمى أمراً حقيقة.

وإذا كان من الأدنى للأعلى فيسمى دعاء، وإذا كان طلب الفعل من مساوٍ في الرتبة للآمر فيسمى التماسًا[3]، وهذان الأخيران: الدعاء والالتماس يدخلان في الأمر مجازاً لا حقيقة.

لقد تتبعت الأمر في قصة يوسف فوجدت الآتي:

١-رأيت وروداً كثيراً للأوامر في هذه القصة، حتى بلغت أكثر من سبعة وثلاثين أمراً، منها ما هو من الأعلى للأدنى، ومنها ما هو من الأدنى للأعلى، ومنها ما هو من الآمر لمساويه في الرتبة.

٢- وجدتُ منها ما جاء بصيغة " افعل" هو الغالب في أوامر هذه القصة، أو ما قام مقامها مثل اسم فعل الأمر، وهو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف:٢٣].

ومعنى هيت-بفتح الهاء والتاء- وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم-: هلم وتعال وأقبل.والعرب تقول: هيت فلان لفلان إذا دعاه وصاح به[4].

---

(١) روضة الناظر (ص:١٨٩).

(٢) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص:٦٦).

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٢٢٣)، التعريفات (ص:٥١).

(٤) ينظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٣٣٠)، الحجة للقراء السبعة (٤/٤١٩)، =

وجاء أمر واحد دال على الإيجاب بصيغة لفظ الأمر، وهو في قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[يوسف:٤٠].

٣-كثر الآمرون في هذه القصة، فمنهم: الله تعالى، يعقوب، يوسف، الملك، العزيز، وامرأته، وأوامرهم من قسم: طلب الأعلى من الأدنى.

وإخوة يوسف، وأوامرهم فيما بينهم من قسم الالتماس، ولأبيهم ويوسف من قسم الدعاء.

وسنتكلم عن هذه الأوامر وآمريها في هذه الأقسام الثلاثة:

الأول: الأمر من الأعلى للأدنى:

والآمرون فيه وأوامرهم على النحو الآتي:

١-الله تعالى:

فقد أمر المكلفين بعبادته وحده، وبيّن لهم أن ذلك هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه؛ فقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[يوسف:٤٠].

٢-يعقوب عليه السلام:

فقد أمر أولاده بدخول مصر من أبواب متفرقة؛ فقال: ﴿يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف:٦٧].

وأمرهم بالبحث عن يوسف وأخيه فقال: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[يوسف:٨٧].

= القاموس المحيط (ص:٢٠٩)، الوجيز للواحدي (ص:٥٤٢)، بحر العلوم (٢/١٨٧).

٣-يوسف عليه السلام:

فقد أمر الملك ومن معه أمر إرشاد بإبقاء الحب في سنبله؛ ليتمَّ حفظه من التسوُّس، وليكون أبقى له؛ فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾[يوسف:٤٧].

وأمر رسول الملك بالرجوع إليه وسؤاله عن حال النسوة فقال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

وأمر إخوته بالإتيان ببنيامين فقال: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾[يوسف:٥٩].

وأمر فتيانه بجعل دراهم إخوته في رحالهم فقال: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[يوسف:٦٢].

وأمر إخوته بالذهاب بقميصه إلى أبيه، والمجيء بأهلهم أجمعين فقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣].

وأمر آل يعقوب أمرَ إكرام بدخول مصر فقال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[يوسف:٩٩].

فإن قال قائل: وكيف قال لهم يوسف: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، بعدما دخلوها، وقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم لما دخلوها على يوسف وضَمّ إليه أبويه، قال لهم هذا القول؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: قال بعضهم: إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه قبل دخول مصر، قالوا: وذلك أن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، بها قبل الدخول، قاله السدي.

القول الثاني: وقال آخرون: بل قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، استثناءٌ من قول يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾[يوسف:٩٨]، قالوا: وهو من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما معنى الكلام: قال: سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله إنه هو الغفور الرحيم، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، وقال: ادخلوا مصر، ورفع أبويه.قاله ابن جريج.

عن ابن جريج: قال: سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله آمنين، وبَيْن ذلك ما بينه من تقديم القرآن، **قال** الطبري: "يعني ابن جريج: وبين ذلك ما بينه من تقديم القرآن: أنه قد دخل بين قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، وبين قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الكلام ما قد دخل، وموضعه عنده أن يكون عَقِيب قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

قال ابن عطية: وفي هذا التأويل ضعف(١).

وقال الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا: ما قاله السدي، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولادهما وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين تلقَّاهم؛ لأن ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٤-٢٦٦)، المحرر الوجيز (٣/ ٢٨٧)،

جريج؛ ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه، أو تأخيره عن مكانه إلا بحجّة واضحةٍ[1].

وعلى هذا يكون المعنى: "ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمنين إن شاء الله"[2].

وقال ابن عطية: "﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ معناه: تمكّنوا واسكنوا واستقروا؛ لأنهم قد كانوا دخلوا عليه.وقيل: بل قال لهم ذلك في الطريق حين تلقاهم قاله السدي، وهذا الاستثناء هو الذي ندب القرآن إليه أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه بقوله في المستقبل"[3].

وقال ابن عاشور: "وجملة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر، وهو لمجرد التيمن، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أول الكلام، وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث: أن لا يقول: اغفر لي إن شئت؛ فإنه لا مكره له؛ لأن ذلك في الدعاء المخاطب به الله صراحة، وجملة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ معترضة بين جملة ﴿ادْخُلُوا﴾ والحال من ضميرها"[4][5].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/٢٦٦).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/٧٣).

(٣) المحرر الوجيز (٣/٢٨٧).

(٤) **قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يقولن أحدكم: اللّهم اغفر لي إن شئت، اللّهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإنه لا مكره له) متفق عليه.

(٥) التحرير والتنوير (١٢/١١٨).

أما ابن كثير فقد قال: "وقد أشكل قوله: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين، **فقال** بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش.

وقد رد ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السُّدِّي: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

وفي هذا نظر أيضا؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وفي الحديث: (من آوى محدثًا)[1] وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ وضمَّنه: اسكنوا مصر ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط"[2].

٤-الملك:

فقد أمر بإخراج يوسف من السجن إليه عقب تعبيره رؤياه لما أعجبه ذلك؛ فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾[يوسف:٥٠].

وأمر بإطلاق يوسف بعدما عرف براءته وعلمه وصبره فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

(١) متفق عليه.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١١).

٥-العزيز:

فقد أمر زوجته بإكرام يوسف حينما تفرس فيه الخير؛ فقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[يوسف:٢١].

وأمر يوسف بالإعراض عن ذكر موضوع امرأته للناس، وأمر امرأته بالاستغفار لذنبها، فقال:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩].

٦-امرأة العزيز:

لما كان يوسف تحت سلطان هذه المرأة فقد أمرته بالإقبال على الفاحشة فقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

وأمرته بالخروج على النسوة فقالت: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[يوسف:٣١].

الثاني: الأمر من الأدنى للأعلى (الدعاء):

والطالبون ومطالبهم على النحو الآتي:

١-يوسف عليه السلام:

فقد طلب من الملك توليته وظيفة خزائن الأرض؛ ليحسن تدبيرها، فينفع الناس بذلك، فقال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥].

ولما أتم الله له النعمة طلب من الله الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

قال ابن كثير: "هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل، كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: (اللّٰهم في الرفيق الأعلى، اللّٰهم في الرفيق الأعلى، اللّٰهم في الرفيق الأعلى)[1].

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: "أماتك الله على الإسلام". ويقول الداعي: "اللّٰهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين".

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزًا، وكان ذلك سائغًا في ملتهم، كما قال قتادة: قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن

---

(١) متفق عليه.

عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف، عليه السلام"(١).

٢-إخوة يوسف:

فقد طلبوا من أبيهم إرسال يوسف معهم إلى البرية فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١٢].

وطلبوا منه إرسال بنيامين معهم إلى مصر فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:٦٣].

ولما رجعوا إلى أبيهم طلبوا منه أن يسأل أهل مصر ومن معهم من القافلة؛ ليتأكد من صدقهم في اتهام بنيامين بالسرقة فقالوا: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[يوسف:٨٢].

وطلبوا من يوسف أن يأخذ واحداً منهم بدل بنيامين فقالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨].

وحينما دخلوا مصر في المرة الثالثة طلبوا من يوسف إيفاء الكيل لهم والصدقة عليهم فقالوا:

﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].

وعندما تعرف إليهم يوسف، وعفا عنهم ورجعوا إلى أبيهم؛ طلبوا منه الاستغفار لهم فقالوا:

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤١٤).

﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩٧].

٣-الفتيان اللذان كانا مع يوسف في السجن:

فقد طلبا من يوسف تعبير الرؤيا لهما؛ **فقال** الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٣٦].

٤-الملك:

فإنه لما كان مستفتيًا فهو طالب من الأدنى للأعلى؛ فقد سأل أهل العلم لديه من ملئه عن تعبير رؤياه؛ فقال: ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣].

٥-الناجي من الفتيين (رسول الملك):

فإنه لما سمع عجز الملأ عن تعبير رؤيا الملك طلب من الملك إرساله إلى يوسف فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[يوسف:٤٥].

وقول الساقي: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ من حسن أدبه في مجلس الملك؛ فإنه لم يذهب حسب إرادته، بل طلب إرساله فإن أرسلوه ذهب، وهكذا من يجلس مع الكبار لابد أن يعرف المقامات فيتكلم على حسبها.

ولما وصل إلى يوسف طلب منه تعبير الرؤيا فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٤٦].

وقول الساقي: ﴿يُوسُفُ﴾ دون أن يقول: يا يوسف؛ لأن المقام يستدعي الاختصار والإسراع في الجواب؛ لكون الملك ينتظر التعبير في أقرب وقت؛ فلهذا لم ينشغل الرسول بالإطناب بل سلك سبيل الإيجاز؛ حتى يسرع بالجواب إلى سيده.

الثالث: الأمر من بين متساوِي الرتبة (الالتماس):

والآمرون في هذا القسم صنفان:

١- إخوة يوسف:

فقد طلب بعضهم من بعض طريقة التخلص من يوسف فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[يوسف:٩].

فنهاهم أحدهم عن ذلك، وعرض مقترحًا وهو إلقاؤه في الجب؛ فقال: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف:١٠].

ولما احتبس بنيامين عند يوسف طلب أحدهم من إخوته الرجوع إلى أبيه بهذه الرسالة حيث قال: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾[يوسف:٨١].

٢-يوسف مع الناجي من الفتيين:

فـإن يوسـف في ذلـك الوقـت لـيس بمرتبـة الآمـر الأعـلى، وإنــما في رتبـة الصاحب.

فقد طلب من الناجي أن يذكر مظلمته عند الملك فقال: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف:٤٢].

المطلب الثاني: النواهي:

التعريف:

لغة:

(**نهي**) النون والهاء والياء أصلٌ صحيح يدلُّ على غايةٍ وبلوغ، ومنه: أنهيت إليه الخَبر: بلَّغته إياه.ونِهايةُ كلِّ شيءٍ: غايته، ومنه نَهَيته عنه، وذلك لأمرٍ يفعله، فإذا نَهَيته فانتهى عنك فتلك غايةُ ما كان وآخِره.

والنَّهْيُ خلاف الأَمر، وهو الزجر عن الشيء، يقال: نَهاه يَنْهاه نَهْياً فانْتَهى وتناهى كَفَّ، ونهى عن الشيء زجر، ونهى الله عن كذا حرمه، والنهي طلب الامتناع عن الشيء، وتَناهَوْا عن الأَمر وعن المنكر نَهى بعضهم بعضاً[1].

اصطلاحًا:

النهي هو: استدعاء الترك بالقول على وجه الاستعلاء.

وقيل: القَوْل الَّذِي يَسْتَدْعِي ترك الْفِعْل مِمَّن هُوَ دونه.

وَقيل: هُوَ الدُّعَاء إِلَى الإحجام[2].

من خلال النظر في النواهي في هذه القصة المباركة **نلاحظ الآتي**:

١ -أن النواهي الواردة في القصة أقل من الأوامر.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٣٥٩)، المعجم الوسيط (٢/٩٦٠)، لسان العرب (١٥/٣٤٣)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/٤٥٧).

(٢) تيسير الوصول (ص:٢٢٧)، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص:٦٦).

٢-أن أكثر هذه النواهي من الأعلى للأدنى، وليس فيها من الأدنى للأعلى شيء، ولكن فيها من الناهي لمساويه نهيانِ.

٣-أكثر هذه النواهي من يعقوب لأبنائه، وهي دالة على حرصه عليهم.

وهذه النواهي في هذه القصة وأهلها على النحو الآتي:

١-يعقوب عليه السلام:

فقد نهى ابنه يوسف عن قص رؤياه على إخوته؛ خشية عليه من كيدهم؛ **فقال** له: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يوسف:٥].

ونهى يعقوب أبناءه عن دخول مصر من باب واحد؛ خوفًا عليهم من الشر؛ فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧].

ونهاهم أيضًا عن اليأس من فرج الله ورحمته، وذلك بعد أمره لهم بالبحث عن يوسف وأخيه؛ فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

٢-يوسف عليه السلام:

فقد نهى يوسف إخوته عن الإتيان إليه لطلب الميرة، إذا وردوا إليه من غير بنيامين؛ فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾[يوسف:٦٠].

ونهى يوسف أخاه بنيامين عن الحزن لما صنع بهما إخوتهما، وذلك حينما آواه إليه؛ فقال: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:٦٩].

٣-أحد أبناء يعقوب:

فإنه لما سمع رأي إخوته القاضي بقتل يوسف، أو إلقائه في مهلكة نهاهم عن قتله، واقترح لهم إلقاءه في غيابة الجب؛ فقال لهم: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[يوسف:١٠].

ولم يذكر لنا القرآن اسم هذا القائل؛ إذ لا فائدة من ذلك.

"والعدول عن اسمه العَلَم إلى التنكير والوصفية؛ لعدم الجدوى في معرفة شخصه، وإنما المهم أنه من جماعتهم، وتجنبًا لما في اسمه العلم من الثقل اللفظي الذي لا داعي إلى ارتكابه"(١).

(١) التحرير والتنوير (٢٦/١٢).

الأَزْمِنَة والأَمْكِنة

المطلب الأول: الأزمنة:

التعريف:

لغة:

(**زمن**) الزاء والميم والنون أصلٌ واحدٌ يدلُّ على وَقتٍ من الوقت، من ذلك الزَّمان، وهو الحِين، قليلُهُ وكثيرُهُ.ومدة الدنيا كلها. **يقال**: زَمانٌ وزَمَن، والجمع أَزْمُن وأَزْمان وأَزْمِنة. **وأَزْمَنَ الشيءُ**: طال عليه الزَّمان، والاسم من ذلك الزَّمَنُ والزُّمْنَة، **وأَزْمَنَ بالمكان**: أَقام به زَماناً، وعامله مُزامنة، وزَماناً من الزَّمَن[1].

اصطلاحًا:

الزَّمانُ هو: اسم لقليل الوقت وكثيره[2].

وقيل: مِقْدَار حَرَكَة الْفلك[3].

وظرف الزمان هو: عبارة عن مرور الليل والنهار[4].

نافذة:

إن للزمن أهمية كبيرة في تحديد الأحداث، ومعرفة الظرف الوقتي الذي جرت

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٢٢)، المعجم الوسيط (١/٤٠١)، لسان العرب (١٣/١٩٩).
(٢) لسان العرب (١٣/١٩٩).
(٣) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص:١٣٦).
(٤) شرح ملحة الإعراب (١٨٢).

فيه؛ لما في ذلك من إعانة على تمام الفهم، وبناء الأحكام على ذلك بناء صحيحًا.

فعنصر الزمن في القصة ذو فضل كبير في تجلية الصورة المعتمدة على حركة الأحداث، وتجدد أوقاتها، وإعطاء القارئ أو السامع جذبًا بحصول تغيير النمط الواحد إلى أنماط متعددة، يلدها تبدل الوقت، فيكسبه ذلك متعة وإثارة، واتصالاً وثيقًا لا يحب الانفصال عنه.

كما أن به حصول ربط الأحداث في القصة، وبناء المتأخر على المتقدم، ومعرفة الترتيب في السرد القصصي.

وفي قصة يوسف عليه السلام رأينا عنصر الزمان حاضراً بقوة في جميع صيغه الثلاث: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

وبقسميه أيضًا: المبهم والمختص.

ولو جئنا نستوعب الزمن في قصة يوسف لطال بنا المقام؛ لأن الأفعال الماضية تدل على الحدث الماضي، والأفعال المضارعة تدل على الحدث في الحال أو المستقبل، والأفعال الأمرية تدل على الحدث في المستقبل؛ فلذلك سنقتصر على ذكر الألفاظ الدالة على الزمان فقط، ولن نتناول ما دل بمعناه على ذلك.

الألفاظ الدالة على الزمن في قصة يوسف[1] :

الأول: إِذْ:

إِذْ: اسم للزمان الماضي بمعنى حين، ويكون مضافًا إلى الجمل[1].

---

(١) رتبنا هذه الأزمنة حسب حروف المعجم، وذكرناها حسب ألفاظها في الآيات.

وقد ورد في هذا الاسم الزماني في قصة يوسف المواضع الآتية:

١ - ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾[يوسف:٥١].

والمعنى: ما شأنكن حين راودتن يوسف عن نفسه؟[٢].

٢ - ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

قال لهم يوسف عليه السلام على سبيل التعريض بهم، والتذكير بأخطائهم: هل علمتم ما فعلتموه بيوسف وأخيه من أذى وعدوان عليهما، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان، وما إليه صائر أمره وأمركم؟[٣].

٣- ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾[يوسف:١٠٠].

وإنما خص إنعام الله عليه وقت خروجه من السجن دون غيره: لكونه خرج من السجن إلى البراءة بعد التهمة، والحرية بعد الرق، وعلو الجاه بعد خفوته، ووصل بذلك إلى السلطان الذي كان من ثمرته: لقاؤه بأبيه وإخوته على بساط العز والحب والمُلك، فكان ذلك أظهر النعم عليه.

٤ - ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف:١٠٢].

فقد" أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أنزل عليه هذا القرآن، وفصل له هذه القصة، مع أنه صلى الله عليه

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص:١١١)، الأصول في النحو (١/٢٥)، معجم القواعد العربية (١/٢٧).

(٢) البحر المديد (٣/٣٩٣).

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/٤١٢)، تفسير الطبري (١٦/٢٤٤).

وسلم لم يكن حاضراً لدى أولاد يعقوب حين أجمعوا أمرهم على المكر به، وجعله في غيابة الجب، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه"(١).

الثاني: أُمَّة:

الأمة لها معان، منها: الحين والمدة(٢)، **قال** ابن الجوزي: "وَذكر أهل التَّفْسِير أَن الْأمة فِي الْقُرْآن على خَمْسَة أوجه: -...

وَالثَّالِث: الْحِين. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي [هود] : ﴿وَلَئِن أخرنا عَنْهُم الْعَذَاب إِلَى أمة مَعْدُودَة﴾[هود: ٨]، وَفِي يُوسُف: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآن غيرهمَا، وَأَرَادَ بالحين فِي الْآيَتَيْنِ: السنين"(٣).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ...﴾[يوسف:٤٥].

والمعنى: وتذكر يوسفَ بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي: مدة طويلة، وسميت بذلك المدة لأنها تمضي فيها أمة من الناس، وتحدث فيها أخرى، فهي على هذه المدة الطويلة(٤).

الثالث: الآن:

الآن: ظَرفٌ مَبنيٌّ على الفَتح في مَحَلِ نَصبٍ، وهو اسمٌ للزَّمَانِ الحَاضِرِ الفاصل بين الزمانين، وعندَ بعضِهم: هو الزَّما نُ الذي هُوَ آخرُ مَا مَضى، وأوَّل ما

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٢١٨).

(٢) المعجم الوسيط(١/٢٧).

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص:١٤٣-١٤٤).

(٤) تفسير البيضاوي (٣/٢٩١)،المحرر الوجيز (٣/١٦٩).

يأتي من الأزمنة، وقيل: هو كل زمنٍ مقدرٍ بين ماضٍ ومستقبلٍ[(١)].

قال تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

و ﴿الحَقُّ﴾: هو براءة يوسف عليه السلام مما رمته به امرأة العزيز، وإنما ثبت حينئذ؛ لأنه كان محل قيل **وقال** وشك، فزال ذلك باعترافها بما وقع.

وأرادت بـ الآن زمان تكلمها بهذا الكلام، لا زمان شهادتهن، فلما رأت إقرارهن ببراءة يوسف، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرت[(٢)].

ففي ذلك الوقت الحاضر لم يسعها التهمة ولا الكتمان بعد وضوح القرائن الكثيرة على براءة يوسف، فأقرت ذلك الوقت بذنبها، وبراءة يوسف من التهمة.

الرابع: بعدُ:

بعد: ضِدُّ "قَبْل" وهي ظَرْفٌ مُبْهَم لا يُفْهَم معناه إلاَّ بالإِضافةِ لِغيرِهِ، وهو زَمَانٌ مُتَراخٍ عن الزمان السابقِ، فإن قَرُبَ منه قِيل: بُعَيْد، وقد يكونُ للمكانِ، وله حَالَتان: الإِضافةُ إلى اسم عيْن فحينئذٍ يكونُ ظَرْفَ زمان، أَوْ إلى اسم مَعنىً فظرفُ مكان، وَيكون مَنْصُوبًا أَو مجروراً مَعَ من، وَقد يقطع عَن الْإِضَافَة وَهِي مفهومة من الْكَلَام فَيكون مَبْنِيًا على الضَّم[(٣)].

وقد جاء هذا الظرف في هذه القصة في هذه المواضع:

(١) معجم القواعد العربية (٢/ ٥٤)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (١/ ١٤١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٧)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٥)، تفسير القرطبي (٩/ ٢٠٨).

(٣) معجم القواعد العربية (١/ ١٧٢)، المعجم الوسيط (١/ ٦٣).

١ - ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[يوسف:٩].

الضمير في ﴿بَعْدِهِ﴾ يعود على الذات أو على الصفات، يعني: من بعد يوسف أي: من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أومن بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه[١].

٢ - ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٥].

أي: ظهر للعزيز وأهله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ الدالة على براءة يوسف ؛ كشهادة الصبي، وقَدّ القميص، وقطع الأيدي، واستعصامه منهن، فظهر لهم سجنه[٢].

٣- ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[يوسف:٤٥].

٤ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾[يوسف:٤٨].

يعني: بعد السبع السنين المخصبة.

٥ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[يوسف:٤٩].

يعني: بعد السبع السنين المجدبة.

٦ - ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾[يوسف:١٠٠].

" فكلمة ﴿بَعْدِ﴾ اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره، وقد ألم به إجمالاً؛

(١) تفسير الكشاف (٢/ ٤٢١)، تفسير أبي السعود (٤/ ٢٥٦)، تفسير السعدي (ص: ٣٩٤).

(٢) البحر المديد (٣/ ٣٨٢).

اقتصاراً على شكر النعمة، وإعراضًا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته"[(١)].

الخامس: حين:

حِينَ: ظَرْفٌ مُبْهَم يَصْلُحُ لِجَمِيعِ الأزمَانِ طالَتْ أو قَصُرَتْ المدَّةُ، وجَمْعُه: أَحْيَان، وجَمْعُ الجمْعِ: أَحَايِين، وهُوَ مِمَّا يُضاف إلى الجُمَل[(٢)].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٥].

والحين: زمن غير محدود، فإن كان ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ من كلامهم كان المعنى: أنهم أمروا بسجنه سجنًا غير مؤجل المدة، وإن كان من الحكاية كان القرآن قد أبهم المدة التي أذنوا بسجنه إليها؛ إذ لا يتعلق فيها الغرض من القصة.

وقيل: الحين هٰهنا: خمس سنين، وقيل: بل سبع سنين، وقال مقاتل بن سليمان: حبس يوسف اثنتي عشر سنة، والصحيح: أن هذه المقادير غير معلومة، وإنما القدر المعلوم أنه بقي محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[(٣)].وسيأتي قريبًا تقريب زمني لتلك المدة لا تخرج عنه.

السادس: سنين:

السنة: من أي يوم عددته إلى مثله، أو هي: تَمام اثْنَتَيْ عشرَة دورة للقمر،

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٢٠).

(٢) معجم القواعد العربية (١/٢٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٥٩-٦٠)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/١٠٧).

وَهِي السّنة القمرية، أو كل يَوْم إِلَى مثله من الْقَابِل من السّنة الشمسية[1].

١ -قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف:٤٢].

وفي (البضع) **أربعة أقاويل**:

أحدها: من ثلاث إلى سبع، وهذا قول أبي بكر الصديق وقطرب.

الثاني : من ثلاث إلى تسع، قاله مجاهد والأصمعي.

الثالث: من ثلاث إلى عشر، قاله ابن عباس.

الرابع: ما بين الثلاث إلى الخمس، حكاه الزجاج[2].

وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً أقوال ليس عليها دليل.

٢ -وقال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[يوسف:٤٧].

السابع: سوف:

سَوف: حرف مَبْنِيّ على الْفَتْح يخصص أَفعَال المضارعة للاستقبال، فَيرد الْفِعْل من الزَّمَان الضّيق وَهُوَ الْحَال، إِلَى الزَّمَان الْوَاسِع وَهُوَ الِاسْتِقْبَال، وَهُوَ يَقْتَضِي معنى المماطلة

وَالتَّأْخِير[3].

قال تعالى:﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٨].

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/٤٣٨)، المعجم الوسيط (١/٤٥٦).

(٢) النكت والعيون (٣/٤٠).

(٣) المعجم الوسيط (١/٤٦٤).

وفي سبب تأخير يعقوب الاستغفار ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه أخرهم لانتظار الوقت الذي هو مظنة الإجابة، ثم **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه أخرهم إلى ليلة الجمعة، روي عن ابن عباس. والثاني: إلى وقت السحر من ليلة الجمعة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: إلى وقت السحر، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، وابن عمر، وقتادة، والسدي، ومقاتل.

قال الزجاج: إنما أراد الوقت الذي هو أخلق لإجابة الدعاء، لا أنه ضن عليهم بالاستغفار، وهذا أشبه بأخلاق الأنبياء عليهم السلام.

القول الثاني: أنه دفعهم عن التعجيل بالوعد. **قال** عطاء الخراساني: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى إلى قول يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[يوسف:٩٢]. وإلى قول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾.

القول الثالث: أنه أخرهم ليسأل يوسف؛ فإن عفا عنهم، استغفر لهم، قاله الشعبي"(١).

والحقيقة أن هذه الأقوال لا دليل على ترجيح بعضها على بعضها، فقد يحتمل الأمر أحد هذه الأقوال وقد يحتمل غيرها؛ لأن الله تعالى ذكر لنا أن يعقوب وعد بالاستغفار مؤخراً دون أن يبين سبب ذلك، فالله أعلم.

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/٤٧٢).

الثامن: عام:

الْعَام: حولٌ يَأْتِي على شَتْوة وصيفة [1].

والفرق بين العام والسنة: أن السنة من أول يوم عددته إلى مثله، والعام لا يكون إلا شتاء وصيفًا. وعلى هذا فالعام أخص من السنة، وليس كل سنة عامًا. فإذا عددت من يوم إلى مثله فهو سنة، وقد يكون فيه نصف الصيف، ونصف الشتاء، والعام لا يكون إلا صيفًا أو شتاء متوالين.

وتظهر فائدة ذلك في اليمين والنذر، فإذا حلف أو نذر أن يصوم عامًا لا يدخل بعضه في بعض، إنما هو الشتاء والصيف، بخلاف ما لو حلف ونذر سنة[2].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩].

ولعل استدلال يوسف على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة[3].

وقيل: ما حصل في ذلك المنام شيء يدل على هذا العام، بل حصل ذلك من

(١) تهذيب اللغة (٣/ ١٦٠).

(٢) الفروق اللغوية (ص:٣٤٨-٣٤٩).

(٣) تفسير السعدي (ص:٣٩٩).

الوحي، فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبع المخصبة والسبع المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم، وعن قتادة: زاده الله عِلم سنة[1].

التاسع: عِشاء:

الْعِشَاء: أول ظلام اللَّيْل، أَو من صَلَاة الْمغرب إِلَى الْعَتَمَة، وقيل: يَقَع العشيُّ على ما بَيْنَ زَوالِ الشمْسِ إلى وَقْت غُروبها كل ذلك عَشِيٌّ، فإذا غابَتِ الشَّمْسُ فهو العِشاءُ، **وقيل**: العَشِيُّ منْ زَوالِ الشَّمْس إلى الصَّباح، **ويقال**: لِما بين المَغْرِب والعَتَمة عِشاءٌ، وزعم قوم أَنَّ العشاء من زَوال الشمس إِلى طُلوع الفَجْر.

وقيل: العشاء: وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها[2].

قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[يوسف:١٦].

وسبب مجيئهم في ذلك الوقت: ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار، وترويج ما مكروا، وقد قيل: لا تطلب الحاجة بالليل؛ فإن الحياء في العينين، ولا يعتذر من ذنب في النهار؛ فيتلجلج في الاعتذار فلا يقدر على إتمامه، وقيل: أخّروا المجيء إلى وقت العشاء الآخرة؛ ليدلّسوا على أبيهم؛ لئلا يتفرس أبوهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار، وقيل: لعل ذلك لكونهم لم يصلوا من مكانهم إلا في ذلك الوقت[3].

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٢٠).

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ٦٠٣)، لسان العرب (١٥/ ٥٦)، التحرير والتنوير (١٢/ ٣٤).

(٣) الكشف والبيان (٥/ ٢٠٢)، تفسير السراج المنير (٢/ ٧٧)، روح المعاني (١٢/ ١٩٩).

العاشر: غداً:

غَداً: الغَدُ: اليوْمُ الذي يَأتي بعدَ يَومِكَ على أَثَر، ثُمَّ تَوسَّعُوا فيه حتَّى أُطلِق على الظَّرفِيَّة الزَّمانية[1].

قال تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[يوسف:١٢].

الحادي عشر: قَبل:

قبل: ظرف للزمان السَّابِق أَو المُكَان السَّابِق، وضده بعد، وقَبْلُ في الأصلِ من قَبيلِ أَلفاظِ الجهات الستِّ المَوْضُوعةِ لأمكِنَةٍ، مُبهَمَةٍ، ثم استُعِيرَت لِزَمَانٍ مُبهم، سابقٍ على زَمانِ ما أُضِيفتْ هي إلَيه...»[2].

وقد ذكر هذا الظرف الزماني في القصة في عدة مواضع، وهي:

١- ﴿وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف:٣].

فالضمير في قوله: ﴿قَبْلِهِ﴾ يحتمل عوده على القرآن، أو على الوحي، أو على القَصص، والمعنى: وإن كنت من قبل نزول القرآن عليك بهذه القصة لمن الساهين عنها لا تعلمها[3].

٢- ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾[يوسف:٦].

---

(١) معجم القواعد العربية (١/ ٤٤٣).

(٢) معجم القواعد العربية (١/ ٤٨٤)، المعجم الوسيط (٢/ ٧١٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١١)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ١١)، الوجيز للواحدي (ص:٥٣٨)، تفسير البغوي (٤/ ٢١٢).

﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾[يوسف:٣٧].

٣- ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[يوسف:٦٤].

٤- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[يوسف:٧٦].

والابتداء بأوعيتهم قبل وعاء أخيه لإبعاد أن يكون الذي يوجد في وعائه هو المقصود من أول الأمر؛ وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد(١).

٥- ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[يوسف:٧٧].

٦- ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾[يوسف:٨٠].

٧- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف:١٠٩].

الثاني عشر: لما:

لما: أداة تختص بالماضي، فتقتضي جملتين وجدت ثانيتها عند وجود أولاهما نحو: لما جاءني أكرمته، ويقال فيها: حرف وجود لوجود، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وقيل: إنها ظرف بمعنى حين، **وقال** ابن مالك: بمعنى إذ، وهو حسن؛ لأنها مختصة بالماضي، وبالإضافة إلى الجملة.

ويكون جوابها فعلاً ماضيًا اتفاقاً، وجملة اسمية مقرونة بـ إذا الفجائية، أو بالفاء عند ابن مالك، وفعلاً مضارعًا عند ابن عصفور(٢).

(١) التحرير والتنوير (١٢/٩٩)، تفسير السعدي (ص:٤٠٢).

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص:٣٦٩-٣٧٠).

وقد ورد هذا الظرف في سورة يوسف وروداً كثيراً، ومن أسباب وروده بهذه الكثرة: أن الآيات التي ورد فيها كانت في قصة طويلة، والقصة فيها أحداث متعددة، فجاءت " لما" لتربط بين تلك الأحداث، وتنقل القارئ من مشهد إلى آخر نقلاً حسنًا.

وهذه الآيات التي وردت فيها لما في القصة هي:

١ - ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾[يوسف:١٥].

وجواب "لمّا" محذوف دل عليه ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾، والتقدير: جعلوه في الجب[١].

٢ - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[يوسف:٢٢].

قال ابن حجر: " واختلف النقلة في قدر الأشد الذي بلغه يوسف: فالأكثر أنه الحلم، وعن سعيد بن جبير: ثمان عشرة.وقيل: سبع عشرة، **وقيل**: عشرون، **وقيل**: خمسة وعشرون، **وقيل**: ما بين ثمان عشرة إلى ثلاثين، وفي غيره قيل: الأكثر أربعون، **وقيل**: ثلاثون وقيل ثلاثة وثلاثون، **وقيل**: خمسة وثلاثون، **وقيل**: ثمانية وأربعون، **وقيل**: ستون.**وقال** ابن التين: الأظهر أنه أربعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً﴾، وكان النبي لا ينبأ حتى يبلغ أربعين، وتعقب بأن عيسى عليه السلام نبئ لدون أربعين ويحيى كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾، وسليمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ إلى غير ذلك.والحق

(١) التحرير والتنوير (١٢/٣٢). وهذا أحسن ما قيل في جواب " فلما" كما قال أبو حيان، وهناك أقوال أخرى تنظر في: تفسير البحر المحيط (٥/٢٨٧-٢٨٨).

أن المراد بالأشد بلوغ سن الحلم.

ففي حق يوسف عليه السلام ظاهر؛ ولهذا جاء بعده: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾، وفي حق موسى عليه السلام لعله بعد ذلك كبلوغ الأربعين؛ ولهذا جاء بعده: ﴿وَاسْتَوَى﴾ ووقع في قوله: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ في الموضعين فدل على أن الأربعين ليست حداً لذلك"[1].

٣- ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾[يوسف:٢٨].

٤- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾[يوسف:٣١].

٥- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾[يوسف:٥٠].

٦- ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

٧- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾[يوسف:٥٩].

٨- ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾[يوسف:٦٣].

٩- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾[يوسف:٦٥].

١٠- ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف:٦٦].

١١- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾[يوسف:٦٨].

١٢- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[يوسف:٦٩].

(١) فتح الباري(٨/٣٥٨-٣٥٩).

١٣- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾[يوسف:٧٠].

١٤- ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ...﴾[يوسف:٨٠].

١٥- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾[يوسف:٨٨].

١٦- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[يوسف:٩٤].

١٧- ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾[يوسف:٩٦].

١٨- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾[يوسف:٩٩].

الثالث عشر: اليوم:

الْيَوْم: مِقْدَار من طُلوع الشَّمْس إِلَى غُروبها(١).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

هذا اليوم هو يوم العز والفرج، وذلك بعدما تبين للملك براءة يوسف وعلمه وأمانته.

وقال تعالى: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢].

قال أبو حيان: "**قال** الزمخشري: فإن قلت: بم تعلق اليوم؟

١- قلت: بالتثريب.

(١) تهذيب اللغة (١٥/٤٦٣).

٢- أو بالمقدَّر في ﴿عليكم﴾ من معنى الاستقرار، أو بـ﴿يغفر﴾.والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهذا اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الأيام؟.ثم ابتدأ فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشمت: يهديكم الله ويصلح بالكم.

٣-أو اليوم يغفر الله لكم، بشارة بعاجل الغفران؛ لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم.انتهى.

أما قوله: إن اليوم يتعلق بالتثريب، فهذا لا يجوز؛ لأنّ التثريب مصدر، وقد فصل بينه وبين معموله بقوله: ﴿عليكم﴾، إما أن يكون خبراً، أو صفة لتثريب، ولا يجوز الفصل بينهما؛ لأنّ معمول المصدر من تمامه، وأيضًا لو كان اليوم متعلقاً بتثريب لم يجز بناؤه، وكان يكون من قبيل المشبه بالمضاف، وهو الذي يسمى المطول، ويسمى الممطول، فكان يكون معرباً منوناً، وأما تقديره الثاني فتقدير حسن؛ ولذلك وقف على قوله: ﴿اليوم﴾ أكثر القراء، وابتدأوا بـ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، على جهة الدعاء، وهو تأويل ابن إسحاق والطبري.

وأما تقديره الثالث وهو أن يكون ﴿اليوم﴾ متعلقاً بـ يغفر فمقبول، وقد وقف بعض القراء على عليكم، وابتدأ: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، **قال** ابن عطية: والوقف على ﴿اليوم﴾ أرجح في المعنى؛ لأنّ الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللّهم إلا أن يكون ذلك بوحي[1].

(١) تفسير البحر المحيط(٥/٣٣٨).

المطلب الثاني: الأمكنة:

التعريف:

لغة:

المكان: الموضع الحاوي للشيء، **والجمع**: أَمْكِنة وأَماكِنُ، وتمكن عند الناس: علا شأنه، وتمكن في المكان وبه: استقر فيه، وتمكن من الشيء قدر عليه، أو ظفر به.

وإنما الظرف منه ما كان مبهماً غير مختص مما في الفعل دلالة عليه، والمبهم: ما لم تكن له أقطار تحصره، ولا نهايات تحيط به، نحو: خلفك وأمامك وقدامك ووراءك وإزاءك وتلقاءك، وتجاهك وقربك، وقريبًا منك، وصددك وصقبك[(١)].

اصطلاحًا:

مما سبق يمكن تعريف المكان بأنه: ما استُقِر فيه، أو تُصرِّف عليه[(٢)].

وظرف المكان هو: اسم المكان المنصوب بتقدير "في"[(٣)].

نافذة:

معرفة الموضع الذي جرى فيه الحدث له أهمية، خاصة إذا كان المعنى لا يتم

(١) اللمع في العربية لابن جني (ص:٥٦).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٢/٣٨٢)، المعجم الوسيط (٢/٨٨١-٨٨٢)، (٢/٨٨٢) (٢/٨٠٦)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/١٤٨)، لسان العرب (١٣/٣٦٣)، اللمع في العربية لابن جني (ص:٥٦).

(٣) الآجرومية (ص:١٨).

إلا بذلك، وفي القصة القرآنية طريقتان في ذلك: فالأمكنة التي في ذكرها فائدة أو عبرة نجد القرآن يذكرها، والأمكنة التي ليس فيها ذلك يعرض القرآن عنها.

وكلتا الطريقتين نجدهما في قصة يوسف عليه السلام؛ فهناك أماكن صرحت بذكرها؛ لارتباط المعنى والعبرة بها، وأماكن أخرى أعرضت عن ذكر اسمها، أو جعلتها مبهمة؛ لعدم الفائدة من تحديدها.

وسنشرع الآن في ذكر هذه الأمكنة التي ذكرتها قصة يوسف عليه السلام، على النحو الآتي[1]:

الأول: الأرض:

المراد بالأرض في الآيات الآتية: هي مصر، وهو مجاز مرسل، من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء؛ لأن الأرض اسم عام يطلق على كل بلاد في هذا الكوكب وليس على مصر وحدها" فالعلاقة بين المعنى الموضوع له في اصطلاح التخاطب، وبين المعنى المستعمل للدّلالة عليه مجازاً هي: الكليّة والجزئية[2].

١-قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾[يوسف:٢١].

يعني: بلاد مصر. والتمكين في الأرض هنا مراد به: ابتداؤه، وتقدير أول أجزائه، فيوسف عليه السلام بحلوله محل العناية من عزيز مصر قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض بالوجه الأتم، الذي أشير له بقوله تعالى بعد: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾[يوسف: ٥٦]، فما ذكر

(١) رتبنا هذه الأمكنة حسب حروف المعجم، وذكرناها حسب ألفاظها في الآيات.

(٢) البلاغة العربية (١٢٨/٢).

هنالك هو كرد العجز على الصدر مما هنا، وهو تمامه[1].

٢-﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥].

٣-﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾[يوسف:٥٦].

٤- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾[يوسف:٧٣].

٥-﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ...﴾[يوسف:٨٠].

الثاني: أرضًا:

قال تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾[يوسف:٩].

جاءت كلمة أرض هنا منكرة؛ لأنهم ما قصدوا أرضًا معينة لطرحه فيها؛ لأن ذلك غير مراد لهم، بل المراد إلقاؤه في أرض بعيدة عن أبيه يهلك فيها ولا يعود إليه.

الثالث: باب:

قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾[يوسف:٢٥].

فيوسف أراد الهروب من الباب، والمرأة أرادت منعه منه، فصادف ذلك وصول السيد حيث صار عند الباب في ذلك الوقت.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ

(١) تفسير ابن كثير(٤/٣٧٨)، التحرير والتنوير (١٢/٤٣).

مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧].وقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ...﴾[يوسف:٦٨].

الرابع: البدو:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾[يوسف:١٠٠].

والبدو: ضد الحضر، سمي بدواً؛ لأن سكانه بادون، أي: ظاهرون لكل وارد؛ إذ لا تحجبهم جدران، ولا تغلق عليهم أبواب، وذكر: ﴿مِنَ الْبَدْوِ﴾ إظهار لتمام النعمة؛ لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام بأرض كنعان في بادية فلسطين، وكان ربَّ إبل وغنم وبادية[1].

و"هذه الآية يدل ظاهرها على أن بعض الأنبياء ربما بعث من البادية، وقد جاء في موضع آخر ما يدل على خلاف ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[يوسف:١٠٩].

وأجيب عن هذا بأجوبة:

منها: أن يعقوب نبئ من الحضر، ثم انتقل بعد ذلك إلى البادية.

ومنها: أن المراد بالبدو نزول موضع اسمه بدا، هو المذكور في قول جميل أو كثير:

وَأَنْتَ الَّذِي حَبَّبْتَ شَغْبًا إِلَى بَدَا ... إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِلَادٌ سِوَاهُمَا

حَلَلْتُ بِهَذَا مَرَّةً ثُمَّ مَرَّةً ... بِهَذَا فَطَابَ الْوَادِيَانِ كِلَاهُمَا

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٠)، المحرر الوجيز .(٣/٢٨٨)، الوجيز للواحدي (ص:٥٦٠).

وهذا القول مروي عن ابن عباس، ولا يخفى بُعد هذا القول، كما نبه عليه الآلوسي في تفسيره.

ومنها: أن البدو الذي جاءوا منه مستند للحضر، فهو في حكمه، والله تعالى أعلم"[1].

الخامس: بيتها:

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾[يوسف:٢٣].

قال أبو حيان: "وقال: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾، ولم يصرح باسمها، ولا بامرأة العزيز؛ ستراً على الحُرم، والعرب تضيف البيوت إلى النساء فتقول: ربة البيت، وصاحبة البيت، **قال** الشاعر:

يَا رَبَّةَ الْبَيْتِ قُومِي غَيْرَ صَاغِرَةٍ..."[2].

وقال ابن عاشور: "والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾؛ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف عليه السلام؛ لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها.

و ﴿بَيْتِهَا﴾ بيت سكناها الذي تبيت فيه، فمعنى ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾: أنه كان حينئذ في البيت الذي هي به، ويجوز أن يكون المراد بالبيت المنزل كله، وهو قصر العزيز. ومنه قولهم: ربة البيت، أي: زوجة صاحب الدار، ويكون معنى ﴿هُوَ فِي

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص:١٢٣).

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/٢٩٤).

بَيْتِهَا﴾: أنه من جملة أتباع ذلك المنزل"[1].

السادس: الجُب:

قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:١٠].

وقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾[يوسف:١٥].

والجب: البئر الواسعة غير البعيدة التي ليست بمطوية، سميت جبًا؛ لأنها قُطعت قطعًا ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبه ذلك، وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين، فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى؛ إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين. والجب مذكَّر، **وقال** الفراء: يذكر ويؤنث[2].

السابع: السجن:

السِّجْن: البَيْتُ الذي يُحْبَسُ فيه السَّجينُ[3].

وقد ذكر "السجن" في القصة في عدة مواضع:

١- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[يوسف:٣٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٤٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب(١٨/٧٧)، المعجم الوسيط (١/١٠٤)، الصحاح للجوهري (٢/١١٠)، المحيط في اللغة (٦/٤١٦)، المصباح المنير(ص:٥١).

(٣) كتاب العين (٦/٥٦).

٢- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف:٣٦].

٣- ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ..﴾[يوسف:٤١].

٤- ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ..﴾[يوسف:١٠٠].

الثامن: فوق:

قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦].

والفوقية هنا: فوقية معنوية، لا حسية.

التاسع والعاشر: القرية، القرى:

قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[يوسف:٨٢].

قال ابن عباس: يريد: أهل مصر، وهذا قول عامة المفسرين وأهل التأويل(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[يوسف:١٠٩].

المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعًا، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾[التوبة: ٩٧].

(١) التفسير البسيط (١٢/٢٠٨).

وقال قتادة في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾؛ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود.

وقال الحسن: لم يبعث الله رسولاً قط من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن[1].

الحادي عشر: المدينة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ..﴾[يوسف:٣٠].

أكثر المفسرين على أن المراد بالمدينة هاهنا: مصر، **وقيل**: مدينة عين شمس، وقيل: عاصمة مصر، **وقيل**: هي قاعدة مصر السفلى وهي مدينة "منفيس" حيث كان قصر العزيز[2].

الثاني عشر: مصر:

ذكرت بهذا الاسم مرتين:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[يوسف:٢١].

وقال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[يوسف:٩٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٢٣)، المحرر الوجيز(٣/٢٩٢).

(٢) تفسير البغوي (٤/٢٣٦)، تفسير السمعاني (٣/٢٥)، تفسير المنار (١٢/٢٤٠)، التحرير والتنوير (١٢/٥٣).

السؤال والجواب

المطلب الأول: السؤال:

التعريف:

لغة:

(**سأل**) السين والهمزة واللام كلمةٌ واحدةٌ، يقال: سأل يسأل سؤالاً ومَسْأَلة، **ورجل سُؤَلَةٌ**: كثير السؤال، وسأله عن كذا وبكذا سؤالاً وتسآلاً ومسألة استخبره عنه، **وتساءلوا**: سأل بعضهم بعضًا[1].

اصطلاحًا:

السؤال: استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدي إلى المال، فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان، واليد خليفة له بالكتابة، أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللسان خليفة لها إما بوعد، أو برد[2].

من خلال ما مضى يتبين أن للسؤال في اللغة معنيين يجتمعان في الطلب، ويفترقان في المطلوب، فالأول طلب العلم، وهذا يقال له: استعلام، والآخر طلب المال ونحوه، وهذا يقال له: استعطاء.

وهذا التعريف الذي ذكره الراغب يشمل نوعي السؤال: الاستعلام، والاستعطاء،

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ١٢٤)، المعجم الوسيط (١/ ٤١١)، لسان العرب (١١/ ٣١٨).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٥١٦).

ومرادي هنا الاستعلام، وعلى هذا فالسؤال هو: استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى معرفة.

نافذة:

إن السؤال فن من فنون الكلام، ووسيلة من وسائله للوصول إلى الحقائق، ومعرفة الأمور المجهولة وإقامة الحجج، والتأكد والاستيقان من الأمور.

وللقرآن الكريم عناية كبيرة بهذا الموضوع؛ لما له من أهمية كبيرة، وفائدة مرجوة للناس.

وللسؤال ألفاظ وأدوات تدل عليه، فمن ألفاظه: الاستفهام، والاستخبار، والاستعلام، والاستنباء، والاستفتاء، والأمر بلفظ السؤال " سل، اسال ".

وأما أدواته فهي: همزة الاستفهام، هل، أيُّ، مَن، ما، كم، كيف، متى، أيان، أنّى، أين.

وقد استعمل العرب هذه الأدوات الدالة على السؤال أكثر من استعمالهم للفظ السؤال ومرادفاته؛ نظراً لميلهم إلى الاختصار، وكراهيتهم للتطويل. **قال** ابن جني: "ألم تسمع إلى ما جاءوا به من الأسماء المستفهم بها، والأسماء المشروط بها كيف أغنى الحرف الواحد عن الكلام الكثير المتناهي في الأبعاد والطول"[(١)].

وفي قصة يوسف عليه السلام أسئلة عديدة في موضوعات متنوعة، بل القصة نفسها مدعاة للسؤال عنها، فقد صدرها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[يوسف:٧].

(١) الخصائص (١/ ٨٣).

أي: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه؛ فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، فهي كذلك لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبينات.

والسائلون: مراد منهم من يتوقع منه السؤال عن المواعظ والحكم؛ كقوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[فصلت: ١٠].ومثل هذا يستعمل في كلام العرب للتشويق، والحث على تطلب الخبر والقصة، **قال** طرفة:

سَائِلُوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا ... بِقُوَانَا يَوْمَ تَحْلَاقِ اللمم

وقال السموأل أو عبد الملك الحارثي:

سَلِي إِنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمُ ... فَلَيْسَ سَوَاءً عَالِمٌ وَجَهُولُ[1].

وقبل أن نشرع في ذكر الأسئلة وما يتعلق بها في هذه القصة، نحب أن نلفت عناية القارئ الكريم إلى أن الاستفهام عند البلاغيين ليس نوعًا واحداً، بل هو **نوعان**:

النوع الأول: استفهام حقيقي وهو: الذي يطلب بالجواب ما يجهله السائل، فصاحبه يسأل عن جهل ليعلم.وهذا مستحيل في حق الله المحيط علمًا بكل شيء.

والنوع الثاني: استفهام غير حقيقي أي: مجازي، وهو الاستفهام الذي يخرج عن طلب المعرفة إلى أغراض لدى السائل؛ من أمر أو نهي، أو توبيخ وتقريع، أو إنكار، أو تعجب، أو تعظيم، أو تشويق، أو امتنان، أو غير ذلك.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢)، تفسير السعدي (ص:٣٩٤)، التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢).

فـ" كثيراً ما يخرج الاستفهام عن إرادة طلب الإِفْهامِ والإِعلام إلى معانٍ أخرى أشار إليها به، ويُسْتَدَلُّ علَيْهَا مِنْ قرائِنِ الحال أو قرائن المقال؛ إذْ يَسْتَغْنِي الْبُلَغاء بعبارات الاستفهام عن ذكر الألفاظ الدّالة دلالةً صَرِيحَةً على مَا يُريدون التَّعْبِيرَ عَنْهُ مِنَ المعَاني، وبلاغةُ الدّلالة على هذه المعاني بأسْلُوبِ الاسْتفهام آتيةٌ من التعبير عنها بصورة غير مباشرة، وهيَ دلالاتٌ تُتَصيَّدُ بالذكاء. **قال** شمس الدين ابن الصائغ في كتابه "روض الأفْهام في أقسام الاستفهام": وقد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربته تلك المعاني "[(١)].

الأسئلة الواردة في قصة يوسف عليه السلام:

سنجعل الكلام عن ذلك في قسمين: القسم الأول: سنورد فيه الأسئلة المجازية وهي التي لا جواب لها، وإنما قصد بها معانٍ أخرى.
وهذا القسم سنجعله في هذا المطلب الأول.

والقسم الثاني سنورد فيه الأسئلة الحقيقية وهي التي يراد منها الجواب؛ لجهل السائل بذلك، وهذا القسم سنجعله في المطلب الثاني.

الأسئلة المجازية:

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[يوسف:١١].

أ-أداة السؤال: "ما"، وهي أداة يستفهم بها عن غير العقلاء، وقد تكون لتعريف الشيء وبيانه.

(١) البلاغة العربية (١/٢٦٩-٢٧٠).

وهي مبتدأ و "لك" الخبر.

ب-غرض السؤال: التعجب؛ إذ المعنى: لمَ تخافنا عليه ونحن نريد له الخير، ونحبه ونشفق عليه، وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمِقة؟ "[1].

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: هم إخوة يوسف، ومخاطَبه: أبوهم يعقوب.

د-موضوع السؤال: تعجبهم من أبيهم في عدم ائتمانه لهم على يوسف، رغم حرصهم على بذل الخير له.وهذا هو ظاهر قولهم، لكن باطنهم ينطق بأن أباهم كان على دراية بأنهم لا يريدون بيوسف إلا شراً، أما هم فقد تعاملوا بهذا القول مع أبيهم بتجاهل العارف الذي يبدي خلاف ما يخفي.

السؤال الثاني: قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف:٢٥].

"ما" في قولها: ﴿مَا جَزَاءُ..﴾ يجوز فيها أن تكون استفهامية، ويجوز أن تكون نافية، هكذا ذكر جمع من المفسرين[2].

أ-أداة السؤال: "ما".والمعنى: أيّ شيء جزاؤه إلا السجن.

ب-غرض السؤال: الاستعظام؛ فقد أرادت أن تهيج زوجها على يوسف،

---

(١) تفسير الكشاف (٢/٤٢٢).

(٢) ينظر: تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٨/٩٨)، تفسير البحر المحيط (٥/٢٩٧)، تفسير البيضاوي (٣/٢٨٣)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/١٦)، اللباب في علوم الكتاب (١١/٧١)، فتح القدير (٣/٢٧)، روح المعاني (١٢/٢١٨).

مظهرة عفافها، ومستعظمة صدور إرادة السوء بها من يوسف، وقد استعملت في استعظام الأمر إلى جانب الاستفهام الإتيان بجملة "بأهلك" ولم تقل: بي؛ إغراء لزوجها بيوسف؛ إذ كيف يتعرض بالسوء لمن هو أهلك وحرمك أنت، فغيرتك عليهم ستحملك على الانتقام ممن تعرض لهم بشر؛ ولهذا سارعت إلى جواب سؤالها بتحديد العقوبة، ولم تكلها إلى سيدها، فيعلم من هذا أن السؤال غير حقيقي.

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: امرأة العزيز، ومخاطَبها: زوجها.

د-موضوع السؤال: تبرئة نفسها، واتهام يوسف بمراودتها.

السؤال الثالث: قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[يوسف:٣٩].

أ-أداة السؤال: الهمزة.

ب-غرض السؤال: التقرير، والمراد من التقرير في عرف أهل البلاغة: "حَمْلُ المخاطَب على الإِقْرار، والاعتراف بأمْرٍ قد استقرّ عنده العلْمُ به، أو هو أمْرٌ باستطاعته معرفته حِسِّيّاً أو فكْرِيّاً، موجباً كان أو سالباً"(١).

وقد أراد يوسف عليه السلام " بالكلام الذي كلمهما به تقريرهما بإبطال دينهما، فالاستفهام تقريري. وقد رتب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة؛ إذ فرض لهما إلهًا واحداً متفرداً بالإلهية كما هو حال ملته التي أخبرهم بها. وفرض لهما آلهة متفرقين كل إله منهم إنما يتصرف في أشياء معينة من

(١) البلاغة العربية (١/٢٧٥).

أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم، وذلك حال ملة القبط.

ثم فرض لهما مفاضلة بين مجموع الحالين حال الإله المنفرد بالإلهية، والأحوال المتفرقة للآلهة المتعددين؛ ليصل بذلك إلى إقناعهما بأن حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى، فيرجعان عن اعتقاد تعدد الآلهة، وليس المراد من هذا الاستدلال وجود الحالين في الإلهية والمفاضلة بين أصحاب هذين الحالين؛ لأن المخاطبين لا يؤمنون بوجود الإله الواحد"(١).

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: يوسف عليه السلام، ومخاطَبه: صاحباه في السجن: فتيا الملك.

د-موضوع السؤال: بيان استحقاق إفراد الله بالعبادة، وبطلان ما يعبده قوم الفتيين من المعبودات الباطلة.

هـ-ظرف السؤال المكاني: السجن.

السؤال الرابع: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

أ-أداة السؤال: في هذا السؤال لفظ وأداة، فأما اللفظ فهو قوله: ﴿فَاسْأَلْهُ﴾، وأما الأداة فهي: "ما".

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٤).

ب-غرض السؤال: السؤال: تقرير النسوة ببراءة يوسف.وقد" جعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر؛ لإعادة ذكره من أوله، فمعنى ﴿فاسْأَلْهُ﴾: بلِّغ إليه سؤالاً من قِبَلي"[(١)].

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: يوسف، ومخاطَبه: الملك، ورسول الملك هو حامل السؤال إليه.

د-موضوع السؤال: بيان براءة يوسف من التهمة باستعلام الملك للنسوة عن شأنهن مع يوسف.

هـ-ظرف السؤال: الظرف المكاني: السجن، والظرف الزماني: عند مجيء رسول الملك بأمره بالإتيان بيوسف، عقب تعبيره رؤياه.

السؤال الخامس: قال تعالى: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[يوسف:٥٩].

أ-أداة السؤال: الهمزة[(٢)].

ب-غرض السؤال: التشويق والترغيب بالعودة إليه مرة أخرى بصحبةَ بنيامين.

فهذا من يوسف" ترغيب لهم في العودة إليه، وقد علم أنهم مضطرون إلى العودة إليه؛ لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من الناس مثلهم، كما دل عليه قولهم بعد: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[يوسف: ٦٥]"[(٣)].

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: يوسف، ومخاطَبه: إخوة يوسف.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٧٥).

(٢) إعراب القرآن وبيانه (٥/١٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٨٥).

د-موضوع السؤال: بيان وفائه بالكيل، وحسن ضيافته لهم؛ ترغيبًا في الإتيان ببنيامين.

هـ-ظرف السؤال: الظرف المكاني: مصر، والظرف الزماني: عند إعطائهم الطعام، وتجهيز ركابهم به.

السؤال السادس: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[يوسف:٦٤].

أ-أداة السؤال: "هل"[١].

ب-غرض السؤال: الإنكار والنفي، و"معناه: ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قبل حتى آمنكم عليه؟ والاستفهام إنكاري، فيه معنى النفي، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾"[٢].

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: يعقوب عليه السلام، ومخاطَبه: أبناؤه.

د-موضوع السؤال: إنكار يعقوب ائتمانَه أبناءَه على ابنه بنيامين.

هـ-ظرف السؤال: الظرف المكاني: الشام، والظرف الزماني: عند مجيء أبنائه من مصر وقد طلبوا منه ذهاب بنيامين معهم في الرحلة القادمة.

السؤال السابع: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[يوسف:٦٥].

---

(١) إعراب القرآن للدعاس (٢/٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٨٧).

أ-أداة السؤال: "ما"، على قول قتادة، والمعنى على ذلك: أي شيء نطلب من الكرامة؟ هذه أموالنا ردت إلينا، أو أي شيء نبغي بتعريفنا إياك؟ فإن الملك قد برنا، وهذِهِ بِضاعَتُنا تدلّ على ذلك إذ رُدَّتْ إِلَيْنا، أو ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الداعي إلى امتثال أمره والمراجعة إليه في الحوائج؟[(١)].

ويجوز أن تكون" ما" نافية ؛ ويكون في (نبغي) وجهان: أحدهما: بمعنى نطلب؛ فيكون المفعول محذوفًا؛ أي: ما نطلب الظلم.والثاني: أن يكون لازمًا بمعنى: ما نتعدى.وعلى ذلك فَيحسن الْوَقْف على نبغي، وَلَا يحسن فِي الِاسْتِفْهَام الْوَقْف على نبغي؛ لِأَن الْجُمْلَة الَّتِي بعده فِي مَوضِع الْحَال[(٢)].

ب-غرض السؤال: الإنكار " بتنزيل المخاطب منزلة من يتطلب منهم تحصيل بغيةً فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى أي: ماذا نطلب بعد هذا"[(٣)].

وقوله: "﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته، كأنهم قالوا: كيف لا؟ وهذه بضاعتنا ردها إلينا تفضلاً من حيث لا ندري بعدما منَّ علينا من المنن العظام، هل من مزيد على هذا فنطلبه؟ ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقًا أو التقاعد عن نظائره، بل أرادوا الاكتفاء به في استيجاب الامتثال لأمره، والالتجاء إليه في استجلاب المزيد"[(٤)].

---

(١) ينظر: إعراب القرآن وبيانه (١٨/٥)، إعراب القرآن للنحاس (٢٠٨/٢)، المحرر الوجيز (٢٦٩/٣)، تفسير أبي السعود (٢٩٠/٤).

(٢) التبيان في إعراب القرآن (٧٣٧/٢)، مشكل إعراب القرآن لمكي (٣٨٩/١).

(٣) التحرير والتنوير (٨٨/١٢).

(٤) تفسير أبي السعود (٢٩٠/٤).

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: إخوة يوسف، ومخاطَبه: أبوهم يعقوب.

د-موضوع السؤال: الإنكار على أبيهم عدم السماح لهم بالذهاب ببنيامين إلى مصر، وقد رأوا إكرام الملك برد دراهمهم إليه في متاعهم.

السؤال التاسع: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾[يوسف:٨٠].

أ-أداة السؤال: الهمزة.

ب-غرض السؤال: التقرير.

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: كبير إخوة يوسف، ومخاطَبه: إخوة يوسف.

د-موضوع السؤال: تذكير كبير إخوة يوسف إخوتَه بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه(١).

هـ-ظرف السؤال: الظرف المكاني: مصر، والظرف الزماني: عندما يئسوا من استجابة العزيز بأخذ أحدهم مكان بنيامين، فانفردوا **فقال** أخوهم الكبير هذا القول.

السؤال العاشر: قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[يوسف:٨٢].

أ-أداة السؤال: لفظ السؤال: " وَاسْأَلِ ".

ب-غرض السؤال: التثبت والتأكد.

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٠٥).

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: يعقوب عليه السلام، ومخاطَبه: أهل مصر، ورفاق أبناء يعقوب في قافلتهم.وقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ المراد بالقرية: مصر، وسؤولها سؤال أهلها وهو عند من يقول بالمجاز: مجاز مرسل علاقته المحلية، وعند من لا يقول بالمجاز هو لديه على حذف المضاف المعلوم بالقرينة الدالة عليه.

د-موضوع السؤال: معرفة صدق أبناء يعقوب فيما أخبروه من أخذ بنيامين بما وجد في وعائه من صواع الملك.

ولم يحصل أن يعقوب عليه السلام جرى منه هذا السؤال.

السؤال: السؤال الحادي عشر: قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

أ-أداة السؤال: هل.

ب-غرض السؤال: التوبيخ[١]، **وقيل**: "التعظيم والتهويل أي: إن الأمر الذي ارتكبتموه كان بمثابة لا يقدم عليه فيها أحد، ولكنكم أقدمتم غير آبهين للعواقب، ولا عارفين بما يؤول إليه أمر يوسف من الخلاص من الجب، ثم ولاية الملك"[٢].

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: يوسف، ومخاطَبه: إخوة يوسف.

د-موضوع السؤال: التذكير بما فعل إخوة يوسف بيوسف وبنيامين.

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/٤٧).

(٢) إعراب القرآن وبيانه (٥/٤٧).

هـ-ظرف السؤال: الظرف المكاني: مصر، والظرف الزماني: عند رجوع إخوة يوسف إليه بعد حادثة بنيامين، وشكوا إليه حاجتهم، وطلبوا منه الإحسان إليهم.

السؤال الثاني عشر: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٩٦].

أ-أداة السؤال: الهمزة.

ب-غرض السؤال: التقرير مع التوبيخ(١).

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: يعقوب، ومخاطَبه: أبناؤه ومن حضره.

د-موضوع السؤال: بيان حياة يوسف، وأن الله سيجمع بينه وبين أبيه.

هـ-ظرف السؤال: الظرف المكاني: الشام، والظرف الزماني: حين مجيء البشير بقميص يوسف فارتد بصيرا.

السؤال الثالث عشر: قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٠٧].

أ-أداة السؤال: الهمزة.والهمزة...داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أغفلَ هؤلاء المشركون عن مكر الله تعالى، فأمنوه ولم يخافوا؟"(٢).

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١/٣٠٥).

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٤/١٣٥).

ب-غرض السؤال: التوبيخ والإنكار والتهديد[1].

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: الله تعالى، ومخاطَبه: المشركون، بإبلاغ رسول الله محمد ذلك إليهم.

د-موضوع السؤال: الإنكار على المشركين أمانهم من إتيان العذاب أو الساعة عليهم وهم مازالوا على شركهم.

السؤال الرابع عشر والخامس عشر: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[يوسف:١٠٩].

أ-أداة السؤال: "الهمزة"، و"كيف".والتقدير مع الهمزة: أغفلوا عن مكرنا فلم يسيروا"[2].

ب-غرض السؤال: الإنكار والتوبيخ، والوعيد والتهديد[3].

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: الله تعالى، ومخاطَبه: المشركون، بإبلاغ رسول الله محمد ذلك إليهم.

د-موضوع السؤال: الإنكار على المشركين غفلتهم عن النظر في عاقبة القوم المكذبين، وتوعدهم على ذلك.

السؤال: السادس عشر: قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:١٠٩].

---

(١) تفسير البحر المحيط(٥/٣٤٥)، التحرير والتنوير (١٢/١٢٥).

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٤/١٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/١٢٨).

أ-أداة السؤال: الهمزة. "والهمزة:داخلة على محذوف، و (الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أتعرضون يا أهل مكة عن إعمال فكركم في خيرية الآخرة على الدنيا؟ "[1].

ب-غرض السؤال: التوبيخ.

ج-السائل ومخاطَبُه: السائل: الله تعالى، ومخاطَبه: المشركون، والآية فيها قراءتان: بالياء وبالتاء.

د-موضوع السؤال: توبيخ المشركين على عدم عقلهم أن الآخرة خير من الدنيا.

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٤/ ١٤٩).

المطلب الثاني: الجواب:

التعريف:

لغة:

(**جوب**) الجيم والواو والباء أصل يدل على مراجَعة الكلام، يقال: كلمه فأجابَه جَواباً، وقد تجاوَبا مُجاوَبة، والمجابَةُ: الجواب، ويقولون في مَثَلٍ: "أساءَ سَمْعاً فأساء جابةً".

وجوابُ الكلام: هو ما يقطع الجوْب فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع، لكن خصّ بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾[النمل:٥٦].

والجواب يقال في مقابلة السؤال، والسؤال على ضربين: طلب مقال، وجوابه المقال، وطلب نوال، وجوابه النوال.

فعلى الأول: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾[الأحقاف:٣١]، وقال: ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾[الأحقاف:٣٢].وعلى الثاني قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾[يونس:٨٩]، أي: أعطيتما ما سألتما.

والجَوابُ: رَدِيدُ الكلام، وهو ما يكون رداً على سؤال أو دعاء أو دعوى أو رسالة أو اعتراض ونحو ذلك، والإِجابَةُ: رَجْعُ الكلام، تقول: أَجابَه عن سُؤَاله، وقد أَجابَه إِجابةً وإِجاباً وجَواباً وجابةً، واسْتَجْوَبَه واسْتَجابَه واسْتَجابَ له.

والإجابة: أعم من القبول؛ لأنه عبارة عن قطع سؤال السائل، والقطع قد

يكون بترتيب المقصود بالسؤال، وقد يكون بمثل: (سمعت سؤالك، وأنا أقضي حاجتك) وقد نُظم فيه:

تقبّـــلْ سُـــؤَالِي لَا تُجبـــه فـــإنني لوعـدِك فِي ضـمنِ الْإِجَابَـة خَـائِفُ

والْجَواب: هُوَ مُشْتَقّ من (جاب الفلاة) إِذا قطعهَا، وسمي الْجَواب جَوَابًا؛ لِأَنَّهُ يَنْقَطِع بِهِ كَلَام الْخصم، وَيسْتَعْمل فِيمَا يتَحَقَّق ويجزم وُقُوعه، وَالْجَزَاء يسْتَعْمل فِيمَا لَا يجْزم وُقُوعه وَعدم وُقُوعه[1].

اصطلاحًا:

الجــواب هــو: مـا يكــون رداً عـلى ســؤال المــستعلم بالموافقــة، أو الــرد أو السكوت، أو حل ما أشكل على السائل. سواء كان الجواب قولاً أم كتابة أم إشارة مفهمة أم فعلاً يفيد المطلوب[2].

تناولنا في المطلب الأول الحديث عن الأسئلة التي لا جواب لها، وهي الأسئلة المجازية؛ لأن السائل لم يكن غرضه انتظار جواب يجهله، وإنما غرضه شيء آخر.

وفي هذا المطلب سنتحدث عن أجوبة الأسئلة الحقيقية التي كان القصد منها الإفهام والمعرفة.

وقبـل الخـوض في ذلـك سـنتحدث عـن **أمـرين**: **الأول**: حـروف الجـواب، **والثاني**: مطابقة الجواب للسؤال وعدم مطابقته.

---

(١) معجـم مقـاييس اللغـة لابـن فـارس (١/ ٤٩١)، المعجـم الوسـيط (١/ ١٤٥)، مفـردات ألفـاظ القـرآن (١/ ٢٠١)، لسان العرب (١/ ٢٨٣)، الكليات (ص: ٥١)(ص: ٣٥٢).

(٢) سؤال الاستعلام وجوابه في ضوء القرآن والسنة، للمؤلف (١٤٢).

أولاً: أحرف الجواب[1]:

هناك أحرف استعملها العرب في إجابة السائل قصدوا بها الاختصار، كما صنعوا في السؤال إذا ابتدأوا به، فكما جعلوا للسؤال أدوات تنوب عن الألفاظ فكذلك فعلوا مع الجواب.

وهناك فائدة أخرى في الإتيان بالأحرف أحيانًا بدلاً من الألفاظ ألا وهي: ترك التكرار، **قال** الكفوي: "الأصل في الجواب أن يعاد فيه نفس السؤال ليكون وفقه نحو: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾[يوسف:٩٠].وكذا ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾[آل عمران: ٨٢].هذا أصله، ثم إنهم أتوا عوض ذلك بحرف الجواب؛ اختصاراً، وتركًا للتكرار، والسؤال معاد في الجواب"[2].

وأحرف الجواب هي: أَجَلْ، إِيْ، بلى، لا، نَعَمْ.

غير أن أجوبة الأسئلة في قصة يوسف قد جاءت بالألفاظ، ولم تأت بالأحرف، ولعل سبب هذا: أن المقام يقتضي ذلك، ففي في بعض المواضع يكون الإطناب أولى من الإيجاز.

ثانيًا: مطابقة الجواب للسؤال وعدم مطابقته[3]:

الأصل في الجواب: أن يكون مطابقًا للسؤال، فقد" تقرر في علم العربية أن الجواب

---

(١) ينظر في معاني هذه الحروف واستعمالاتها: سؤال الاستعلام وجوابه في ضوء القرآن والسنة (١٤٣) وما بعدها.

(٢) الكليات (ص:٥٠٢).

(٣) ينظر في معاني هذه الحروف واستعمالاتها: سؤال الاستعلام وجوابه في ضوء القرآن والسنة (١٤٦) وما بعدها.

يأتي على حسب السؤال مطابقاً له في اللفظ، ومراعى فيه المعنى لا اللفظ "[1].

لكن قد يعدل المجيب عن هذا الأصل إلى غيره لفائدة.

ومن صور العدول عن المطابقة:

١- الجواب عن السؤال بأكثر منه.

٢- الجواب عن السؤال بأقل منه.

٣- أن يعدل المجيب عن جواب سؤال السائل إلى جواب سؤال كان الأولى بالسائل أن يسأله.

٤- أن يعدل عن الجواب المطلوب إلى جواب يتضمن إنكار ما سأل عنه السائل.

٥- السكوت عن الجواب.

الجواب عن الأسئلة الحقيقية في قصة يوسف عليه السلام:

وتحت هذا العنوان سنورد القسم الثاني-كما ذكرنا من قبل- وهو الأسئلة الحقيقية، وهي التي لها جواب، وسنجعل ذلك في **فرعين**:

الفرع الأول: الجواب عن المرائي في قصة يوسف عليه السلام:

حينما يقص الرائي رؤياه على من يعبرها فإن ذلك يعد سؤالاً، وتعبير الرائي لتلك الرؤيا هو جواب لذلك؛ ولهذا نجد في الرؤى التي ذكرت في قصة يوسف استعمال بعض الألفاظ المستعملة في السؤال والطلب وهي: نبئنا، نبأتكما، أفتوني،

(١) تفسير البحر المحيط (٣/ ١١٢).

أفتنا، تستفتيان.

الرؤيا الأولى: رؤيا يوسف:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يوسف:٤-٥].

ويبدو من ظاهر هاتين الآيتين أن يعقوب لم يذكر تأويل هذه الرؤيا، ولكن في نهاية القصة ظهر أنه قد أخبر يوسف بتأويلها قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[يوسف:١٠٠].

غير أن القرآن لم يصرح بذلك عقب سؤال يوسف أباه في أول القصة.

الرؤيا الثانية: رؤيا الفتيين:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٣٦].

فلم يذكر يوسف لهما جواب ما رأياه عقب سؤالهما، بل فصَل السؤال عن الجواب بدعوتهما إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا

أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف:٣٧-٤٠].

وقد ذكر بعض العلماء لعدول يوسف عن الجواب المباشر أسبابًا:

قال الرازي: اعلم أن المذكور في هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه، فلا بد ههنا من بيان الوجه الذي لأجله عدل عن ذكر الجواب إلى هذا الكلام، والعلماء ذكروا فيه **وجوهاً**:

الأول: أنه لما كان جواب أحد السائلين أنه يصلب- ولا شك أنه متى سمع ذلك يعظم حزنه وتشتد نفرته عن سماع هذا الكلام- فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه، حتى إذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة.

الثاني: لعله عليه السلام أراد أن يبين أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه؛ وذلك لأنهم طلبوا منه علم التعبير، ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين، فبين لهما أنه لا يمكنه الإخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين، مع عجز كل الخلق عنه، وإذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقاً على كل الناس في علم التعبير كان أولى، فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقاً في علم التعبير، واصلاً فيه إلى ما لم يصل غيره.

والثالث: لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله، فأورد عليهما ما دل على كونه رسولاً من عند الله تعالى؛ فإن الاشتغال بإصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا.

والرابع: لعله عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد في أن يدخله في الإسلام؛ حتى لا يموت على الكفر ولا يستوجب العقاب الشديد، لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيّ عَن بَيِّنَة[1].

وقال الطبري: "فإن **قال** قائل: ما وجه هذا الخبر ومعناه من يوسف؟ وأين جوابه الفتيين عما سألاه من تعبير رؤياهما، من هذا الكلام؟

قيل له: إن يوسف كره أن يجيبهما عن تأويل رؤياهما؛ لما علم من مكروه ذلك على أحدهما، فأعرض عن ذكره، وأخذ في غيره؛ ليعرضا عن مسألته الجوابَ عما سألاه من ذلك"[2].

ثم بعد هذه الدعوة ذكر لهما التعبير فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف:٤١].

الرؤيا الثالثة: رؤيا الملك:

فقد رأى الملك رؤيا أهمته فسأل ملأه عنها فلم يجد عندهم جوابًا، وكان الفتى الناجي حاضراً، فتذكر يوسفَ عليه السلام، فطلب إرساله إلى يوسف

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/١٠٩).

(٢) تفسير الطبري (١٦/١٠٢).

ليستعبره، فأرسل لذلك، فجاء يوسف عليه السلام فسأله، فعبر يوسف تلك الرؤيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[يوسف:٤٣-٤٩].

الفرع الثاني: الجواب عن الأسئلة في قصة يوسف عليه السلام:

السؤال الأول وجوابه: قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

فقد طلب يوسف عليه السلام من الملك سؤال النسوة، فجمعهن الملك فسألهن عن مراودتهن يوسف، فكان جوابهن أبلغ جواب؛ حيث نفين عنه كل سوء يخدش عفته، وشهدن له بالبراءة.

فجملة: "﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ مبينة لإجمال النفي الذي في ﴿حَاشَ

لِلَّهِ﴾.وهي جامعة لنفي مراودتهن إياه ومراودته إياهن؛ لأن الحالتين من أحوال السوء، ونفي علمهن ذلك كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء، ونفي دعوته إياهن إليه؛ لأن ذلك لو وقع لكان معلومًا عندهن، ثم إنهن لم يزدن في الشهادة على ما يتعلق بسؤال الملك، فلم يتعرضن لإقرار امرأة العزيز في مجلسهن بأنها راودته عن نفسه فاستعصم؛ خشية منها، أو مودة لها، فاقتصرن على جواب ما سُئلن عنه"[1].

السؤال الثاني والثالث وجوابها: قال تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[يوسف:٧١-٧٥].

سمع إخوة يوسف قول المنادي من فتيان يوسف يخاطبهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف:٧٠].

فأقبلوا عليه بالسؤال: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾، وهو سؤال حقيقي؛ لجهلهم بالشيء المفقود، فأجاب المنادي قائلاً: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وهذا جواب مطابق للسؤال حيث أجاب بالجملة الفعلية الظاهرة على السؤال المماثل لها، وأضاف شيئين في الجواب لا علاقة لهما بالسؤال وهما: الجُعالة لمن أتى بالصواع، والضمان على الوفاء بذلك، والغرض من ذلك: إيهام إخوة يوسف بجهلهم

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٧٦).

بوضع الصواع في وعاء بنيامين؛ حتى تتم الحيلة بإبقاء بنيامين لدى يوسف.

فلما سمع إخوة يوسف ذلك نفوا عن أنفسهم السرقة نفيًا مؤكداً، فقال المنادي ومن معه: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ فأحالوا بهذا السؤال الجوابَ على إخوة يوسف؛ تمريراً للحيلة، فقال إخوة يوسف: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، فكان هذا الجواب أيضًا مطابقًا للسؤال؛ حيث سأل المنادي ومن معه بالجملة الاسمية فأجاب إخوة يوسف بالجملة الاسمية كذلك.

السؤال الرابع وجوابه: قال تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ[(١)] قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

إن يوسف عليه السلام لما قال لإخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩]، استغربوا وتعجبوا أن يكون من أمامهم هو يوسف الذي ألقوه في الجب، فذهلوا عن جواب سؤاله، فأجابوا عن السؤال بسؤال فقالوا: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ وهو استفهام تقريري أرادوا به الاستثبات المشبع بالاستغراب[(٢)].

فأجاب يوسف عن سؤالهم بجواب مطابق له لفظًا وظاهراً؛ حيث أجاب بجملة اسمية، وقال: أنا يوسف، ولم يقل: نعم، فيكتفي بذلك.

---

(١) وهذا السؤال وإن كان مجازيًا، لكننا أدخلناه هنا لوجود جواب له.

(٢) تفسير البيضاوي(٣/١٧٥)، تفسير الكشاف(٢/٥٠٢).

الرجال والنساء

المطلب الأول: الرجال:

التعريف:

لغة:

(**رجل**) الرَّجُل: الذكرُ من نوع الإِنسان خلاف المرأَة، وقيل: إِنما يكون رَجلاً فوق الغلام، وذلك إِذا احتلم وشَبَّ، وقيل: هو رَجُل ساعة تَلِدُه أُمُّه إِلى ما بعد ذلك. **وتصغيره**: رُجَيْل ورُوَيْجِل على غير قياس، والجمع رِجال، ورِجالاتٌ جمع الجمع.

الرجل: مختص بالذكر من الناس؛ ولذلك **قال** تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾[الأنعام:٩]، **ويقال**: رَجُلة للمرأة: إذا كانت متشبهة بالرجل في بعض أحوالها، وتَرَجَّلَتِ المرأَةُ صارت كالرَّجُل، **قال** الشاعر:

كُلُّ جارٍ ظَلَّ مُغْتَبِطاً ... غيرَ جيران بني جَبَلَهْ
خَرَقُوا جَيْبَ فَتاتِهِمُ ... لم يُبالوا حُرْمَةَ الرَّجُلَهْ

وفلان أرجل الرجلين، وبيِّن الرجولة والرجولية، والرجولة والرجولية: كمال الصفات المميزة للرجل[1].

(١) لسان العرب (١١/٢٦٥)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٨٨)،المعجم الوسيط (١/٣٣٢).

اصطلاحًا:

اسم الرجل شرعًا: مَوْضُوع للذات من صنف الذُّكُور من غير اعْتِبَار وصف مُجَاوزَة حد الصغر، أَو الْقُدْرَة على المجامعة، أَو غير ذَلِك[1].

نافذة:

تأملت في قصة يوسف عليه السلام فوجدت فيها حضوراً كبيراً لصنف الرجال، وقد ذكرت آيات القصة أعمالهم، وصفاتهم الشخصية؛ لهذا سنتحدث في هذا عن أعمال الرجال في هذه القصة وعن صفات شخصياتهم.

أولاً: أعمال الرجال:

فالرجال في قصة يوسف كانوا هم المتحملين للعبء الأكبر، وعليهم تقوم أعمدة الحياة.

فإليهم مهمة توجيه الأبناء الكبار ومراقبة أحوالهم، ونيل الحظ الوافر من مشكلاتهم وتبعاتها المرهقة.

وعليهم مهمة السعي في طلب الرزق، وكفاية الأسرة بالطعام، وربما قطعوا الفيافي والقفار، وتعرضوا للمخاوف والآلام من أجل ذلك.

وعليهم إدارة الحياة الصغرى والكبرى، فهم القائمون على شأن الأسرة وأمر النساء بما فيه مصلحتها.

وهم المديرون لشؤون الدولة السياسية والاقتصادية، وإليهم يفوض

(١) الكليات (ص: ٤٨٠).

الاعتناء بأحوال الناس المعيشية تحت ظلال تلك السلطة العامة.

وهم الذين يسعون لإسعاد الناس بأموالهم وجاههم وسلطانهم إذا كانوا موفقين للحق.

ثانيًا: صفات الرجال الشخصية في قصة يوسف عليه السلام:

وهم في هذه القصة أفراد وجموع:

أ-الأفراد:

١-يعقوب عليه السلام:

بدا يعقوب عليه السلام في هذه القصة أبًا حنونًا رحيمًا، ذا قلب رؤوف بأبنائه جميعًا، حريصًا على دوام الألفة بينهم، وذهاب أسباب القطيعة منهم، متجرعًا الغصصَ والأوجاع حزنًا من أبنائه على أبنائه.

لم يكن أبًا يريد الانتقام من بعض أبنائه؛ جزاء ما أدخلوا عليه من المكاره، وسلبوه من المحاب، وإنما كان يلعق جراحه، ويكتوي بألمه وحده؛ لعل أبناءه يؤبون إلى رشدهم، ويعودون إلى برهم.

كان مرجع أبنائه يسألونه، وينتظرون توجيهاته السديدة؛ يدخل عليه يوسف فيقص عليه رؤياه، فيدرك الأب الشفوق عظمة مآل هذه الرؤيا، فيحذر يوسف من قصها على إخوته خشية عليه من كيدهم؛ لمعرفته عظم حسدهم له.

ويقبل على يوسف بمحبة كبيرة؛ لما رأى فيه من أمارات النجابة والخير، ولما ينتظره من المستقبل الوضاء الذي أنبأته عنه تلك الرؤيا الصالحة.

وكان أبناؤه قد امتلأوا حنقًا على يوسف فأرادوا التخلص منه وإبانته عن أبيه، وكان يعقوب يدرك مكرهم، لكن أبناءه استعملوا معه الحيلة حتى ذهبوا بحبيبه من بين يديه، فاستقبل النبأ الجليل بصبر جميل، وبقي رهين الحزن على فقد يوسف.

ثم تذكر لنا الآيات عن هذه الشخصية الفذة موقفًا آخر تجلى فيه تميزه بصفات الكمال الرجولية؛ فهو بعد لم يندمل جرحه على فقد يوسف، وإذ بأبنائه يطلبون منه سلوته الأخيرة بنيامين.

فإنهم لما رجعوا من مصر طلب منهم العزيز الإتيان ببنيامين فعرضوا الأمر على أبيهم فتمنع أول مرة من الموافقة لسابقة السوء التي سبقت من أبنائه مع يوسف، غير أن المصلحة الغذائية للأسرة دعته إلى الموافقة.

وهذا موقف ظهر فيه يعقوب عليه السلام مقارنًا بين المصالح والمفاسد، فتحمل العناء الصغير من أجل دفع العناء الكبير.

غير أن الأنباء بعد ذلك وصلت إليه بما يكره عن بنيامين فتلقى ذلك بالصبر المضاعف، ولشدة الفاجعة على الفاجعة فقد فقد بصره، ومع ذلك كله لم ييأس ولم يجزع، بل ازداد تجلداً وتفاؤلاً وحماسًا لرؤية يوسف.

فدعاه تفاؤله لإرسال أبنائه إلى مصر حتى ظفروا بيوسف الصديق بعد ذلك.

وهكذا ظهر يعقوب في القصة: أبًا حذراً، تقيًا، عابداً، رحيمًا، ناصحًا صابراً متفائلاً غير يائس من رحمة الله وفرجه، عفوّاً مستغفراً لمن أساء إليه.

٢-يوسف عليه السلام:

يوسف الشخصية العظيمة في هذه القصة التي تميزت بأجمل الميزات، وظهرت بأحسن الصفات؛ ففي طفولته كان هو الطفل المحبوب لأبيه الذي يرجع إليه فيما أشكل عليه فيستفيد من والده التوجيه والإرشاد، ويكتم عنه ما أمره بكتمانه.

وهو الطفل الذي سرقت طفولته البريئة من حضن والده، فصبر على إيذاء إخوته، وفراق أبويه.

وما زال يتنقل في مراحل الصبر من مرحلة إلى أخرى، فمن صبره على إخوته، وصبره على بلاء الجب، وصبره على ذل الرق، وصبره عن مراودة المرأة وصواحبها، وصبره على ضر السجن، وصبره على نفع الناس وأداء الوظيفة الموكلة إليه.

ويبدو يوسف عليه السلام في قصته شابًا شغفت به النساء لبهاء مرآه، لكنه اعتصم منهن بعفافه وخوفه من الله، ذاكراً جميل من أحسن إليه بلا نكران، فلم يخن سيده في أهله.

ومع ما فعلت به امرأة العزيز فإنه لم ينكر فضلها عليه؛ فهو لم يذكر اسمها يوم شكواه إلى الملك بل **قال** على سبيل العموم والتعريض: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

كما بدا يوسف عليه السلام محسنًا إلى الناس إحسانًا معنويًا بتعبيره رؤاهم، وإجابته عن سؤلاتهم، وإحسانًا ماديًا بإسعاف الناس الأقربين والأبعدين بالطعام وكرامة الضيافة.

وظهر عليه أيضًا كمال العلم ورجاحة العقل، وحسن التصرف، وفصاحة القول، وسلامة السلوك مما يعاب، والرحمة بأهل الفاقة.

وحينما تم التعارف بينه وبين إخوته توشح بأبهى الخصال، وأجلِّ الخِلال؛ فلم يكن رجلاً يحب الانتصار لنفسه، والانتقام لشخصه، ولم يرُق له أن يرى من آذوه أذلاء بين يديه وهو العزيز، فقد سمت به نفسه الشريفة إلى آفاق العفو والصفح، ومازال يرقى به خلقه الكريم حتى بلغ رتبة الإحسان بعد العفو، فدعا لإخوته بالمغفرة، وطلب منهم الإتيان بأهلهم أجمعين إلى مصر حيث العز والشرف والغنى، فأحسن نزلهم، وأكرم منزلهم.

ولسنا ننسى يوسف الابن البار بوالده العطوف به، الذي سارع إلى إدخال السرور عليه بالوسيلة التي دخل الحزن عليه بها، ثم يبدي من وجوه البر بوالديه رفعهما على العرش تكريمًا وتعظيمًا.

ومع هذه الدنيا العريضة يبدو يوسف زاهداً عنها راغبًا في الآخرة، محبًا للوفاة على الإسلام واللحاق بعباد الله الصالحين.

وهكذا بدا يوسف عليه السلام في قصته: باراً رحيمًا، عفواً كريمًا، عفيفًا عطوفًا، عالمًا عاقلاً، مؤمنًا تقيًا، أمينًا، مراقبًا لله، شاكراً له، صادقًا، معترفًا بإحسان من أحسن إليه، نافعًا للناس، ذكيًا فصيحًا، وفيًا، مضيافًا، مفكراً اقتصاديًا، دعَّاء، رجل دولة عادلاً، صابراً محتسبًا، معرضًا عن الدنيا مقبلاً على الآخرة.

وهكذا بقيت شخصية يوسف بهذه الصفات الكاملة على صورة الصفاء والألق، لم تعكرها أحداث الآلام والبلاء، ولا أحداث الإغراء والنعماء، ولا

سلطة الجاه العريض، ولا القدرة على النيل ممن آذاه.

٣-صاحب رأي الإلقاء في الجب من إخوة يوسف:

يبدو أن إخوة يوسف لم يكونوا على حال واحدة من بغض يوسف؛ فقد بدا منهم واحد أجرى الله على لسانه فكرة التخلص من يوسف بإلقائه في الجب، بدل قتله وإهلاكه، فكان بهذا الرأي أخف حِدة، وأقل حنقًا، وأقرب رحمًا، وبعض الشر أهون من بعض.

٤-العزيز:

هذا الرجل له موقفان عرفت بهما شخصيته:

ففي الموقف الأول-وهو موقف إيجابي-: حينما اشترى يوسف بدا صاحب فراسة وخير؛ حيث أمر امرأته بإكرام يوسف؛ رجاء الانتفاع به في الخدمة أو البنوة، وهذه صفة حسنة فيه منّ الله بها على يوسف؛ ليزول عنه بها ما يعانيه سائر الأرقاء لدى مواليهم من الشدة، وعظم الإذلال.

والموقف الثاني-وهو موقف سلبي-: وهو موقفه حينما ألفى يوسف وزوجته لدى الباب، فبدا فيه قليل الغيرة، بارد الحمية، حيث لم يغضب ولم يولِ زوجته عقوبة على مراودتها بعد أن تبين له حصول ذلك منها، وقد اكتفى بأمر يوسف بالإعراض عن ذكر الموضوع للناس، وبأمر زوجته بالاستغفار؛ لكونها من الآثمين فيما فعلت.

وكانت هذا الصفة المذمومة -أعني: ضعف الغيرة- شرعًا ورجولة لطفًا من الله بيوسف؛ إذ لو كان الرجل كامل الغيرة فإنه سيصنع بيوسف كل شر، ولكن الله سلّم.

٥-الشاهد:

هذا الشاهد- سواء كان صغيراً أم كبيراً -بدت فيه صفة العدل في الحكم، وحسن القضاء، بناء على القرينة الظاهرة، مباعداً نفسه عن الميل إلى الحكم لصالح المرأة لصلة القربى بها.

٦-الملك:

الملك شخصية محورية أيضًا من شخصيات هذا القصة، وقد تميزت شخصيته بصفات حسنة، **ومنها**: استشارته ورجوعه إلى ملئه فيما يجهله.

ومنها: شكره لمن أسدى إليه الجميل، وذلك حينما طلب إخراج يوسف من السجن؛ مكافأة له على تعبيره رؤياه.

ومنها: عدله في محاكمة النسوة في شأن يوسف.

ومنها: معرفته للرجال ودرايته بأقدارهم، واصطفاؤه لخيارهم؛ ليكونوا معه في إدارة شؤون مملكته.

ومنها: تعظيمه لشأن العقل والمعرفة والأمانة والعفة، حينما أنزل يوسف تلك المنزلة السامية لديه؛ لما تحلى بهذه الشيم النبيلة.

لكن يؤخذ عليه ظلمه ليوسف في أول الأمر؛ حيث قذف به في السجن ظلمًا وعدوانًا من غير تدقيق قضائي في تهمته.

٧-الناجي من الفتيين:

هذا الفتى بدا كثير النسيان، ولا ندري سبب ذلك هل هو بهرج بلاط السلطان وحياة الترف التي عاد إليها حتى أنسته السجن ومن فيه، فلم يتذكر من

عبر له رؤياه التي وافق تعبيرها ما صار إليه.

ولكن بعد سنوات تذكر الفتى يوسفَ عندما سمع الملكَ يتحدث مع ملئه عن الرؤيا ولم يجد عندهم تأويلها، فهناك عادت به الذكرى إلى يوسف، فمحواً لذنب نسيانه انطلق رسولاً من الملك مستعبراً رؤياه لدى يوسف.

فظهر من صفاته الحسنة: حسن خطابه، بتذكره جميلَ صفات يوسف، حيث افتتح سؤاله بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾.

كما تميز أيضًا بحسن التحمل والأداء بين يوسف والملك، فإنه كان قد وعى الرؤيا فأداها كما سمعها، ونقل رسالة يوسف إلى الملك كما هي عليه.

٨-بنيامين:

ظهر بنيامين شخصية صامتة لا قول لها ولا فعل في مشاهد القصة، وإنما كان طفلاً محبوبًا لدى أبيه مع يوسف، ثم صار سلوة أبيه بعد فقد يوسف.

ثم طلبه يوسف للمجيء إلى مصر فذهب به إخوته إلى هناك وتم بقاؤه فيها، فتعرف يوسف إليه قبل أن يتعرف لإخوته، وأكرمه وأحسن نزله.

ويمكن أن يستشف من صفاته: أن يوسف قد أخبره بالحيلة التي سيبقيه لديه بها، فكتم بنيامين ذلك عن إخوته حتى انتهى الأمر على ما دُبِّر له.

٩-كبير إخوة يوسف:

هذا الرجل من إخوة يوسف بدا في نهاية القصة شخصية وفيّة عاقلة قيادية، حريصة على إرضاء الوالد وعدم إيلام قلبه؛ فقد رأس اجتماعًا استثنائيًا لإخوته يشرح لهم فيه حراجة موقفهم بعد احتباس بنيامين؛ حيث ذكّرهم بالعهد الذي

عقدوه مع أبيهم، فاستحيا أن يرجع إلى أبيه بنبأ فقدِ بنيامين بعد فقد يوسف، فألزم نفسه البقاء في مصر، وأرسل إخوته بهذه الرسالة الحزينة: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف:٨١-٨٢].

ب-الجموع:

١-إخوة يوسف:

بدا إخوة يوسف غير راضين بحب أبيهم ليوسف وأخيه، فنما لذلك في قلوبهم البغض والحسد لهما، خاصة ليوسف، ولما اشتد ذلك عليهم ولم يستطيعوا الصبر عزموا على قتل يوسف، فاجتمعوا وأداروا الأمر بينهم حتى اتفقوا على إلقائه في البئر وفعلوا ذلك، بعد أن كذبوا على أبيهم، وأظهروا له الحرص على إيصال الخير لأخيهم، ثم كذبوا عليه عند رجوعهم بأن الذئب قد أكله.

هكذا صنع بهم حب شفاء النفس من غيظها، حتى تعدوا على أخيهم، ولم يراعوا بر أبيهم.

ثم نراهم في مشهد آخر يذهبون إلى مصر لجلب الطعام للعائلة في وقت السنوات الشداد، فيلتقون بيوسف فيعرفهم من غير أن يعرفوه، فيطلب منهم العودة مرة أخرى ببنيامين، فراودوا أباهم في ذلك حتى خرجوا به إلى مصر.

وفي شأن بنيامين نجدهم حريصين على حفظه ورده إلى أبيهم، ويبرهن ذلك استرحامهم للعزيز، وتوسلهم بين يديه أن يطلق لهم بنيامين، ولو بأخذ واحد

منهم مكانه، ولعل سبب ذلك: العهد الذي أخذه أبوهم منهم، أو تغير حالهم إلى الصلاح والبر، أو الخوف على أبيهم من زيادة الحزن بعد حادثة يوسف.

ولأجل ذلك حصل لهم حرج شديد عندما احتبس بنيامين، حتى إن كبيرهم أبى الخروج من مصر حتى يأذن له أبوه أو يرجع ببنيامين.

فعادوا إلى أبيهم فأخبروه الخبر فاشتد حزنه فرقُّوا له، ثم أرسلهم والدهم مرة أخرى للبحث عن يوسف وأخيه، فسمعوا له، فدخلوا إلى مصر فوقفوا بين يدي يوسف متضرعين شاكين سوء حالهم، طالبين منه الصدقة عليهم، فعرفهم يوسف نفسه، فتعجبوا أن يصير أمر يوسف إلى تلك الحال من العز.

فظفروا حينئذ بعفوه ودعائه، ثم فازوا بإحسانه بإسكانهم في مصر، فخروا له ساجدين تحية وإكرامًا.

فتبين بعد هذا أن إخوة يوسف كانوا في أول أمرهم أهل حسد وبغض وعدوان على يوسف، وعقوق وعدم مراعاة لمشاعر أبيهم.

ثم بدوا بعد ذلك نادمين على تاريخهم المظلم مع أبيهم ومع يوسف، معترفين بجناياتهم، طالبين المغفرة على ذلك.

فتلخص أنهم مروا بمرحلتين: المرحلة الأولى: كانوا متصفين بالكيد، والظلم، والبغض، والحسد، والعقوق، القسوة، والكذب، والخداع.

المرحلة الثانية: ظهر من حسن صفاتهم: الطاعة والبر، والصدق، والتوبة والاعتراف بالذنب، والوفاء.

٢-السيَّارة:

هؤلاء القوم بدوا لا يعرفون غير المصلحة المالية، دون أن يكون لهم شأن بالرحمة ومعرفة عظمة الإنسان؛ فإنهم حينما وجدوا يوسف في البئر استبشر واردهم به لا ليعيده إلى أسرته وذويه، وينقذه مما هو فيه، ولكن ليكون لهم سلعة يربحون بها المال الوفير؛ فلذلك وردوا به مصر وباعوه هناك رقيقًا وهو حر كريم!

٣-الفَتيانِ:

هذان الفتيان بقيا مع يوسف في السجن مدة فرأيا منه خصال الخير، ووفور المعرفة؛ فلهذا، أو لإخبار يوسف عن نفسه أنه يعبر الرؤى؛ سألاه عما رأيا، حيث ظهر منهما الحرص على تعبير ما رأياه في المنام، منتظرينِ تأويل ذلك.

فوعدهما يوسف بالتعبير، ولكن بعد أن يسمعا منه الدعوة إلى توحيد الله، فأصغيا له حتى أتم براهين استحقاق الله للعبادة من غير شريك، ولا ندري هل آمنا عند ذلك أو بقيا على دينهما.

٤-الملأ:

هؤلاء هم مستشارو الملك حيث جمعهم ليسألهم عن تأويل رؤياه، فعرضها عليهم فبدا منهم عدم معرفة تعبيرها، فحكموا عليها بأنها من الأحلام المختلطة التي لا تتميز، وشهدوا على أنفسهم بالجهل في تأويل الأحلام.

٥-فتيانُ يوسف:

كان هؤلاء الفتية مساعدين ليوسف في عمله، ومن ذلك ما فعلوه من مساعدة يوسف من تدبير حيلة بنيامين، ومنهم المنادي الذي جرى بينه وبين إخوة يوسف الحوار، وقد ظهر منهم حسن الامتثال لتعليمات يوسف وتوجيهاته، حتى تمت الحيلة على أحسن ما يحب يوسف.

المطلب الثاني: النساء:

التعريف:

لغة:

النِّسْوةُ والنُّسْوة- بالكسر والضم- والنِّساء والنِّسْوانُ والنُّسْوان: جمع المرأَة من غير لفظه، ويكون بذلك اسم جمع؛ لأن اسمُ الجَمع: هوَ مَا لَيسَ لَه واحِدٌ من لَفْظِه، وليسَ على وَزْنٍ خَاصٍّ بالجُموع أو غَالب فيها.

وقال ابن سيده: والنساء جمع نسوة إذا كثرن؛ ولذلك **قال** سيبويه في الإضافة إلى نساء: نِسْوِيّ، فردَّه إلى واحده، وتصغير نِسْوةٍ: نُسَيَّةٌ، ويقال: نُسَيَّاتٌ، وهو تصغير الجمع[1].

نافذة:

لم يكن هناك حضور كثير للنساء في قصة يوسف عليه السلام؛ لأن القصة مسوقة للعبرة بما جرى بين يوسف وإخوته.

لكن لاحظنا من النساء في القصة: امرأة العزيز، وصواحبها من نسوة المدينة، وأم يوسف أو خالته -على الخلاف-.

١ -امرأة العزيز:

كان لهذه المرأة حضور مؤثر في القصة، ودارت أحداث منها على ما عملته ودبرته، وقد تمتعت هذه المرأة بشخصية قوية نتج عنها قدرتها على دقة الحيلة،

(١) لسان العرب (١٥/ ٣٢١) معجم القواعد العربية (١/ ٤٠).

ولطف الكيد، و التأثير على زوجها وأسره في هواها، وتجييش النسوة معها في مرادها.

وحينما نعود إلى ذكر صفات هذه المرأة حسب ما ذكرتها مشاهد القصة فإننا سنجدها:

طيّعة لزوجها في إكرام يوسف، فلما شب عندها غلبتها أنوثتها الجامحة حتى فُتنت به، وأرادت إشباع غريزتها بالنيل من عفة يوسف.

فدبرت لذلك الخطة المناسبة؛ فانفردت به في مكان خالٍ، وأحكمت إغلاق الأبواب، غير أن يوسف لم يوافقها في هواها ففر منها، فتبعته غاضبة عليه حتى ألفيا سيدهما لدى الباب.

وهنا أسعفتها البديهة لتحول نفسها من متهمة إلى بريئة، فسارعت إلى اتهام يوسف بمراودتها، ولكن بأسلوب لغوي راقٍ جداً؛ حيث أطلقت التهمة في قالب العموم من غير تعيين المتهَم، وأطلقت عليه إرادة السوء؛ حتى لا يظن زوجها أنه قد حصل من يوسف الفعل، ثم ذكرت الوعيد المترتب على إرادة السوء، فهي بهذا كله متهِم وقاضٍ في الوقت نفسه!.

كانت تظن أن زوجها سيتخذ موقفًا حازمًا إزاء هذا الموقف، لكن لما رأت منه ضعف الحمية شجعها ذلك على استمرار المراودة، حتى بلغ الخبر نسوة المدينة فأنكرن عليها ذلك.

وفي هذا الموقف لم يكن منها إلا أن تستعين بعقلها لعمل حيلة تعزز موقفها، فدعتهن لوليمة تريهن فيها جمال يوسف؛ لتحقق من وراء ذلك **مصلحتين** لها:

أولاهما: أن يعذرنها في مراودة يوسف، **وثانيهما**: أن تستعين بهن في مهمتها.

ففعلت ذلك فأدخلت يوسف عليهن فذهلن لحسنه، حتى قطعن أيديهن بغير شعور، وقلن فيه ما قلن من الوصف، وهنا فرحت امرأة العزيز حيث وصلت إلى هدفها، فشجعها ذلك على الإصرار في استمرار المحاولة، فاستمرت، لكنّ يوسف اعتصم منها، فما كان منها إلا أن تملي على زوجها ضرورة إدخاله السجن، فتم لها ما أرادت.

ثم تنقلنا آيات القصة إلى المشهد الأخير الذي ظهرت فيه امرأة العزيز شخصية أخرى، بعد سنوات قضاها يوسف في السجن بعيداً عنها، فهدأت بعد عنفوانها، واستقرت عقب طيشانها.

فحينما طلب يوسف من الملك محاكمة النسوة حتى تظهر براءته على الملأ، جمعهن الملك وفيهن امرأة العزيز، وفي ذلك الموقف أعلنت باعترافها بمراودة يوسف، وشهدت بصدقه في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾، وأخبرت بعدم خيانته حال غيابه بالطعن فيه.

وأنهت الموقف بالاعتراف بضعفها وذنبها راجية مغفرة الله ورحمته.

وهكذا نجد امرأة العزيز قد بدت مفتونة بيوسف، حريصة على نيل حاجتها منه، ذكية في التخلص من المواقف المحرجة، وابتكار الحيل التي تؤيد مرادها، ثم ظهرت في آخر أمرها معترفة بخطئها، مبرأة ليوسف من تهمتها له، نادمة على ما فعلت، طالبة المغفرة لما جنت.

٢-النسوة:

لقد ظهر في هؤلاء النسوة صفات طبعية في النساء ومنها: حب التطلع، واستشراف ما حُدِّثن عنه، ورؤية الشيء الذي كثر الحديث عنه، وكثرة مداولة الكلام، وسرعة انتشاره بينهن؛ فإنهن لما بلغهن خبر امرأة العزيز مع فتاها يوسف أحببن الاطلاع عليه؛ لأنه لا يمكن أن تصل امرأة العزيز إلى هذا المنحدر من مراودة مولاها إلا لصفات حسنة توفرت في ذلك الفتى، فأردن الوصول إلى النظر إلى ذلك الفتى، فاتخذن حيلة لذلك وهي الإنكار على امرأة العزيز، ووصفها بالانحراف عن الصواب؛ ليدعوها ذلك إلى إحضارهن، فحصل لهن ذلك.

فلما رأين يوسف دهشن دهشًا عظيمًا بحسنه وجماله، ووصفنه بالمَلَك الكريم، وهناك عذرن امرأة العزيز في افتتانها، وساعدنها على مرادها، وكان ذلك من كيدهن لها.

ولما طلب الملك حضورهن -عقب الأمر بإخراج يوسف من السجن، وسألهن عن التهمة-؛ شهدن عند ذلك بسلامة يوسف وعفته.

وهكذا بدا من هؤلاء النسوة من الصفات: فتنتهن بالصور الحسنة، وتعلقهن بالمناظر الأنيقة، وكيدهن ومكرهن في التوصل إلى ما يردن، ومساعدة بعضهن بعضًا ولو في الباطل، وستر بعضهن على بعض، وحب الاجتماع على الطعام أو الشراب وتداول الكلام، ثم الاعتراف ليوسف بالبراءة من غير أن يذكرن امرأة العزيز؛ خوفًا منها، أو ستراً عليها.

٣-أم يوسف أو خالته:

من العجيب أن القصة لم تذكر أم يوسف بشيء إلا في نهايتها حينما رفع يوسف أباه وأمه على العرش، وتقدم معنا أن الراجح أن هذه أمه وليست خالته.

فلا ندري لماذا لم تتعرض القصة لذكر أم يوسف، فلعل العبر والعظات التي كانت في ذكر أبيه وإخوته كانت هي المقصودة في إطلاع الناس عليها، والعلم عند الله تعالى.

كيد النساء:

ونختم الحديث بالتنبيه على أمر يتعلق بصفات النساء في هذا القصة:

فقد ذكر العزيز عن النسوة في سياق مراودة امرأته يوسفَ عليه السلام صفة الكيد العظيم منهن، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف:٢٨].

وبالصفة نفسها ذكرهن يوسف عليه السلام فقال الله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يوسف:٣٣-٣٤]. وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠].

وفي هذا لنا ثلاث وقفات:

الوقفة الأولى: لماذا وصف كيد النساء بالعِظَم؟

قيل: إنما استعظم كيد النساء وإن كان في الرجال، إلا أنّ النساء ألطف كيداً

بما جبلن عليه، وبما تفرغن له، واكتسب بعضهن من بعض، وهن أنفذ حيلة، وكيدهن أعلق بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس، ولهنّ في ذلك تأنق ورفق، وبذلك يغلبن الرجال، وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[الفلق: ٤].وأما اللواتي في القصور فمعهن من ذلك ما لا يوجد لغيرهن؛ لكونهن أكثر تفرغاً من غيرهن، وأكثر تأنساً بأمثالهن، وكذلك: لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن[1].

وقال الرازي: "فإن قيل: إنه تعالى خلق الإنسان ضعيفاً، فكيف وصف كيد المرأة بالعظم، وأيضًا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء؟

والجواب عن الأول: أن خلقة الإنسان بالنسبة إلى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة، وكيد النسوان بالنسبة إلى كيد البشر عظيم، ولا منافاة بين القولين.

وأيضًا فالنساء لهن في هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال، ولأن كيدهن في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال"[2].

الوقفة الثانية: لماذا وصف كيد النساء بالعظم، وكيد الشيطان بالضعف؟

قال بعض الحكماء: سمى الله كيد الشيطان ضعيفًا، وسمى كيد النساء عظيماً؛ لأن كيد الشيطان بالوسوسة والخيال، وكيد النساء بالمواجهة والعيان.

---

(١) ينظر: تفسير الكشاف (٢/ ٤٣٥) تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٩٨)، تفسير البيضاوي(٣/ ٢٨٤)، تفسير القرطبي (٩/ ١٧٥).

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٨/ ١٠٠).

وعن بعض العلماء: إني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان؛ فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً﴾[النساء: ٧٦]. **وقال** للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف:٢٨]،ولأن الشيطان يوسوس مسارقة، وهن يواجهن به الرجال.

وليس بصحيح ما يدعيه بعضهم بأن كيدهن أعظم من كيد الشيطان، وهذا وإن كان أحياناً إلا أنه لا يطرد، فلا يطرد أن يكون كيد النساء أقوى من كيد الشيطان في كل وقت، بل كيد النساء سببه كيد الشيطان، فعلى الإجمال كيد الشيطان بالنسبة لأهل الإيمان ضعيف.

والاستدلال بهاتين الآيتين على تفوق كيد النساء على كيد الشيطان ليس بمستقيم، وإن فرضنا أن حكاية قول هذا إقرار له، فالمقام مختلف، وإنما كيد النسوان بعض كيد الشيطان.

أيضًا نقول: الذي يمكر ويبيت شيئاً خفيّاً بالنسبة لعدوه لا يملك قدرة على المواجهة، فيبيت من ورائه، ولو كانت عنده قدرة على المواجهة فلن يمكر؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف.ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً﴾[النساء: ٧٦]، ثم نجده سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨]، وما دام كيدهن عظيمًا فضعفهن أعظم؛ ولذلك نجد الشاعر يقول:

وضعيفةٍ فإذا أصابَتْ فرصةً ... قَتَلَتْ كذلك قُدْرَةُ الضُّعفاءِ

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه، أمَّا القوي فهو يثق في نفسه وقدراته؛ ولذلك يعطي خصمه فرصة ثانية وثالثة، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه[1].

---

(١) ينظر: بحر العلوم (٢/١٨٩)، تفسير أبي السعود (٤/٢٧٠)، سلسلة التفسير لمصطفى العدوي =

الوقفة الثالثة : ما كيد النسوة الذي كدن به يوسف؟

أجاب عن ذلك الرازي بقوله: "واعلم أن كيدهن في حقه يحتمل **وجوهاً**:

أحدها: أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه، فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه، وتنسبه إلى القبيح.

وثانيها: لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيدته على مرادها، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز فأشار بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إلى مبالغتهن في الترغيب في تلك الخيانة.

وثالثها: أنه استخرج منهن وجوهاً من المكر والحيل في تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك، فكان المراد من هذا اللفظ ذاك"[(١)].

= (٥/١٤)، تفسير المنار (٢٣٨/١٢)، تفسير الشعراوي (٤٦٧٩/٨).

(١) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٢٢/١٨).

الشِّدّة والفَرَج

المطلب الأول: الشدة:

التعريف:

لغة:

(**شد**) الشين والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على قوةٍ في الشيءِ، وفُروعُه ترجِع إليه، وشد الشيء شدة قوي ومتن وثقل، واشتد: قوي وزاد يقال: اشتد مرضه، واشتد به المرض، واشتد عليه في الأمر. والشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وهي نَقِيضُ اللِّينِ تكون في الجواهر والأَعراض، وشدة العيش: شظفه وضيقه. والشِّدَّة: المَجاعة، والشَّدائِدُ: الهَزاهِزُ، **والشِّدَّة**: صعوبة الزمن، والشِّدَّة والشَّدِيدَةُ: من مكاره الدهر، وجمعها شَدائد[1].

اصطلاحًا:

الشدة: الأمر يصعب تحمله[2].

نافذة:

إن الشدائد أمر ملازم للحياة الدنيا، لا يمكن للعيش أن يسلم منها؛ لأن الله تعالى قضى بأن النعيم التام، والعذاب التام لا يكون إلا في الآخرة، أما في هذه

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/١٧٩)، المعجم الوسيط (١/٤٧٦)، لسان العرب (٣/٢٣٢).
(٢) المعجم الوسيط (١/٤٧٦).

الدار الفانية فإن المؤمن يمر بشدائد يختبر الله بها إيمانه، ويصقل بها إيقانه، ويكفر بها سيئاته، ويرفع بها درجاته.

وأما غير المؤمن فتكون الشدائد عقوبة له على معاصيه؛ ولعل في تلك الكربات ما يرده عن غيه إلى ربه، وإلا فهي جزاء معجل على ما اقترف من الخطايا.

وفي قصة يوسف عليه السلام مشاهد من الشدة التي ذاق مرارتها آلُ يعقوب وغيرهم، وطال مقام بعضهم فيها، ولكنها أعقبت فرجًا بعد كرب، ويسراً بعد عسر.

وسنتحدث في هذا المطلب عن أمرين: مشاهد الشِّدَة في قصة يوسف عليه السلام، استشراف الفرج من خلال غيوم الشدة:

أولاً: مشاهد الشِّدَة في قصة يوسف عليه السلام:

١- مشاهد الشدة التي مر بها يعقوب عليه السلام:

لقد ذاق يعقوب عليه السلام شدائد متنوعة؛ كان أعظمها: شدة فقد يوسف، وشدة فقد بنيامين بعده.

المشهد الأول: شدة فقد يوسف عليه السلام:

كان ليوسف في قلب أبيه المحل الأعلى من بين إخوته، وكان أولئك الإخوة يدركون ذلك فغاظهم الأمر وحسدوا يوسف أشد الحسد على تلك المنزلة.

فسعوا لشفاء نفوسهم المتخمة بالحقد لإبعاد يوسف عن أبيه، فمازالوا يفتلون من أبيهم في الذِّرْوَة والغارِب حتى انفردوا بيوسف فنالوا منه بغيتهم، ثم

عادوا من جريرتهم فأخبروا أباهم أن الذئب قد أكل يوسف!

فيا ليت شعري كيف كان وقع النبأ العظيم على قلب الأب الرحيم يعقوب عليه السلام الذي كان يحزنه أن يفارق يوسف لحظات، حتى قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾[يوسف:١٣].فكيف حاله مع هذا الخطب الأليم؟!.

لكن يعقوب عليه السلام قابل هذه الشدة- رغم وجعها الكبير- بالصبر الجميل، محتسبًا مصابه عند الله تعالى قائلاً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

ومع صبره الجميل ظل مصاحبًا للحزن الطويل، والدمع الغزير، وقلبه يعتصر ألـمًا وشوقًا؛ يتألم من كون جرحه كان بمبضع أبنائه الذين كان ينبغي أن يكونوا هم الأُساة لا الجُناة، وأن يكونوا سبب سرور والدهم لا جالبي شرور عليه.

والجرح حينما يكون بيد تصنعه وتغيب عن العين أقل ألـمًا من جرح جارح تراه العين صباح مساء.

كما كان قلب يعقوب يذوب شوقًا إلى لقاء حبيبه الفقيد، وينتظر متى تشرق شمس برؤيته له.

المشهد الثاني: شدة فقد بنيامين:

كان بنيامين سلوة يعقوب الأخيرة بعد يوسف عليه السلام، حيث ظل به متمسكًا، حذراً عليه من كيد إخوته.

لكنّ قدر الله تعالى جرى بأن تأتي الشدة الثانية على نبيه يعقوب عليه السلام؛

ليرفع بذلك درجته عنده، بل لتكون هذه الشدة الثانية هي مفتاح الخروج من شدائد آل يعقوب كلها.

فحينما التقى يوسف بإخوته يوم وردوا مصر -وكان عزيز مصر آنذاك قبل أن يعرفه إخوته-؛ طلب منهم أن يأتوا ببنيامين، وكأن ذلك بوحي من الله تعالى.

وكان إخوة يوسف يدركون أن لا مناص من تنفيذ طلب العزيز؛ لأنه سيمنع عنهم الكيل إن لم يأتوا به، وهم في حاجة شديدة إلى ذلك.

فما كان منهم إلا أن راودوا أباهم في ذلك، لكنه أبى أول مرة؛ متذكراً خيانتهم له في يوسف الذي مازال جرحه في قلبه غير مندمل فقال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾[يوسف:٦٤].

غير أن يعقوب عليه السلام وافق على إرساله معهم؛ لشدة الحاجة إلى جلب الطعام.

فذهب بنيامين مع إخوته، ولكن احتبس في مصر، كما ذكرت الآيات.

فرجع أبناء يعقوب ليخبروا أباهم بذلك، فكان هذا الخبر فاجعة كبيرة للأب الثكلان بالابن الأول، وإذا بالابن الثاني يلحق أخاه.

وهنا اشتد الأمر على يعقوب، وتضاعف ألمه، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

إن فاجعة يعقوب بفقد بنيامين لم تنسه فاجعته بيوسف، بل جددت جرحها،

وألقت الحياة في بثّها، فأسلم نفسه للكمد الكبير، والدمع الغزير، حتى فقد نور عينيه، ولا يكون ذلك إلا لطول البكاء، وعظم حزن النفس، قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٤-٨٦].

"**والبث**: الهم الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء.والحزن: الأسف على فائت.فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب عليه السلام؛ لأنه كان مهتمًا بالتفكير في مصير يوسف عليه السلام، وما يعترضه من الكرب في غربته، وكان آسفًا على فراقه"(١).

قال الشاعر:

فلأَبكيَنَّ على الفراق كما بكى أسفًا لفُرقةِ يوسفٍ يعقوبُ
وَلأَدعُوَنَّكَ في الظلام كما دعا عند البليةِ رَبَّهُ أيوبُ(٢).

ولا شك أن هاتين الشدتين اللتين نزلتا بيعقوب شدتان عظيمتان جداً؛ فإن فقد الأولاد ليس بالأمر الهين على الآباء، خاصة على أبناء محبوبين.

إنه لا يعرف عظم ذلك إلا قلب أب أو قلب أم؛ إذ الأولاد هم فلذات الأكباد، وزينة الحياة الدنيا؛ ولهذا كان الصبر على موتهم من أسباب دخول الجنة؛ لعظم المصيبة بذلك.

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/٤٥).

(٢) البحر المديد (٣/٣٥٨).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه؛ إلا الجنة)[1].

وعن معاوية بن قرة، عن أبيه: أن رجلاً كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ابن له، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (أتحبه؟) فقال: يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه، ففقده النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (ما فعل ابن فلان؟)، قالوا: يا رسول الله، مات، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه: (أما تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة، إلا وجدته ينتظرك؟)، فقال رجل: يا رسول الله، أله خاصة أم لكلنا؟ قال: (بل لكلكم)[2].

وقد عبر بعض الآباء عن عظم الشدة التي تنزل عليهم بفقد أولادهم شعراً ونثراً، ومن أجمل ما قيل في ذلك قصيدة أبي الحسن التهامي في رثاء ابنه، ومنها قوله:

إني وتِرتُ بصارمٍ ذي رونقٍ ... أعددتهُ لطِلابة الأوتارِ
واستُلَّ من أترابه ولِداتهِ ... كالمُقلةِ استُلَّت من الأشفارِ
فكأنّ قلبيَ قبرُهُ وكأنَّهُ ... في طيِّه سرٌّ من الأسرارِ
أبكيهِ ثم أقول معتذراً له ... وُفِّقتَ حين تركتَ ألأمَ دارِ
جاورتُ أعدائي وجاورَ ربّهُ ... شتّانَ بين جوارهِ وجواري
أشكو بِعادكَ لِيْ وأنت بموضعٍ ... لولا الرّدى لسمعتَ فيه سِراري

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والنسائي، وهو صحيح.

فــإذا نطقــتُ فأنــت أوَّلُ منطقــي وإذا ســكتُّ فأنــت في إضــماري

أُخفـي مـن البُرَحـاء نـاراً مثـل مـا يُخفـي مـن النـار الزنـادُ الـواري

وأخفِّـضُ الزفـراتِ وهـي صـواعدٌ وأُكفكـفُ العـبراتِ وهـي جـوارِ

وشــهاب زنـدِ الحُـزن إنْ طاوعتـهُ وارٍ وإن عاصــــيتهُ متــــوارِ

وأكــفُّ نــيرانَ الأســى ولــربّما غُلِــبَ التــصبُّرُ فارتمــت بِــشَرار

وتلهّــبُ الأحــشاءِ شــيَّبَ مِفرقــي هـذا الـضياءُ شُـواظُ تلـك النـارِ(١).

وأزيد من شدة فقد الولد موتًا فقده ضياعًا؛ فموت الأولاد أهون من فقدهم بالضياع؛ لأن النفس تبقى بالضياع في عذاب الانتظار وعطشه، وإمكان اللقاء وحصوله، وأما الموت فإن النفس تحزن ثم تسلو؛ ولهذا كان حزن يعقوب على يوسف شديداً.

٢-مشاهد الشدة التي مر بها يوسف عليه السلام:

إن يوسف عليه السلام قد تجرع من غصص الحياة شيئًا كثيراً، ولم يصل إلى منزلته العليا في الدنيا والآخرة إلا وقد طوّف في صنوف الشدائد سنين عدداً، وهكذا كل مؤمن صادق لا يصل إلى الترقيات إلا بعد تضحيات.

وفي هذه القصة نجد من مشاهد الشدة التي لقيها يوسف ما يأتي:

المشهد الأول: شدة عداوة إخوته:

لم يكن ليوسف ذنب يستحق به عداوة إخوته له إلا حب أبيه له أكثر منهم،

(١) ديوان علي بن محمد التهامي (ص:٢٧٧).

ومن هنا لقي يوسف منهم العداوة الشديدة التي عبر عنها بغضهم وحسدهم له، والسعي لإنزال الضرر به، حتى قضت عدواتهم بعد ذلك بإلقائه في الجب والتفريق بينه وبين أبيه.

والعداوة من قريب يصبح ويمسي مع المرء يزلقه بنظرات الحنق والكره أشد من عداوة البعيد؛ ولهذا أمر الله تعالى بحسن صلة الأقارب صلة معنوية ومادية من أجل أن لا تحصل بينهم عداوات يدوم ضرها، ويطول العناء بها.

إن عداوة إخوة يوسف له كانت هي بوابة الشدائد التي مر بها يوسف في حياته بعد ذلك حتى فرج الله عنه منها.

المشهد الثاني: شدة الجُبّ:

أُلقي يوسف عليه السلام في البئر، وبقي فيها أمداً يعلمه الله، ولعل هذه البئر كانت عميقة؛ حتى إن يوسف لم يستطع الخروج منها، أو أنه لم يكن فيها ما يتشبث به ليخرج منها.

ولا ريب أن ذلك المكان المظلم المخوف على طفل صغير فيه من الشدة ما فيه. وقد ظل فيه ينتظر يد النجاة ولم يدرِ متى تسعفه، وإلى أين ستمضي به!

وفي ذلك المكان الموحش زاده فيه شدةً إلى شدته استعراضُ يوسف لماضيه القريب وهو يشاهد بعين خياله قسوة إخوته وهي تسوقه بلا رحمة إلى مكانه الذي هو فيه، والأخ إنما ينتظر من أخيه النجدة والنصرة والشفقة والحب، لكن يوسف لم يلق من إخوته إلا أضداد ذلك.

وفي تلك الشدة لعله تذكر أباه ومن يحبه من أهله حيث غدا بمنأى عنهم،

وكان ينتظر العودة إليهم فرحًا من فسحته فيفرحون لفرحه، وربما دار في خلده أنه قد يعود إليهم أو لا يعود فزاده ذلك غمًا إلى غمه، وهمًا إلى همه.

بل إن ألم فراق أبيه وأهله بقي شدةً مستمرة معه حتى منَّ الله عليه بلقائهم في مصر، فكم عانى من نوازع الحنين، وخواطر الشوق حين تمر به طيوف ذكراهم، ويترآى في خاطره مرآهم.

بقي يوسف على ذلك ولم يكن يعلم أن هذه الشدة ستنقله إلى شدائد أخرى تنتظره، قبل أن يصل إلى تحقق ما أنبأت عنه رؤياه.

المشهد الثالث: شدة الرِّق:

خرج يوسف عليه السلام من الجب، ولكن إلى أيدي نخّاسين لا يعرفون للإنسانية قيمة إلا بمقدار قيمة السلعة التي إذا وصلت إلى أيديهم بحثوا لها عن يدٍ تشتريها منهم بما يرضون من الثمن.

انطلقت به تلك الأيدي بلا رحمة ولا أمانة لتبيع حراً كريمًا ظلمًا وعدوانًا، فباعته إلى عزيز مصر؛ ليصير رقيقًا عنده بعد أن كان سيداً عزيزاً في حضن والده النبي الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

وحياة الرق حياة ذل وبلاء وحرمان وعناء، فكيف إذا كان ذلك المبتلى حراً فاسترق من غير وجه حق؟

في هذه الحياة الجديدة التي صار إليها يوسف غدا أمره إلى غيره، وحياته يتحكم فيها سواه، وليس له إلا أن يخضع ويطيع، وما أشد هذا على النفس العزيزة، وأعظمه على النفس الكريمة!

المشهد الرابع: شدة افتتان امرأة العزيز بيوسف:

حينما شغف يوسفُ امرأةَ العزيز حبًا، وأصبحت شديدة التعلق به؛ لحسنه وفضله؛ غدا ذلك شدة كبيرة واجهها يوسف عليه السلام؛ حيث إن تلك المرأة لم تكتفِ بالحب القلبي، بل سعت إلى مراودته عن نفسه، وهذا فصل ثانٍ من فصول هذه الشدة؛ لأنه إن وافقها عصى ربه وخان سيده، وجنى جناية عظيمة لها عواقبها الوخيمة[1]، وإن اعتصم منها -وهو الذي كان- فإن انتقامها شديد، وهو الذي حصل.

مع ما احتف بهذه الشدة من دواعٍ الوقوع فيها التي لا ينجو منها إلا العباد المخلصون.

فـ" هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً؛ لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعًا

(١) **قال** ابن القيم: " الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة؛ فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهًا قيامه خير من وضعه، وأما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًا وغماً وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة، وأما أن تشمت عدواً، وتحزن وليًا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول؛ فان الأعمال تورث الصفات والأخلاق" الفوائد (ص:١٣٩).

أو كارهًا، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أنْ ﴿رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ **أي:** هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر"[1].

" وإذا كانت الشدة التي استقبلته أولاً [أي: شدة الجب] كانت تتعلق بحياته أو موته، فالشدة الثانية أخطر على نفس الصديق يوسف: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عن نفْسِهِ...﴾"[2].

فلما عصاها أدخلته فصلاً ثالثًا من فصول الشدة وهو تشويه سمعته أمام زوجها باتهامه بمراودتها، وتهمة البريء بالإساءة إلى من أحسن إليه في غيبته شديدة، فكيف إذا كانت بين يديه وفي حرمته التي يثور لأجلها كل غيور.

ومع هذا استمرت امرأة العزيز في تطويل حبل هذه الشدة على يوسف؛ حيث انتقلت به فيها إلى فصل آخر وهو: تجييش صواحبها ليعنها في مرادها، وتم ذلك أيضًا، وأعلنت في هذا الفصل الأخير الإصرارَ والوعيد الشديد إن لم يلبِّ لها طلبها، ولكن الله تعالى صرف عنه كيدهن بانتقاله إلى شدة أخرى، ولكن خارج هذا الإطار وهي إدخاله السجن.

المشهد الخامس: شدة السجن:

استجاب الله تعالى دعاء يوسف عليه السلام فصرف عنه كيد النسوة،

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣٩٦).

(٢) زهرة التفاسير (٧/ ٣٧٨٥).

واتفقت كلمة الملأ على إدخاله السجن، وكان ذلك قضاء حسنًا من الله تعالى لما سيؤول إليه من الخير العظيم.

مع أن يوسف لقي في هذه الشدة العناء؛ بحيث صار في ظلمة سجن انقطع فيه عن الحياة والأحياء داخل ذلك المكان المحصور، فبعد أن كان يعيش في رحب وسعة وحركة غدا اليوم في ضيق وشظف وتقييد.

وقد قيل: "السّجن قبور الأحياء، ومنزل أهل البلوى، وشماتة الأعداء، وتجربة الصديق"[(١)].

كما أن يوسف عليه السلام بقي مدة ليست قليلة وهو مظلوم فقد **قال** تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف:٤٢].

وهذا يعني: أن يوسف لبث في السجن مدة لا تقل عن ثلاث سنين ولا تزيد عن تسع.

٣-مشاهد الشدة التي مر بها إخوة يوسف:

لم يسلم إخوة يوسف من ذوق مرارة الشدائد، فقد حصل لهم من ذلك عدة مشاهد:

المشهد الأول: شدة الحاجة:

أصاب الناسَ في مصر والشام جدبٌ بعد السنوات المخصبة؛ فقل الطعام، وعظمت الفاقة، ولم يكن هناك موئل للميرة إلا عند يوسف في مصر، فرحل

(١) أنس المسجون وراحة المحزون (ص:١٢٦).

إخوة يوسف من الشام إلى مصر وهم في حاجة شديدة للطعام، فأحسن إليهم وأوقر رواحلهم، فرجعوا بذلك فرحين إلى أبيهم قد خفف عنهم شدة الحاجة وأناهم من القوت ما يكفيهم مدة.

وبعد أن جرى في قضية بنيامين ما جرى عادوا إلى يوسف مضطرين في ثوب الحاجة الشديدة التي لم يجدوا لقضائها لهم سواه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨].

"**والمعنى:** وقال إخوة يوسف له- بأدب واستعطاف، بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة-:﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي: الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة في الرزق﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا﴾ أي: أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجدب والهزل من شدة الجوع﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أي: وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار؛ إهمالاً لها، واحتقاراً لشأنها.وإنما قالوا له ذلك: استدراراً لعطفه، وتحريكًا لمروءته وسخائه، قبل أن يخبروه بمطلبهم الذي حكاه القرآن في قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: هذا هو حالنا شرحناه لك، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة، ما دام أمرنا كذلك، فأتم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئًا، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على غيرهم جزاء كريمًا حسنًا "(١).

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ٤١١).

المشهد الثاني: شدة التهمة بالسرقة:

عاد إخوة يوسف إليه ببنيامين وهم مسرورون بحسن العلاقة به عندما نفذوا له طلبه، وفي ذلك منفعة غذائية لهم.

لكن هذه الفرحة لم تلبث أن دهمتها شدة بددتها قبل مغادرة مصر، وهذه الشدة هي: اتهامهم بالسرقة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[يوسف:٧٠-٧٥].

وهذه التهمة كان لها وقعها الشديد على نفوس أبناء يعقوب؛ لكونهم أبرياء مما رُموا به، بعيدين أن يفعلوا هذا الفعل الشنيع وهم من بيت نبوة وصلاح، ولأن هذا الفعل سيدني منزلتهم لدى العزيز الذي ما زالوا فرحين بمتانة علاقتهم به عما قريب، ولكون هذا الفعل سيحرمهم إحسان العزيز وكيله لهم مستقبلاً، ولا يستبعدون حصول العقوبة عليهم جراء ذلك.

فلهذا اشتد عليهم الأمر أيما شدة.

المشهد الثالث: شدة حبس بنيامين:

خف الأمر قليلاً عن إخوة يوسف بظهور براءتهم من تهمة السرقة، لكن وردت عليهم شدة أخرى وهي حبس بنيامين بالصواع الذي وجد في وعائه.

فماذا سيقولون لأبيهم إذا عادوا إليه بدون ابنه الحبيب بنيامين، وقد أخذ عليهم العهود والمواثيق على إرجاعه؟

فلهذا فكروا بالحال التي سيكونون عليها أمام أبيهم إذا عادوا إليه بهذا الخبر وهو مازال قلبه داميًا على فقد يوسف.

لذلك وقعوا في شدة عظيمة، ومما يدل على ذلك: أنهم راجعوا العزيز مراجعة مسترحم متذلل، ذاكرين له شيخوخة أبيهم وكبره، وذلك أدعى إلى الرحمة، وعارضين عليه واحداً منهم بديلًا عن بنيامين، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨].

لكن يوسف أبى ذلك قائلاً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾[يوسف:٧٩].

فعند ذلك انقطع رجاؤهم من فكاك بنيامين بعد أن بلغوا درجة اليأس من تخليصه، وهذا يدل على إلحاحهم وعملهم على إطلاقه، ولكن بدون جدوى.

ولعظم الموقف الذي سيكون بين يدي أبيهم أبى أخوهم الكبير أن يرجع معهم إلى الشام حتى يحصل الفرج.

المشهد الرابع: شدة الذل بين يدي يوسف:

لما عادوا إلى مصر بأمر أبيهم بالبحث عن يوسف وأخيه دخلوا على يوسف في ذل شديد، ومسكنة بادية على وجوههم وخطابهم، فاسترحموه واستدروا عطفه، ولكنهم فوجئوا بأمر عظيم زادهم ذلاً إلى ذلهم، وشدة إلى شدتهم؛ فإنهم لما قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا

الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف:٨٨]؛ قال لهم يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩].

وهنا كادت الأرض أن تبتلعهم خجلاً وذلاً؛ فقد أدركوا أن هذا الذي يحسن إليهم طوال هذه المدة، وهو في عظمة هذا الجاه والسلطان والغنى؛ هو أخوهم يوسف الذي حسدوه وكرهوه أشد الكراهية، حتى فرقوا بينه وبين أبيه، وألقوه في البئر، وفعلوا به ما فعلوا من المكاره.

فقالوا متعجبين مستعظمين: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾[يوسف:٩٠].

ولعل الهيبة والفزع قد تمكن من قلوبهم، فذهب تفكيرهم في العواقب- التي تنتظرهم- كل مذهب؛ إذ كانوا يستأهلون ذلك؛ لسوء صنيعهم به.

فقال يوسف راداً على سؤالهم: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠].

فقالوا معتذرين والذل يتصبب في كلامهم منكّسًا رؤوسهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩١].

وما أشد حال من يعتذر بين يدي من أحسن إليه؛ لإساءة ارتكبها في حقه قصداً وظلمًا!

٤-الشدة التي مر الناس بها في السنوات العجاف:

رأى الملك تلك الرؤيا التي كانت لطفًا من الله تعالى بالملك أولاً، وبيوسف ثانيًا، وبيعقوب وآله ثالثًا، وبأهل مصر والشام رابعًا.

وكان من تعبير يوسف لتلك الرؤيا: أنه ستمر بالناس سبع سنوات شداد يقل فيها قوت الناس، وتحل بينهم الشدة بسببها.

فكان الأمر كما عبر يوسف عليه السلام؛ فقد مرت السبع السنوات المخصبات ثم تلتها السبع الشداد.

عن عبد الله بن مسعود قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا قريشًا كذبوه واستعصوا عليه فقال: (اللّٰهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف).فأصابتهم سنة حصّت –يعني: استأصلت- كلَّ شيء، حتى كانوا يأكلون الميتة، فكان يقوم أحدهم فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجَهد والجوع[1].

وقوله: "(كسبع يوسف) أضيفت إليه؛ لكونه الذي أنذر بها، أو لكونه الذي قام بأمور الناس فيها".

وقوله: "والضمير في قوله: (اجعلها) يعود على المدة التي تقع فيها الشدة المعبر عنها بالوطأة"[2].

ثانيًا: استشراف الفرج من خلال غيوم الشدة:

المؤمن يعيش أمواج الشدائد على قوارب التفاؤل، وحينما تمطر عليه سحب البلايا فإنه يستظل تحتها بظلال الأمل والتطلع إلى الفرج، فلا يأس لديه يحجب عنه ابتسامات الفجر المشعة من وراء الدياجي الحالكة، ولا قنوط عنده من مجيء

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري(٢/٤٩٣).

رحمة الله بالرَّوح من خلف آكام العناء الممتدة على آفاق حياته.

وهذا وجدناه ماثلاً في هذه القصة في حياة النبيين الكريمين: يعقوب ويوسف عليهما السلام، وهما في خضم الشدائد المحيطة بهما.

فيوسف عليه السلام كان يستشرف الفرج من خلال نافذتين يرى منهما بشائر الفرج تلوح في الأفق:

النافذة الأولى: رؤياه التي رآها وعبرها أبوه، فكان على يقين بتحققها؛ ولهذا ظلت دائمة الحضور معه حتى تحققت، فيوم وقع تأويلها قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[يوسف:١٠٠].

النافذة الثانية: إلهام الله له بأنه سيخبر إخوته بأمرهم حينما ذهبوا به لإلقائه في الجب، **قال** تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٥].

"فأعلمه بما يدل على أن الله سيخلصه من هذه المصيبة، وتكون له العاقبة على الذين كادوا له، وإيذان بأنه سيؤانسه في وحشة الجب بالوحي والبشارة، وبأنه سينبي في المستقبل إخوته بما فعلوه معه، كما تؤذن به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكنه من إخوته؛ لأن الإنباء بذلك لا يكون إلا في حال تمكن منهم، وأمن من شرهم "(١).

" والمقصود من ذلك تقوية قلبه، وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة، ويصير

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٣).



مستولياً عليهم، ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره"[1].

وأما يعقوب عليه السلام فكان على يقين من حياة يوسف، وثقة بالله بأنه تعالى سيفرج عنه ما نزل به من الشدة، ومما يدل على رسوخ حصول الفرج في نفسه:

١-كلماته المليئة بالأمل الدالة على ذهاب كربه:

فإنه عليه السلام لما رجع إليه أبناؤه بحبس بنيامين قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٨٣].

فقوله: "﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني: بيوسف وبنيامين والأخ الثالث الذي أقام بمصر، وإنما قال يعقوب هذه المقالة؛ لأنه لما طال حزنه، واشتد بلاؤه ومحنته؛ علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب، فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل؛ لأنه إذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع إلى الفرج"[2].

فيعقوب عليه السلام "لم يفقد يعقوب الأمل في رحمة الله، ولم يقطع الرجاء في عودة يوسف وبنيامين إليه؛ فلذا قال عقب اتهامه لأولاده في شأن بنيامين: عسى الله أن يأتيني بأولادي جميعًا: يوسف وبنيامين وابني الكبير الذي تخلف في مصر حتى آذن له بالعودة أو يحكم الله له.

(١) تفسير السراج المنير (٢/٧٧).

(٢) تفسير الخازن (٣/٣٠٧).

وأكد رجاءه في الله بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:إنه هو الواسع العلم الذي يبتلي بحكمة، ويرفع البلاء بحكمة، وهو أرحم الراحمين، هذا وقد قيل: إن مبعث الرجاء عنده تلك الرؤيا التي رآها يوسف في صغره: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[يوسف:٤].فكان ينتظر تحقيقها، ويحسن ظنه بالله تعالى، وبخاصة بعد أن اشتد به الكرب، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدة المستحكمة فرجًا، وبعد العسر يسراً"[١].

"**قيل**: إنما ترجى عليه السلام للرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام فكان ينتظرها، ويحسن ظنه بالله تعالى لا سيما بعد أن "بلغ الشِّظَاظ الوَرِكَيْنِ وجاوَزَ الحِزامُ الطُّبْيَيْنِ"[٢]؛ فإنه قد جرت سنته تعالى أن الشدة إذا تناهت يجعل وراءها فرجًا عظيماً"[٣].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٨٦].وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٩٦].

أي: أعلم من صنعه ورحمته وإحسانه، وحسن ظني به ما لا تعلمون، وهو أنه تعالى يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسبه[٤].

٢-أمره أبناءه بالذهاب بحثًا عن يوسف وأخيه في مصر:

قال تعالى عن يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (٥/ ٣٧٠).

(٢) يضرب مثلاً فيما جاوزَ الحدَّ. مجمع الأمثال (٢/ ١٢٤).

(٣) روح المعاني (٧/ ٣٨).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣١٥)، اللباب في علوم الكتاب (١١/ ١٩٣).

تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

وهذا لا يأتي إلا من استشراف للفرج، أما اليائس فلن يأمر بذلك.

٣-نهيه أولادَه عن اليأس والقنوط:

حيث قال لهم: ﴿وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

فقوله: "﴿وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي: فرجه ورحمته المريحة من الشدة﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ لم يقل: (منه)؛ إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس﴿إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ أي: بالله ورحمته وقدرته على إفاضة الرَّوح بعد مضي المدة في الشدة، وسنته في إفاضة اليسر مع العسر، لا سيّما في حق من أحسن الظن به"[(١)].

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/ ٢١٢).

المطلب الثاني: الفَرَج:

التعريف:

لغة:

(**فرج**) الفاء والراء والجيم أصلٌ صحيح يدلُّ على تفتُّح في الشَّيء، من ذلك: الفُرجة في الحائط وغيرِه، والشَّقُّ، يقال: فَرَجْته وفرَّجته، ويقولون: إنَّ الفَرْجة: التفصِّي من همٍّ أو غمّ، والقياسُ واحد، لكنَّهم يفرقون بينهما بالفتح، **قال** الشاعر:

ربَّما تجزع النُّفوس من الأمْـ ـرِ له فَرجةٌ كحلِّ العِقالِ

وفرج بين الشيئين فرجًا: شق، **وفرج الله الغم:** كشفه، فالله فارج والكرب مفروج.

وفرج الشيء: وسعه، وانفرج الغم والكرب: انكشف، وانفرج فلان من ضيقه: تخلص، **ويقال**: ما لهذا الغَمِّ من فَرْجَة ولا فُرْجَة ولا فِرْجَة، **والفَرَجُ** من الغم بالتحريك، يقال: فَرَّجَ الله غَمَّك تَفْريجاً، وكذلك فَرَجَ الله عنك غمَّك يَفْرِج بالكسر[١].

اصطلاحًا:

الفرج هو: انكشاف الغم[٢].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٤٩٨-٤٩٩)، المعجم الوسيط (٢/٦٧٨) لسان العرب (٢/٣٤١).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن(٢/١٨٢).

نافذة:

الشدائد لها أمد معلوم قد يقصر وقد يطول، ولكنها إلى الزوال مآلها، وإلى الذهاب نهاية حالها، غير أن المؤمن لديه ثقة بالله تعالى وحسن ظن به، ويقين بعدم دوام شدته، وهذا الشعور الإيماني يخفف وطأتها عليه، ويسرع بالفرج إليه، وما أجمل قول الشاعر ناصحًا:

يَـا صَـاحب الهـمِّ إنّ الهـمَّ منقطـعٌ ... أبــشر بِــذَاكَ فــإنّ الْكَــافِيَ اللهُ

الْيَــأْسُ يقطــعُ أَحْيَانًــا بِــصَاحِبِهِ ... لَا تيأســنَّ كَــأَنْ قــد فــرّجَ اللهُ

اللهُ حَـسبُك مّمـا عُـذتَ مِنْـهُ بِـهِ ... وَأَيْــنَ أمنــعُ مّمــن حَــسبه اللهُ

هــنّ البلايــا، وَلَكِــنْ حَـسبنَا اللهُ ... اللهُ حَــسبك، فِي كــلِّ لَــك اللهُ

هــوّن عَلَيْــك فــإنّ الــصَّانِع اللهُ ... وَالْخَــيْرُ أجمــعُ فِــيمَا يــصنع اللهُ

يَـا نفـسُ صـبراً عـلى مَـا قـدّر اللهُ ... وســلّمي تــسلمي فالحــاكم اللهُ

يَـا رُبَّ مستـصعبٍ قـد سـهّل اللهُ ... وربَّ شرّ كثــير قــد وقــى اللهُ

إِذا بُلِيــتَ فثــق بــالله وَارْضَ بِــهِ ... إنّ الَّـذِي يكْـشف الْبلـوى هُـوَ اللهُ

الْحَمــدُ لله شــكراً لَا شريــك لَــهُ ... مَـا أسْرعَ الْخَيْرَ جدًّا إِن يشأْ اللهُ (١).

وفي قصة يوسف عليه السلام مشاهد للفرج بعد الشدة، بل كانت غاية من غايات إنزال سورة يوسف، فيعقوب ويوسف عليهما السلام مرا بمشاهد متعددة من البلاء، ثم كانت النهاية بحصول اليسر بعد العسر، والفرح بعد الحزن، والهناء بعد العناء، والظفر بعد الصبر، فكأن السورة الكريمة من هذه القصة العظيمة

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٥/ ٢٠).

تقول لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم- وهو يلاقي صنوف الأذى والصدود بين جبال مكة-: إن الحال ستتغير؛ فالمستضعفون من المؤمنين في مكة سيصيرون هم الأعزةَ الأقوياء، ودينهم الذي ضاق بأهله المقام في مكة ستفتح أمامه الدنيا.

وإن من عادَوك وآذوك، وحاولوا إذلالاك -يا رسول الله- سينقلب شأنهم كما انقلب شأن إخوة يوسف؛ ففي يوم فتح مكة خطب رسول الله في الكعبة على رؤوس قريش قائلاً: (ما تقولون وما تظنون؟ قالوا: نقول: ابن أخ وابن عم، حليم رحيم، قال: ما تقولون وما تظنون؟ قالوا: نقول: ابن أخ وابن عم، حليم رحيم، ثلاثاً، فقال رسول الله: أقول كما قال يوسف: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢] "(١).

بل القصة بمجيء الفرج بعد الشدة هي رسالة تطمين لكل مؤمن بحسن العاقبة، وبشارة لمن آمن وصبر بأن الخير ينتظره في نهاية الطريق فلا يجزع ولا يقنط.

"حكي أن رجلاً بقي في جزيرة بلا زاد **فقال** بطريق اليأس:

إذا شَابَ الغُرابُ أَتَيْتُ أهْلي وصارَ القارُ كاللَّبنِ الحليبِ

فسمع قائلاً يقول:

عَسَى الْكَرْبُ الّذِي أَمْسَيتُ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءه فَرْجٌ قَرِيبُ

فلما نظر رأى سفينة فوصل بها إلى أهله(٢).

(١) دلائل النبوة.للبيهقي(٥/٥٨).

(٢) روح البيان (٤/٣١٠).

وستتحدث في هذا المطلب عن أمرين: مشاهد الفرج في قصة يوسف عليه السلام، وأسباب النجاة من الشدائد وحصول الفرج من خلال قصة يوسف عليه السلام.

أولاً: مشاهد الفرج في قصة يوسف عليه السلام:

هناك مشاهد متعددة لحصول الفرج بعد الشدة في هذه القصة لمن مروا بشدائد فيها:

١- الفرج عن يعقوب عليه السلام:

ابتلي يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه واحداً بعد الآخر، وعانى لذلك من شدة الثكل ما عانى، ثم منَّ الله عليه بالفرج الذي كان فوق ما يرجوه.

فإنه -عليه السلام- حين احتبس ابنه بنيامين في مصر بلغ الغاية من الشدة، وعندما تشتد عروة البلاء اشتداداً عظيمًا يأذن الله بالفرج الذي يقدره كما يشاء لعبده، قال الشاعر:

إِذا الحادثاتُ بلغن المدى وكادتْ تذوبُ لهنّ المُهَجْ
وجلَّ الْبلَاءُ وقلَّ العزاءُ فَعِنْدَ التناهي يكون الْفَرَجْ[1].

وقد مر الفرج الذي شمل يعقوب بثلاث مراحل: ريح قميص يوسف، وصول قميص يوسف، اللقاء السعيد في مصر.

فقد هبت ريح قميص يوسف إلى أنف يعقوب من مسافة بعيدة، فمحت تلك الريح رياحَ الحزن الذي عصف بقلب يعقوب بوصول القميص الأول.

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي (٥/٢٣).

فما أجمل هذه الريح التي طفقت تزيح غبار الأحزان والآلام، وتفسح الطريق أمام السعادة التي ستقبل من مصر على تلك النفس التي ثكلت وتجرعت غصص السنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف:٩٤].

"أي: خرجت من مصر. يقال: فصل القوم عن المكان وانفصلوا، بمعنى فارقوه. قَالَ أَبُوهُمْ أي: لحفدته ومن حوله من قومه، من عظم اشتياقه ليوسف، وانتظاره لروح الله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

الريح: الرائحة، توجد في النسيم. أي: لأتنسم رائحته مقبلة إليّ؛ كناية عن تحققه وجودَه بما ألقى الله في روعه من حياته، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته. وقد كان عظمَ رجاؤه بذلك من مولاه، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه؛ ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله. وإذا دنا أجل الضراء أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرْف السراء، يدري ذلك كل من قوي إحساسه، وعظمت فطنته، واستنارت بصيرته، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج، ولا يحنث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج. عرف ذلك من عرف، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف"(١).

فبقي يعقوب يتلذذ بتلك الريح، ولا يدري ماذا سيسير إليه وراءها، ويشتاق للوصول إلى داره، وما هو إلا زمن حتى جاءته مرحلة الفرج الثانية:

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/٢١٧).

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٩٦].

" أي عاد بصيراً؛ لما حدث فيه من السرور والانتعاش، قالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من حياة يوسف، وإنزال الفرج "[(١)].

فما أعظمَ سعادةَ يعقوب وهو يشم قميص حبيبه مستبشراً بحياته، متلذذاً بتلك الريح اليوسفية التي غابت عن أنفه سنين.

وللأولاد ريح طيبة تشرح النفس لا تعرفها إلا أنوف الآباء والأمهات.

كانت اعرابية ترقص ولدها وتقول:

يا حبذا ريحُ الولَدْ ريحُ الخُزامى في البلدْ
أهكذا كلُّ ولَدْ أم لمْ يلد مثلي أحدْ![(٢)].

وقيل لبعضهم: أيّ ريح أطيب؟ فقال: ريح ولدٍ أربُّه -أتولاه وأتعهده-، وبدنٍ أُحبُّه[(٣)].

وحينما وصل الفرج بقميص يوسف حمل معه البشرى باللقاء السعيد والعيش الرغيد، قال تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣].

فانتقل يعقوب بآله إلى مصر، وتكاد خُطاه تسبق أنفاسه؛ عجلاً لتكتحل

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/٢١٨).
(٢) المستطرف (٢/٢٤).
(٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/٣٩١).

عيناه بيوسف، ويضمه ضمة الوالد المشتاق إلى ولده الحبيب الغائب، فوصل يعقوب إلى مصر فاستقبله يوسف استقبالاً عظيمًا، وطوى القرآن الكريم عنا تلك اللحظات الحانية التي التقى فيها الأب والابن والشوقُ يملأ حناياهما، تاركًا لخيالنا السياحة الحرة في تصور تلك اللحظات السعيدة.

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ سُكُوْتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ[1].

٢- الفرج عن يوسف عليه السلام:

لم يمر أحد بتعدد مشاهد الشدة في هذه القصة كما مر يوسف عليه السلام؛ ولهذا كان له في كل شدة فرج.

غير أن بعض شدائده يسوق إلى شدة تالية، وهي بلا ريب درجة أخرى من درجات الصعود من عنق البلاء إلى رحابة النعماء.

فمن مشاهد الفرج بعد الشدة في حق يوسف عليه السلام:

أ-الفرج من عداوة إخوته وكيدهم:

وكان ذلك بحصول الفرقة بينه وبينهم، وإن ساقه ذلك إلى شدائد، لكن ذلك أوصله إلى المنزلة العالية في الدنيا والآخرة، فكان بدء الفرج من يوم وضعوه في البئر ورحلوا عنه، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

ب-الفرج من عناء الجُبِّ:

فقد هيأ الله تعالى أولئك السيَّارة دون غيرهم، وفي ذلك الزمان دون سواه،

---

(١) الدر الفريد وبيت القصيد (٣/٢٥٣).



ليستقوا من تلك البئر دون غيرها؛ لينقلوا يوسف من جوف البئر إلى جوف القصر، ومنه سينتقل إلى العرش بعد تجاوز مرحلتين من مراحل الشدة فقط.

وبينا يوسف في تلك البئر والغم يحاصره من كل جانب يطمئنه الله بالمستقبل السعيد الذي سينتظره، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥].

" يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق؛ تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له: إنك لا تحزن مما أنت فيه؛ فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع "(١).

ج-الفرج من شرِّ امرأة العزيز:

فقد منَّ الله تعالى على يوسف بالخروج من فتنة هذه المرأة في كل مرة تحاول فيها نصب الفخ ليوسف:

ففي فخ البيت المغلق الأبواب الذي خلت به فيه من أجل مراودته فرج الله تعالى عنه بالهروب منها.

ومن فخ استمرار المراودة في ذلك الوقت فرج الله عنه بوصول زوجها، قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٤).

ومن فخ تهمتها له بالمراودة فرج الله عنه بقدِّ قميصه من خلفه، وشهادة الشاهد بكونه مطلوبًا لا طالبًا؛ بناء على تلك الأمارة.قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف:٢٨].

ومن فخ استنصارها بالنسوة عليه، وإصرارها واستمرارها في مراودته فرج الله عنه بالسجن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[يوسف:٣٥].

د-الفرج من ضيق السجن:

بدأت خيوط نسج الفرج التام على يوسف عليه السلام برؤيا الملك، فكانت" هذه الرؤيا من مَلك مصر مما قَدّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسفَ عليه السلام من السجن مُعزَّزًا مكرما"[١].

وقد جعل الله تعالى" تلك الرؤيا سببًا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن؛ وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببها؛ لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي، فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد، وأنه منذر بنوع من أنواع الشر، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه، والشيء إذا صار معلومًا من وجه، وبقي مجهولاً من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة، وقويت الرغبة في إتمام الناقص، لا سيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة، وكان ذلك الشيء دالاً على الشر من بعض الوجوه، فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا، ثم إنه تعالى أعجز المعبِّرين الذين حضروا

(١) تفسير ابن كثير/(٤/٣٩٢).

عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة، وعمّاه عليهم؛ ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من تلك المحنة[1].

فعبر يوسف عليه السلام الرؤيا تعبيراً أدخل السرور على الملك، فأمر بإخراجه وتوليته خزائن مصر.

فخرج يوسف من السجن إلى المُلك والتمكين في الأرض قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ* وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٦-٦٧].

وقد " بين تعالى أن إخوته لما أساءوا إليه، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن؛ مكنه الله تعالى في الأرض، ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم. والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن "[2].

وهكذا خرج يوسف من سجنه عزيزاً بعد الذل، سيداً بعد الرق، بريئًا بعد التهمة، آمراً على مملكة بعد أن كان مأموراً فيها، سعيداً متسع الصدر بعد أن ضيق عليه أمره، وتكدر حاله.

قال الشاعر:

وَرَاءَ مَضِيقِ الْخَوْفِ مُتَّسَعُ الأَمْنِ ... وَأَوَّلُ مَفْرُوحٍ بِهِ آخِرُ الْحُزْنِ

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٦٣).
(٢) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٨/ ٨٩).

فَـلَا تيئـسنْ فَـالله مَلَّـكَ يُوسُـفَاً خَزَائِنَهُ بَعْدَ الْخَلَاصِ مِنَ السِّجْنِ[1].

هـ-الفرج باجتماعه بأبيه وأهله:

وبعد تلك المراحل التي كانت بين يدي الفرج الأخير التقى يوسف بأبيه وأمه وأهله في مصر وهو في عز الدنيا.

وفي تلك اللحظة التاريخية السعيدة قال تعالى ذاكراً ما حصل فيها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۞ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:٩٩-١٠٠].

فيا له" من مشهد! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام، وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، وبعد الشوق المضني، والحزن الكامد واللهف الظامئ الشديد، يا له من مشهد ختامي بالانفعال والخفقات والفرح والدموع!

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة، ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه"[2].

وما أعظم قول يوسف عليه السلام في هذه النهاية السعيدة التي جاءت عقب شدائد ومحن مرت بها هذه الأسرة الكريمة: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

(١) الدر الفريد وبيت القصيد (٨/١٧٤).

(٢) في ظلال القرآن (٤/٣٤١).

رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

فأخبر أنه يلطف لما يريده، فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[الكهف:١٩]. فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن، وبيعه رقيقًا، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه، وكذبها عليه، وسجنه؛ محنًا ومصائب، وباطنها نعمًا وفتحًا جعلها الله سببًا لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حُفّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن) [(١)] فالقضاء كله خير لمن أُعطي الشكر والصبر جالبًا ما جلب"[(٢)].

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾" إنما ذكر يوسف هذا القدر من أمر إخوته ليبين حسن موقع النعم؛ لأن النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء، فهي أحسن موقعًا"[(٣)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) شفاء العليل (٣٣-٣٤).

(٣) المحرر الوجيز (٣/٢٨٩).

٣-الفرج عن ساقي الملك:

دخل مع يوسف عليه السلام فتيان هما ساقي الملك وخبازه كما قيل، وكل واحد منهما رأى رؤيا، فقصها على يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٣٦].

فعبرها يوسف بنجاة أحدهما من السجن ومن الموت، وهو الساقي، وبهلاك الآخر بعد خروجه من السجن، قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف:٤١].

فكتب الفرج للساقي بعد شدة السجن، والخوف من القتل كما آل أمر صاحبه، فرجع إلى عمله السابق، وكان هو الدليل على يوسف في قصر الملك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥].

٤- الفرج عن إخوة يوسف:

تقدم في المطلب الأول ذكر الشدائد التي مر بها إخوة يوسف كما ذكرتها القصة، وتلك الشدائد لم تدم عليهم، بل فرج الله عنهم على النحو الآتي:

فشدة الحاجة التي مستهم، وقلة الطعام التي ألمت بهم في سنوات الجدب فرجها الله عنهم بيوسف عليه السلام.

وشدة التهمة بالسرقة يوم سمعوا المنادي يقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ

﴿لَسَارِقُونَ﴾[يوسف:٧٠]. فرج الله عنهم منها بوجود الصواع في وعاء بنيامين.

وأما شدة الذل بين يدي يوسف - بسبب الفقر والاحتياج إلى إطلاق أخيهم من عنده، وتذكير يوسف لهم بما فعلوه به -؛ فقد فرج الله عنهم منها بعفو يوسف عنهم، وطلب مجيئهم بأهلهم أجمعين من الشام إلى مصر.

٥-الفرج عن الناس في مصر والشام بزوال سنوات الشدة السبع ومجيء الخصب:

وهو الفرج هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[يوسف:٤٩].

وهذا فيه" بشارة وادخار لمسرة الأمل بعد الكلام المؤيس، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر "(١).

وقوله: "﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي: فيه يغيثهم الله تعالى من الشدة أتم الإغاثة وأوسعها، وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة"(٢).

وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ "يعني: ينجون من الشدة، ويقال: يعصرون العنب والزيتون"(٣).

ثانيًا: أسباب النجاة من الشدائد وحصول الفرج:

من خلال هذه القصة العظيمة وجدنا أموراً كانت أسبابًا للخلاص من الشدائد وحصول الفرج عقبها، ومن تلك الأسباب:

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٤).

(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٦٤).

(٣) بحر العلوم (٢/ ١٩٦).

١- اللجوء إلى الله تعالى بالاعتصام به أو دعائه:

فيوسف عليه السلام حينما دعته المرأة قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

والمعنى: "أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه، واستجير به منه"[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[يوسف:٣٣-٣٤].

فجملة: "﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ خبر مستعمل في التخوف والتوقع؛ التجاءً إلى الله، وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحول والقوة والخشية من تقلب القلب، ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام.فالخبر مستعمل في الدعاء؛ ولذلك فرع عنه جملة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾"[(٢)].

٢- الإخلاص لله تعالى، والاستقامة التامة على طاعته:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤].

فقوله: "وجملة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء الصرف الخارق للعادة؛ لئلا ينتقص اصطفاه الله إياه في هذه الشدة على النفس.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٢٦٦).

قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أي: الذين أخلصهم الله واصطفاهم. **وقرأه** ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: بكسر اللام على معنى: المخلصين دينهم لله، ومعنى التعليل على القراءتين واحد"[1].

فيا أيها المخلص، كم يصرف الله عنك من سوء وفحشاء وأنت لا تدري!.

٣- عظم الرجاء وعدم اليأس من فرج الله ورحمته:

كما كان حال يعقوب عليه السلام، وقد أعطاه الله ما رجاه وأمله.

٤- الإحسان في عبادة الله وإلى عباد الله:

فقد قال تعالى عن يوسف بعد خروجه من السجن وتوليه مقاليد المالية: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٥٦].

فقوله: "﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، إشارة إلى الفرج والنصر، اللذين يأتيان في أعقاب الثبات والصبر"[2].

٥- حسن التدبير الاقتصادي:

وهذا الذي فعله يوسف عليه السلام في الادخار من سنوات الخصب إلى سنوات الجدب، وتقسيمه بين الناس قسمة عادلة.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٤٩).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٣/١٨٨).

٦- العمل بأسباب الفرج المشروعة:

فيوسف رفع مظلمته إلى الملك عن طريق الساقي حيث قال له: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢].

ويعقوب أمر أبناءه بالرجوع إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

المطلب الثالث: تأملات في مشاهد الشدة والفرج في قصة يوسف عليه السلام:

١-إن تلك المراحل القاسية التي مر بها يوسف صقلت شخصيته، فأورثته صفات حسنة إلى صفاته، ومعرفة تامة بأحوال من حوله تضاف إلى معرفته.

٢-لقد ظل يوسف خلال الضراء والسراء على قمة خِلاله العذبة فلم يهبط عنها في الشدائد، ولم يجنح عنها أيام الرخاء، وهذه من الأمور النادرة في الشخصية الإنسانية بأن يبقى المرء على طراز واحد لا يتغير.

٣-مكن الله ليوسف مرتين عقب **شدتين**: **أولاهما**: في قلب العزيز حتى وجد لديه من الخير ما لم يجد مولى عند سيده، وذلك عقب شدة الجب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١].

وثانيهما: التمكين في أرض مصر بحيث صار يتصرف في شؤونها المالية وغيرها، وذلك عقب شدة السجن، **قال** تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

فبدأت مخايل تمكين يوسف في مصر في قلب العزيز، ثم في قلب الملك، ومن هناك انطلق إلى العز العظيم.

٤-فصول الحياة مليئة بأسباب الأحزان والغموم، متخمة بموجبات القلق والخوف، غير أن تقلبات أحوالها، وتبدل أطوارها يعطي كل ذي ضيق فسحة من الأمل بأن شدائده إلى انفراج، وأن ظلام دُجاه إلى انبلاج.

٥-من قصة يوسف: لا يحزن مظلوم؛ فإن الله سينتصف له ولو بعد حين، ولا يأمن ظالم من العقوبة؛ فإنها ستأتيه ولو بقي عدداً من السنين، فلا تحزن وأنت تتأمل في سورة يوسف.

٦-كن مؤمنًا، واترك جميع أمورك لله، فلا تخف على أحلامك ولا تقلق على مستقبلك وآمالك، فدع ربك يدبر أمرك وأبشر بالخير ما دمت مؤمنًا فالخير سيأتيك ولو عبر على مراكب العناء؛ فإخوة يوسف أرادوا أن يفرغ لهم قلب أبيهم بتغييب يوسف عن ناظريه فغيوبه عنه فازداد له حبًا وبه انشغالاً، فأصبح فؤاده فارغًا منهم إلا منه، وأرادوا أن يقطعوا يوسف عن كل خير ينتظره كتحقق رؤياه فساقوه إلى البئر التي كانت منطلقه إلى أرض أحلامه وتحقق رؤياه العظيمة.

٧- مهما حاول أعداؤك أن يصنعوا بك من ضرر وأنت صادق الإيمان ثابت على الطريق؛ فإنهم قد يكونون الحطب والنار التي من خلالهما يظهر ضوؤك، ويعلو وهجك، وتبصر طريقك، وتصل عبر ذلك الضياء إلى غايتك التي لولا فعل أعدائك بك ما وصلت إليها.

٨-يوسف الذي وجد الرحمة والنعمة الدنيوية في قصر العزيز، كان لا يدري أن هناك محنة تنتظره في آخر أيامه في ذلك القصر، وبها كان آخر عهده به، فاليسر يعقبه العسر، والراحة يتلوها العناء، طبيعة لا تنفك عنها الدنيا.

٩-لقد نجا يوسف من فتنة امرأة العزيز التي لا ينجو من أمثالها إلا قلة من الرجال، فخرج منها بثوب نقي وعرض نظيف، وثناء حسن من خصومه وغيرهم، وهكذا تصنع الطاعة في موضع لا ينجي من الضرر فيه إلا المعصية.

١٠-أعجب الملك من يوسف: علمه بالتعبير، وصفاته الأخلاقية الحسنة من حزمه وصبره وعفته، فالأولى عرفها من خلال تعبير رؤياه، والثانية عرفها من عدم استعجاله الخروج حينما قال الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾، بل أراد براءة ساحته من التهمة، والثالثة من قول النسوة وامرأة العزيز في يوسف تلك الصفات، وهنا صادف الملك رجلاً عظيمًا لا ينبغي إقصاؤه بل قال عند ذلك: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤]. فكان ذلك ليوسف طريقًا إلى الفرج من شدائده.

١١-تأمل: خرج يوسف من سجن الجب إلى سعة قصر العزيز، ومازال فيه رقيقًا لكنه مكرم فيه، ثم عاد إلى سجن، ومن سجنه الأخير خرج إلى قصر الملك، ولكن إلى وظيفة عظيمة. فانظر كيف تم التدرج.

١٢-أي فزع حل في قلب يوسف وإخوته يلقونه في البئر وهم عشرة، ولا منقذ له منهم؟ وأي كمدٍ حلَّ فيه وهم إخوته الذين يدّرع بهم ولكن صاروا سهمًا يقتله!.

١٣-لم يكن دخول يوسف السجن بالأمر السهل على نفسه، فبعد سعة قصر وتنعمه وترفهه فيه ينتقل إلى المكان الضيق المظلم الذي يفارق فيه ذلك النعيم السابق.

١٤-تأتي المؤمن حماية الله ولطفه لإنقاذه في أشد الأوقات حاجة لذلك: ﴿لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

١٥-مواقف وجد فيها يوسف الخوف الشديد: إلقاء إخوته له في الجب،

بيعه رقيقًا، مراودة امرأة العزيز له، دخوله السجن.

١٦-من حِكم دخول يوسف السجن: أنه كان هو المعبر إلى وصول يوسف رتبة: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فلو لم يدخل يوسف السجن لظل في بيت العزيز رقيقًا، لكن دخل السجن فرأى الفتيانِ الرؤيا فعبرها لهما فرفع أحدهما شأن يوسف في التعبير عند الملك فعبر له الرؤيا فخرج إلى قصر الوزارة.

١٧-خرج إخوة يوسف به لإدخال السرور عليه كذبًا، فأوصلوا الشرور إليه وإلى والديه قصداً، وكم من طريق مفروشة بالإسعاد ظاهراً وهي في حقيقة طريق إلى الشقاء.

١٨-قد يهيئ الله لك سبب فرج من حيث لا تتوقع: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾.

١٩-رب عيب كان سبب فرج(تقطيع القميص)، ومثله عيب الخضر سفينة المساكين.

٢٠-انظر الأقدار: أراد إخوة يوسف التخلص من يوسف بلا لقاء، فلم يصلوا إلى غايتهم، وأرادوا أن لا يعود فعاد، وأرادوا محو محبته من قلب أبيهم بتغييبه فازداد له حبًا، وأرادوا أن يخلو قلب أبيهم لهم فخلا منهم، وأراد يعقوب بقاء يوسف بلا فراق فأراد الله فراقه ثم عودته، وأرادت امرأة العزيز حاجتها من يوسف فلم تظفر بها، وأراد إخوة يوسف الرجوع ببنيامين فلم يقدروا، حتى لحقوا وراءه إلى يوسف، ولكن إلى عز وسعة.

٢١-ريح الفرج لا يجدها إلا المتفائلون، أما اليائسون فهم مصدودون عنها.

٢٢-من قصة يوسف نلاحظ " أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب، واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر؛ أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراراً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم "[١].

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤١١).

أوائل وأواخر

هذا المبحث تأملات إجمالية في أوائل الأشياء وأواخرها في قصة يوسف عليه السلام، سأسرد فيه أموراً تدخل تحت هذا العنوان.

١- بدأت قصة يوسف عليه السلام برؤيا، وانتهت بتعبيرها.

٢- بدأت السورة بآية تتحدث عن القرآن: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[يوسف:١]، وانتهت بآية تتحدث عن القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].وقصة يوسف بينهما؛ والغرض إثبات صدق نبوة محمد، وصحة ما جاء به من القرآن من عند الله، فهذه القصة بهذا الطول والدقة في نقل أحداثها لا يمكن لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يأتي به من عنده أو من عند أحد من البشر.

٣- بدأت السورة بالحديث عن القصة وكونها أحسن القصص وفيها عبر للسائلين عنها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف:٣]...﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[يوسف:٧].وانتهت ببيان عام أن فيها عبرة لأولي الألباب: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

٤- بدأ الكيد ليوسف عقب تعبير أبيه رؤياه، وخرج يوسف من الكيد بعد

تعبيره رؤيا الملك.

٥- بدأت القصة بشدة، وانتهت بفرج.

٦- بدأت القصة بحزن، وانتهت بسرور.

٧- بدأت القصة باجتماع ثم فرقة، وانتهت بعودة الاجتماع على أحسن الأحوال.

٨- بدأت بإحسان الأب إلى الابن بتحذيره من كيد إخوته: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يوسف:٥]، وانتهت بإحسان الابن إلى الأب، قال تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾[يوسف:١٠٠].

٩- بدأت القصة بالكُره، وانتهت بالحُب.

١٠- بدأت القصة بظلم، وانتهت بعفو.

١١- بدأت القصة بذنب إخوة يوسف، وانتهت بتوبتهم والاستغفار لهم.

١٢- بدأت القصة بالعقوق، وانتهت بالبر.

١٣- بدأت القصة بإخراج إخوة يوسف ليوسف من عند أبيه بحيلة، وانتهت بإخراج يوسف بنيامين من عند إخوته بحيلة كانت طريقًا لإخراج آل يعقوب من الشام وإدخالهم مصر.

١٤- بدأت القصة بوصف الأبناء للأب بالخطأ ظلمًا: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

[يوسف:٨].وانتهت بوصف الأبناء أنفسَهم بالخطأ عدلاً: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩١]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩٧].

١٥- بدأت القصة في الشام، وانتهت في مصر.

فهرس المحتويات







الجزء الثاني

مقابلات

قصة يوسف عليه السلام

الجزء الثاني

تأليف الدكتور

عبدالله بن عبده العواضي